تحقيق وتعليق

محمد عبد الغفار

المجالس المؤيدية

المجالس المؤيدية

حقق وعلّق
محمد عبد الغفار

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع تليفون ٧٥٦٤٢١

بسم الله الرحن الرحيم

وبه نسعين

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغلين بنشر المذهب الشيعى . فقد جعل الخليفة العزيز الجامع الأزهر مقراً للطلاب تحت قيادة الوزير يعقوب بن كلس فنقل إليه معظم الكتب التى تختص مذهب الشيعة . وفى عام ١٠٠٥م/٣٩٥هـ قام الحاكم بأمر الله بإنشاء جمعية علمية أطلق عليها دار الحكمة فانضم إليها عدد كبير من الفقهاء والقراء والمنجمين واللغويين والنحاة والأطباء وغيرهم ، ووضع فيها مكتبة سماها ، دار العلم ، وأجرى عليها ومن جاء بعده من الخلفاء على خدامها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والورق والمحابر .

ومن أهم الكتب التى تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المؤيدية فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلى فى إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ولكنه مسها مسا رقيقا فى الوقت الذ عرض فيه لأصول هذه العقائد التى لا بد من أن يلم بها المستجيب . لذلك لم يسرف فى التأويل إسرافاً يثقل على السامع الذى لا عهد له بعلم الباطن من قبل .

لذلك نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام من الفرائض والسنن . وقد انفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله وأعلى ذكره وأسرف فى تمجيده . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبى ، فقد عمد

الداعى إلى أن يتخذ من هذا العدد أصلا من أصول الدين . فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنتى عشرة سنة ، فيكون مجموعها تسعة عشر ، إشارة إلى الإمام المستنصر . ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولا دينية ، فقد اتخذ الفيثاغورثيون ن كل عدد أصلا لدراساتهم ، كما اتخذ العبريون العدد سبعة أصلا لبعض عقائدهم كما فعل الحرانيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلا لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مثلثه والزرادشتيون مخمسه . وهناك أهم ما يمكن أن يتخلص من هذا الكتاب .

١- توحيد الله وتنزيهه ونفى الإشراك والقرناء له .

٢- الاعتراف بالأنبياء والرسل أنهم معصومون من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين .

٣- القول بوصاية على بن أبى طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعا .

٤- التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطنا .

٥- إبطال الرأى والقياس فى كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة .

٦- القول بالظاهر والباطن معا بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر .

المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلى (١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى وعرف أحيانا بالمؤيد فقط . ولكن اللقب الذى غلب عليه هو المؤيد فى الدين يدل على ذلك أن الملك أبا كاليجار البويهى أرسل إليه يقول : « لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين أبى النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده » (٢) . وكان المؤيد فى الدين يسمى هبة الله . كما تتفق النصوص التاريخية على تسميته السلمانى نسبة إلى سلمان الفارسى (٣). وقد انحدر المؤيد من أسرة اتخذت التشيع لها دينا والفاطمية مذهبا . فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمى بشيراز ، وكان يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم . وقد أرسل الخليفة الحاكم الفاطمى . واختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها المؤيد فى الدين ، فذكر الدكتور حسين الهمدانى أنه كان فى التاسعة والعشرين ، حين طلب إليه أن يغادر بلاده فى سنة ٤٢٩ هـ ، أعنى أن ولاده كانت فى سنة ٤٠٠ هـ (٤) . ولكن الدكتور محمد كامل

---

(١) يقول الدكتور محمد كامل حسين : وسع ذلك كله ، فإنى أوافق على ما ذهب إليه المؤرخون من أن الحاكم يميل إلى ادعاء الألوهية .

(٢) المزيد فى الدين : ديوان المؤيد فى الدين ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩).

(٣) المصدر نفسه مقدمة ص ١٩ .

(٤) Hamdnl (J.R.A.S.). 1932 Part i.P. 130 .

حسين يذكر أنه ولد فى سنة ٣٩٠ هـ . معتمدا فى ذلك على بيتين من الشعر وردا فى ديوان المؤيد يخاطب بهما الخليفة المستنصر الفاطمى :

لـــى فـى هجـرة إليـك تمن   قـــد تمنيتـــه وإنـــى غلام

وتدانى من أربعين لى السن   ولـــم يقـض للتمنـــى ذمـام

وذلك يدل على أنه بلغ الأربعين من عمره سنة ٤٢٧ هـ .

أخذ المؤيد يرقى مدارج الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رياسة الدعوة فى شيراز . وأصبح حجة جزيرة فارس حول سنة ٤٢٩ هـ [١] :

اتصل المؤيد بالسلطان « أبى كاليجار البويهى » واستطاع بدهائه أن يكسب عطفه ، وأن يظل فى شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلى. ثم لم يلبث أن توثقت صلته بالسلطان البويهى حتى طمع فى إدخاله فى الدعوة الفاطمية، واستطاع المؤيد فى الدين بقوة حجته وبلاغته أن يقربه من الدعوة ويرغبه فى الدخول فيها، فكتب إليه يقول : « إنى أسلمت نفسى ودينى إليك ، وإنى راض بجملة ما أنت عليه» [٢] . ودخل أبو كاليجار فى الدعوة الفاطمية ، وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلى . ولم يكتف المؤيد بنشر هذه الدعوة فى شيراز، بل سافر إلى الأهواز وأدخل فى الآذان عبارة « حى على خير العمل »

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٢٢ .

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦١ .

وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي [١] .

وقد أحس الخليفة العباسي بما قام به المؤيد في الدين هبة الله من نشاط في الخفاء ، فكتب إلى كاليجار يطلب إليه أن يقصي المؤيد عن مدينة الأهواز ، فكتب أبو كاليجار إلى المؤيد يطلب إليه إما أن يترك مذهبه أو يرحل عن هذه المدينة [٢] . ولكن المؤيد لم يلق إلا لنذير أبي كاليجار بل أمعن في نشر الدعوة ، وأخذ يغري الديلم بالعصيان ويثير الفتنة . ولم يجد بدا آخر الأمر من أن يشد الرحال إلى الموصل . ولجأ إلى قرواش ابن المقلد العقيلي وطلب إليه أن يمد له العون في نشر الدعوة الفاطمية في بلاده . ولكن قرواش لم يستجب لدعوته لأنه كان يطمع في التقرب إلى العباسيين . فلم يجد المؤيد بداً من الرحيل إلى مصر . وقد اختلف المؤرخون في السنة التي وصل فيها إلى مصر ، فذكر إيفانوف أنه وصل في سنة ٤٣٩هـ [٣] ، وذكر الدكتور حسين الهمداني أنه دخل في مصر في سنة ٤٣٠هـ.

: ولكن المؤيد نفسه يذكر أنه لقي بمصر عند وصوله أبا سعيد التستري الذي قتل في سنة ٤٣٩هـ .

---

(١) ديوان المؤيد في الدين ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ .

(٣) السيرة المؤيدية ص ١٢٦ .

ويرى الدكتور محمد حسين كامل أن المؤيد جاء إلى مصر بين سنتى ٤٣٦هـ، ٤٣٩هـ. وأنه أخذ يتردد على أبى السعيد التسترى ويتقرب إليه . فلما قتل التسترى فى سنة ٤٣٩هـ ، تقرب المؤيد من الوزير أبى نصر الفلاحى ، وطلب إليه أن يمهد له السبيل لمقابلة الخليفة المستنصر بالله . وقد تحققت أمنيته ، ومثل بين يديه فى آخر شهر شعبان سنة ٤٣٩هـ .

وقد وصف المؤيد مقابلته الأولى للخليفة المستنصر فى هذه العبارة فقال : « وكنت فى مسافة بين السقيفة والشريفة والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العبرة ، وتمثل فى نفسى أننى بين يدى رسول الله وأمير المؤمنين مائل . وبوجهى إلى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت على ثوبى للعقود ، رأيت بنانا يشير إلى بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين خلد الله ملكه وجهه عليه زجراً ، على أننى ما رفعت به رأسا ، ولا جعلت له قدرا ، ومكثت بحضرته ساعة ، لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول ، وكلما استرد [1] الحاضرون منى كلاما أزددت إعجاما ، ولتعقبة القى اقتحاما . وهو ، خلد الله ملكه ! يقول : «دعوة حتى يهدأ ويستأنس » . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها ، وتركتها على عينى وصدرى ودعيت وخرجت [2] .

(١) يبدو أن صحتها استدر .

(٢) السيرة المؤيدية ص ١٢٧ .

وقد تقلد المؤيد ديوان الإنشاء وزيد فى رزقه ، وعلا قدره فى نظر الخليفة المستنصر . وقد استغل هذا الداعى عمله بديوان الإنشاء ليوسع نطاق الدعوة الفاطمية إلى بغداد . فلما علم أن طغرلبك السلجوقى حاول ، بعد أن دخل مدينة الرى سنة ٤٤٤هـ ، أن يهادن البيزنطيين ويحالفهم للإستيلاء على أملاك الدولة الفاطمية فى بلاد الشام وأعالى الجزيرة ، كاتب الكندرى وزير طغرلبك يستمليه إلى الفاطميين ولكن طغرلبك دخل بغداد فى سنة ٤٤٧هـ . ولما هرب البساسيرى ، اتصل به المؤيد وأنهى إليه بأن الفاطميين على استعداد لشد أزره وإمداده بالمال والسلاح . كما أخذ يستميل أمراء العرب والأكراد يخلع عليهم خلع الفاطميين ويغدق عليهم الأموال الجمة .

ونجحت خطة المؤيد ، فانتصرت جيوش البساسيرى على جيوش طغرلبك وانتشرت الدعوة الفاطمية فى العراق ، وخطب للمستنصر فى بغداد . ولكن البساسيرى ما لبث أن تفرقت جموعه ، ونجح طغرلبك فى طرده من بغداد فى سنة ٤٤٩هـ ، وأخفقت خطة المؤيد إخفاقا تاما . ولكن الخلافة الفاطمية قدرت الجهود التى بذلها هذا الداعى فى نشر الدعوة ، فأسندت إليه أمر رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة فى سنة ٤٥١هـ . على أن حياة المؤيد بعد تلك السنة أصبحت غامضة أشد الغموض ، وظلت على ذلك حتى توفى سنة ٤٧٠هـ [١].

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين ، مقدمة ص ٤٩ .

كان المؤيد بارعا فى الكتابة بالعربية والفارسية ، وقد خلف عدداً لا يستهان به من الكتب لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم (١) . ومن المؤلفات التى تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » و « ديوان المويد » و «سيرة المؤيد فى الدين » و « شرح المعاد » ، وكتاب « الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير » ، وكتاب « الابتداء والانتهاء » ، « وجامع الحقائق فى تحريم اللحوم والألبان » (٢) . ومن أهم آثار المؤيد التى تكشف عن عمقه فى فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى مجالس الدعوة يشرح فيها المذهب الفاطمى ، وبلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة ، ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعى الدعاة فى سنة ٤٥٠ هـ (٣) . ويعد ديوان المؤيد فى الدين أهم مؤلفاته ، لأن شعره فى هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاما . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائدة من ذكر الولاية ، والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . من ذلك قوله :

---

(١) Lvanow: A Guide To Ismlli Literature, P.43.

(٢) Ibid; P. 413.

(٣) ديوان المؤيد فى الدين مقدمة ص ٦٠ .

وهـم أولـو الأمر أئمة الهـدى   عصمة من لاذ بهم من الردى
مفروضـة طاعتهم على الأمم   قاطبـة من عرب ومن عجما
اقـرأ: أطيعوا اللـه والـرسول   ثم أولى الأمر بـهم موصولا
ثلاث طاعات غدت معلومه   فـى آيـة واحدة منظومـة (١)

كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس ، كما عرض لنظرية المثل والممثول . فالإسماعيليون يذهبون إلى القول بأن النبى ﷺ يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ من الراسخين فى العلم . وكما أن النبى كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من مقامه فى كل عصر يعلم هذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز معانيه ويؤولها ، لأن له معان غير المعانى التى تتداولها ألسنة العامة ، وهذه المعانى هى سر إعجاز القرآن ، وإعجازه ليس فى لفظه بل فى معناه . وفى ذلك يقول المؤيد :

إن كـان إعجاز القرآن لفظا   ولم ينـل معنـاه منه حظا
صادفتم معقـوده محلـولا   من أجل أن أنكرتم تأويلا (٢)

---

(١) ديوان المؤيد ص ٦١ .

(٢) ديوان المؤيد ص ١٠١ .

والإمامة فى نظر الإسماعيلية هى قيادة العالم ، وحمل معرفة الحقيقة إليه ، ولا بد من جود هذا المرشد فى كل عصر حتى لا بقى العالم جاهلا ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين أختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وتأويلــه مستــودع عنــد واحــد　　وإن لــم تسائلــه فــزوراً تــأولت

وأحمــد بيت النــور لاشك بابــه　　أبــو حسن والبيت من بابـــه يؤتى

للعــلم قوم بــه حضــوا ، أقامهم　　رب الورى للورى فى أرضه علما (١)

لم يأخذ الفاطميون بالقياس فى التفسير والفقه وطعنوا فى فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه ، يتضح ذلك من قول المؤيد :

وهو الــذى قد حــرف الكتـــابا　　عــن وجـهه وجانـــب الصوابـــا

يثبـــت شـــيئا لـــيس فيـــه فيـــه　　وحـــكم آى أحكمــــت ينفيه (٢)

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت ، وأن هذه العلوم هى علوم الباطن ، ولذلك سموا الباطنية . لأن أعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم . قال المؤيد :

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

وربَ معنـــى ضمَّهُ كـــلام كمثـل نــور ضـمَّهُ ظــلام

بــاق بـقاء الحب في السنابل فــي معقل من أحـرز للعاقـل (١)

وإن أستخلاص الباطن من الظاهرهو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثول(٢) أى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسيمة المحسوسة . وهذا الأسم مأخوذ من أقوال الفاطميين : « إن الله جعل لهم مثلا دالاً على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله إذ يقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » (٣) ، فأخفى الله سبحانه الممثول وستره وجعل مثله طريقا إلى معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً له . قال المؤيد :

والــذى قــال فــى الكـتاب تعالــى مثــل ذاك تحتــه ممثــول

أقصد : حما ممــثوله دون المــثل ذا إبــر النحــل وهذا العسل (٤)

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٦ .

(٢) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول . فالمثل = الظاهر ، والممثول = الباطن . ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطناً . والله يضرب الأمثال للناس . أما بواطن هذه الأمثل أو ممثولها فلا يعلمه إلا الأئمة لأنهم وحدهم أصحاب علم الباطن .

(٣) سورة الزمر : ٣٩ : ٢٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ، ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحم أو نكرتها . فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين : أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل . فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسيمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية . والرؤية إما حسن أو رؤيه عقل . قال المؤيد:

فالعقل للمرء أداة كالبصر ذا: باطن فيه وهذا قد ظهر

كلاهما يدرك بالمجانسه مقاله صحت بلا ممارسة

وليس من جنس العقول الله ياقوم: كى تدركه حاشاه (١)

كما تعالى أن يكون كالصور مجسما كيما يلاقيه البصر

فكان المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار ، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالفوا المعتزلة الذين رفضوا الصفات. يدل على ذلك قوله :

فالفرقتان اجتمعا مشبهه خبالة عشواء جهل وعمه (٢)

---

(١)يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

(٢) ديوان المؤيد ص ١١١ .

أما نظر المؤيد إلى ما ورد فى آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ، فإن للمؤيد فى ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذى ذهبت إليه الإسماعيلية . فهو يرى أن اليد هى النعمة ، وهى القوة، كما يتبين ذلك من قوله :

وقائـــل للــــه وجــــه ويـــد   وقـــولـــه: هــــذا لديـــه رشــــد

وقائـــل: ذلـك حكـم باطــــل   إن صـــح ذا ، فالله شخص مائل (١)

أما رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل السور كقاف ونون وكهيعص، فإنه يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معانى مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصى . كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق – كما قالوا – قسمان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، وهم النطق عما فى الدنيا ، والآخرة النطق عما فى الدار الآخرة الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والفلك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ .

لزواج النبى بزينب بنت جحش [1] .

هذا وقد قدمنا هذا الكتاب من تراث الشيعة بطريقة جديدة بالاعتماد على الطبعات القديمة ودراسة الدكتور حسن إبراهيم فى كتاب الدولة الفاطمية وأسأل الله العون والمغفرة .

محمد عبد الغفار

القاهرة فى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م

(١) انظر : مقدمة ديوان المؤيد ١٣٤ – ١٣٥ .

* بسم الله الرحمن الرحيم *

الحمد لله الذى نظم بين الإنسان والبهائم أن خلقهما من طين ، ثم جعل نسلهما من ماء مهين، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير [١] العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء، ما عرج به أعلى المعارج من الفضل والعلياء ، فصار ممن قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلا : ﴿ ولقد كرممنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناعهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[٢] فاستنزل بتدبيره من الهواء، واستخلص الحوت من لج الدأ مـاء [٣] واستبعد أجناس الحيوان : طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها انتفاعا ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعا . وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصورا فى سرادق فكرة ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصورا فى سرادق فلكته وأسره . فهذا منفوعه الذى نفعه الله به فى الدار الأول ، ثم جعله سلماً يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى .

فلولا نور استبصار بالعقل لما كانت رسالة عن مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتنير ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد ، خير رسول استنار

---

(١) قيل قديما أنها مادة تستطيع تحويل المعدن الرخيص إلى ذهب ، وهذا رأى خطأ .

(٢) سورة الإسراء ٧٠ .

(٣) وهو ما يعرف بالبحر.

بنور سراجه ، وسار على واضح منهاجه ، وعلى وصية الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلى معراجه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين – جعلكم الله ممن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم – إن قوماً من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء التى هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة ، على غير العقل موضوعها ، وفى سوى موقعة وقوعها . فلو أنهم أنعموا النظر ، وجردوا من شوب (العصبية والهوى الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شىء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله : إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعة طلوعه ، لاستشاط من ذلك غضباً ، لقم به مكذباً دينهم ، والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلهم بمثله مقابل لكرهوه ! أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله تعالى كله مع أولى الآلباب، بقول الله تعالى :

﴿فاتقوا الله ياأولى الألباب﴾ (١) وقوله:﴿ إن فى ذكلك لذكرى لأولى الألباب﴾(٢) وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر. وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية لا برهان لها من العقل عند الرسول ،ﷺ، الآتى بها نفسه أو كونه (٣)عنده

(١) سورة المائدة ١٠٠ .

(٢) ٢١ ك الزمر ٣٩ .

(٣) بمعنى الدليل .

ولم يشعر به . فإن كان لا برهان لها عنده فهو فحش ، فلو أن سائلا سأله عن العلة التى اقتضت أن تجعل الصلاة خمساً ، ولا تجعلها ستا ، فكان يقول : لا أدرى ، لكفاه طعنا أن يأتى بشىء لا يدرى العلة فيه إذا سئل عنه، وإن كان له برهان عند نفسه عقلى – والبرهان مما يحمّل الأقوال والأفعال – ثم لم يظهره فلم يقُم إذاً بحق البلاغ. وهذا منتف عن الرسول ﷺ لأنه بلغ وقال فى النادى: اللهم أشهد أنى بلغت.

وسوى هذا : فمعلوم أن الرسول ﷺ لم يكلّف تكليف الشريعة إلا ذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه / على غير عقل ؟ لأن ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل . وما السبب فى تولية العقل أولا وعزله آخرا؟ ولم لا تكون التولية آخر ككونها أو العزل أولا ككونه آخرا ؟ وهذ مالا خفاء به على ضعف .

وقول آخر : معلوم أن الفلاسفة يدعون العلوم العقلية والأمور الحقيقة ، وأن المسمين يكفرونهم مع ذلك لانقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم إنهم غنوا عن الأنبياء عليهم السلام فى معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة إليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحصين الدماء والأموال ومنع القوى عن الضعيف .

واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التى منها العقليات التى يدعونها فى علوم الأنبياء اجتمعت، ومنها تشعبت وتفرعت، وتصديقهم قول الله سبحانه: ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[1] وقوله جل جلاله: ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾[2].

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

(٢) سورة الأنعام ٣٨ .

فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول ﷺ يسأله عن الملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار وأوضاع شريعته من صلاتها وزكاتها وصومها وحجها وجهادها من حيث يدل عليه البرهان العقلى ، أكان يقول النبى ﷺ : لا قبل لى ببرهان ذلك ؟ حاش لله تعالى .

وقول آخر مأثور عن النبى ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم قال له : أدبر ، فأدبر . ثم قال . وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أجل منك . بك أثيب ، وبك أعاقب ، فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها فلا ثواب عليها ولا عقاب، على مقتضى الخبر « بك أثيب وبك أعاقب» .

معشر المؤمنين. دعو أهل الفرقة والخلاف، فإنهم أشياع غىّ. يقول الله تعلى لنبيه ﷺ :﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانو شيعا لست منهم فى شىء﴾(١) . وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت بالأهلة . وأصلحوا أحوالكم ، وطهروا سربالكم . واحمدوا الله الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصارا والناس عنها عمون ، وكشف لكم عنها حجبا فأنتم فى رياضها تنعمون . واجروا فى مضمار التائبين العابدين ، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين، وكونوا دعاة إلى أمتكم بحسن الأفعال صامتين، وقوموا آناء الليل لله قانتين/ جعلكم الله من الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وأوزعكم شكر عارفته إذ ألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . والحمد لله القاهر سلطانه ، الباهر برهانه ، العظيم شأنه، الواسع إحسانه، وصلى الله على محمد المنزل عليه قرآنه المزلزل به للشرك بنيانه وعلى وصيه الذى هو مستودع

---

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

علمه وترجمانه ، على بن أبى طالب مؤيد الحق والناطق بلسانه ، وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه ، وسلم تسليما . وحسبنا الله ونعم الوكيل [١] .

---

(١) هو أمير المؤمنين عى بن أبى طالب رضى الله عنه أبو الحسن الهاشمى قاضى الأمة وفارس الإسلام جاهد فى الله حق جهاده ، ونهض بأعباء العلم والعمل ، استشهد فى سابع عشر رمضان من عام أربعين ، وسنه ستون سنة .

معلوم أن المسلمين يشهدون بنبوة موسى وعيس عليهما السلام ضرورة من حيث أن القرآن مشحون بذكرهما وقصصهما . وهم خصوم أمتيهما اللتين هما اليهود والنصارى . وشهادة الخصم لاتحتاج معها إلى بينة . وهم ينكرون النبى ﷺ ؟ ولا بينة للمسلمين غير القرآن الذى لايقبلونه ، ويقولون : ما هو بلغتنا ، ولا يلزمنا فيه حكم إعجاز والأخبار التى يأثرونها فى إعجاز النبى ﷺ وهم يردونها ولايقبلونها ، فكيف الحيلة فى إثبات نبوته عليهم من حيث لايستطيعون ردها ؟ .

والمناظر من المسلمين إذا ناظرهم قال : إن كان موسى عليه السلام (هو) الذى دل عليه نبينا عليه السلام ونطق به القرآن الذى هو كتابه فقد لزمتكم نبوة صاحبكم ، وإلا لم نعرف صاحبكم كما لاتعرفون صاحبنا . وعنده أنه دقق فى المناظرة وأحسن وجوّد ، ولم يعلم أنه قابل كفراً بكفر ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ودْوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾(٢) .

وإنما الطريق عليهم أن يسألوا عن برهان سبتهم وأحدهم وأوضاع دينهم من حيث العقل ، فيوقفوا على كون اليهودية والنصرانية عندهم لفظاً بلا معنى ، وأن معانى ذلك محصورة فى دين الإسلام الذى أتى به محمد ﷺ ؛ فيتعين على من طلب النجاة منهم ، فلم يعمل فيه الهوى ، الإيمان به .

وقول آخر : معلوم أن النبى ﷺ مبعوث إلى الكافة كما قال الله تعالى . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيراً ﴾(٢) ، وأن معجزة القرآن الذى هو كلام عربى

---

(١) سورة النساء ٨٩ .

(٢) سورة سبأ ٢٨ .

تختص بلسان العرب ، فإنه يستحيل أن يكلف الرومى والهندى والتركى أن يقبلوا القرآن معجزا ، ويؤمنوا به وبمن أتى به . فما حجة النبوة ، نبوة محمد ﷺ على هذه الأمم كلها إلا أن يقام عليهم من صورهم وتراكيبهم حجج عقلية هى موجودة فى معانى القرآن دون ظاهر لفظه عند الراسخين فى العلم ، يقوم منها برهان نبوة النبى ﷺ وإلا فلا برهان .

وقول آخر مختصر شاف : إن العقلُ صنع اللّه سبحانه فى باطن الإنسان يرى به مبصرات الآخرة ، ككون العين صنعه فى ظاهره ، يرى بها مبصرات الدنيا . وقد يشرك الحيوان الإنسان فى العين ولا يشركه فى العقل . فما يقال فيمن أعمى عينه بيده فحجب عنها ضياء العالم ونوره ؟ وهل يحكم على من فعل ذلك بعين يشركه الحيوان فيها إلا بضعف الرأى وسوء الاختيار ؟ أفلا يحكم على من أعمى العين المطموح بها إلى دار القرار بالشقوة والخسار ، وحلول جهنم دار البوار ؟ نعوذ باللّه من ذلك .

وجملة ما يقال فى قضية قولهم : إن الشرع غير موضوع على العقل ، إن صار سائرا ولى آفاقه مَنْ قصّر أن يكون بجناح البرهان فيها طائرا ، فرأى أنه إن أثبت لكل شىء برهانا ودليلا ، واقع خطيا طويلا ، ويدل تصحيح جسم رياسته تعليلاً ، فأبى أن يسلك فى هذا القول مضيفاً ، وآثر أن يختصر على نفسه طريقاً ، ونفى أن بين الشرع والعقل صحبة أو قربة ، وسن بقوله هذا سنة ، أبقيت على دين الإسلام سبة .

اعلموا أن شريعة الإسلام لما صار رئيسها مرؤوسا ، وأصبح الأذناب رؤوسا ، تبلبلت الألسن فيها وكثر من المتكلمين، وارتكبوا ما نهى الله عنه سبحانه بقول الله: ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾[1] .

فمن جملة ما افتروا على القرآن فظلوا فى الضلال البعيد – وأنه لكتاب عزيز، لا يأتيته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد – إيجابهم فيه المجاز والاستعارات التى هى نفس الكذب ، وقولهم : إنه ما كان نزوله بلغة العرب ، وكان موضوع لغتهم أن يكون فيها مثل ذلك فلا ينبغى للقرآن إلا أن يكون جارياً مجراها وسالكا مسلكها ، حاملا للمجاز والاستعارات . قالوا : ولا يطلق لفظ الكذب عليهما لكون الموضوع كذلك . والجواب عن ذلك أن الكلام على ضربين ، وهما صدق وكذب ، لا ثالث لهما . فهذا الذى يسمونه مجازاً فى أى قبيل هو منهما ؟ إن قلتم إنه صدق بطل المجاز ، وإن قلتم إنه كذب بطل المجاز ، وإن قلتم إنه لا صدق ولا كذب أتيتم بمالا يعقل ودخلتم فى السفسطة . وإذا كانت الصورة هذه فقد عرى المجاز من لباس الصدق وبقى أن يكون كذبا ، وإذا كان كذباً كان الكذب قبيحاً لنفسه ، وكان الله سبحانه عنه منزها ، ولا يكاد تجمَّل القرآن بلغة العرب يفى بتقبيحه بنقيضة الكذب .

ومن جملة ما قالوا إن القرآن فيه مجاز، قوله سبحانه: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾[2]

(١) سورة النحل ١١٦ .

(٢) سورة الأنعام ١٢٢ .

قالوا : إنه سبحانه كنى عن الكافر والجاهل بالميت مجازاً ، وهو حى بالحقيقة . «فأحييناه » يعنى بالإيمان . قالوا : هو مجاز ، فليس الإيمان حياة بالحقيقة ﴿ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ﴾ وهو القرآن – قالوا على المجاز ، فليس القرآن بنور بالحقيقة .

هذه غاية ما عندهم فى معنى الآية . ينسبون ربهم سبحانه على طريق من التجمل إلى الكذب ، ويجعلون العلة فيه كلام العرب . والقضية عكس ما يظنون ونقيض ما يتوهمون : فإن المجاز ما سموه حقيقة ، والحقيقة ما سموه مجازاً والمجاز مأخوذ من « جاز يجوز جوازاً » ومنه اشتق المجاز وهو الطريق فنقول :

إن الحياة التى كانت لهذا الكافر قبل إجابته دعوة النبوة كانت حياة مجاز لا حياة حقيقة ، مثل حياة البهائم ، محصولها موت الأبد . فهو وإن كان فى شعار الحياة ظاهرا ، فلقد كان من جهة الحقيقة ميتا ، فجاءت كناية الله عن حقيقة لا عن مجاز . فلما دعاه الرسول ﷺ نفخ فيه روح الحياة الأبدية حقيقة لا عن مجاز من بعد موته ، وأسهمه فيما آتاه الله تعالى بقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾(١) فالحياة الطبيعية المكتسبة يشركه فيها أجناس البهائم التى يكون ثبوتها إلى حين نزول القبر هى حياة المجاز ، لانسلالها من القبضة وزوالها والحياة المكتسبة من مستقر النبوة هى الحقيقة لثبوتها ودوامها . فقد انقلبت المسألة فصار تحقيقهم مجازا ، ومجازهم تحقيقا .

---

(١) سورة الشورى ٥٢ .

وأما قوله سبحانه : ﴿ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾[1]، وتفسيرهم أن النور هو القرآن على جهة المجاز ، فليس القرآن بسراج ولا شمعة ، فنحن نقول : إن القرآن هو النور الحقيقى الأبدى المستضاء به حيث لاتضيىء شمس ولا قمر ولا نجوم ، وإن جميع هذه الأنوار المحسوسة الواقعة تحت الأعين مجاز لتصرفها وانقضائها وزوال سلطانها ، ونور القرآن تحقيق وتأييد وخلود ، وإنه لنور الآخرة ، ونحن اليوم نلحظ به ونعاين بعين عقولنا من معالم الآخرة فيه كل عجيبة . هذا ونحن فى قبضة الجسم وأسر الطبيعة ، فكيف إذا كشف الحجاب ، وارتفعت هذه العلائق والأسباب ، وصارت الدار والمملكة للقرآن وأهل القرآن ؟ فقد ثبت أنه النور على جهة التحقيق ؛ وأن الأنوار المحسوسة أنوار على المجاز والمجاز ما ينتهى ويفنى ، والحقيقة مالا ينتهى ويبقى .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٢ .

معشر المؤمنين : نفعكم الله بهذا العُشر نفع من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وأوردكم من التقوى والبر ورد من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن . إن العلم يكون هذا العشر بالخيرات محفوفا ، وبالبركات مكنوفاً ، لمشاع فى الفرق الإسلامية غير مقسوم ظاهر من حيث النقل والأخبار ليس بمكتوم ، والذى هو صائر إليكم من جهة أئمتكم عى جهة الخصوص فيه من درن العموم ما هو موجود فى مرايا العقول ، أن الأيام هى برباطات دوران الأفلاك مرتبطة ، وبطلوع الشمس وغروبها متعلقة ، ولا معرفة لها بذواتها ، ولا إحساس بمجيئها وذهابها ، من أين استحق بعضها أن يكنى عنه بأيام الله فيكون بالشرف مجللا ، وبعضها أن يكنى عنه بالأيام النحسات متشاءما به مستثقلا ، لولا أن صفوتها جعلت على صفوة أحياء نطقاء مثلا ، ورذلها على أراذل عصاة أشقياء ممثلا ؟

فأيام الله معشر المؤمنين أمثلة على صفوة من الأنام أحلهم الله تعالى منهم على الأعياد من الأيام ولهذا العشر من الجملة ممثول شريف شرف مثله لمثوله ، وعظم محسوسه لمعقوله قوم بهم ينطق لسان الحق ، وهم الواسطة بين الله وبين الخلق . سياقتهم إلى الحج الذى هو ختام الأعمال الشرعية ، والتكاليف الوضعية والحج يقع فى شهر هو ختام السنة ، وهو مثل على صاحب دور به ختام النبوة والبيت المحجوج هو قبة المصلين الذى عظم الله قدره ، وأمرهم بالتوجه نحوه فى صلواتهم ، فقال سبحانه : ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[1] ، ولتوجه الإنسان بحياته ونطقه / إلى بيت جماد لا يحس ولايعقل خطب ، هو مكان الذكرى

(١) سورة البقرة ١٤٤ .

لمن كـان له قلب . وذلك أن المصلى من حـيث جـسـمـه تراب ينحل إلى تراب فاقتضى أن يكون قبلة ما ينحل إليه وهو التراب . ومن حيث نفسه هو جوهر قابل لآثار النبوة والكتاب ، فاقتضى أن تكون قبلتها . ما تنحل إليه وهو النبوة والكتاب . فهو إذا استقبل القبلة فكأنما استقبل الكثيف بكثيفه ، واللطيف بلطيفه . يتوجه بكثيفه إلى ما إليه انحلاله ، وبلطيفه إلى ما إليه مآله . فمن صلى على هذه القضية فسهام سعيه صائبة ، وأنجم سعده ثاقبة ، ومن ضل عنها كان كمن قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ عاملة ناصبة ﴾[1] .

(١) سورة الغاشية ٣ .

ومن شرائط الحج القربان ، وهو حكم مستقر فى الأوراد مأخوذ به مرغوب فيه. وليس فى ظاهر حكمه قصد تعرفه العامة غير أن يتسع الفقراء بفضل الأغنياء وما يجرى مجراه. كما قال الله تعالى: ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ (١).

وللقربان شرط يساق فى الوعظ كلامه إذا جاءت أيامه ، وهو ما يقال : واجتنبوا مرضاها ومشوهاتها بزيادة الأعضاء أو نقصانها . وأرووا الذبائح ماء قبل تقريبها ، وأحدوا الشفار لها . ومما ورد من مثل ذلك فى التوارة من قول اللهّ سبحانه : « ما لكم تقربون لى كل عرجاء وكل عوراء » لو أهديتم ذلك إلى صديق أكان يقبله إلا صحيحاً سليما . وليس فى ظاهر حكم القربان وكونه سليما صحيحاً قصد تعرفه العامة غير أن لا تكون الذبيحة مريضة أو مشوهة الخلق بزيادة أو نقصان ، فيكون تناول لحمها ممرضا لآكله أو مضراً به ، ذلك مبلغهم من العلم . فإذا عدل بالقول إلى مناسك العقل التى هى بأئمة دينكم أيها المؤمنون قائمة ، وثغور الرشاد بهم باسمة ، قام فى المعلوم أن القصد من الذبيحة أن تجعل مادة للقوى الإنسانية فتنقل من ضعة إلى رفعة ، ومن ذلة إلى عزة ، ولا يصح هذا اقصد من قاصد إلا بذبح البهيمة ونزع روح حياتها عنها ، وتسكين كل متحرك منها . فهذا هو القربان المحسوس . والذى يجرى بإزاء ذلك من حيث المعقول الذى تقتضيه قضايا / الدعوة وحكمة أهل بيت النبوة (عليهم السلام) أن القربان هو المعاهدة ، وذلك أن المعاهدة هى القتل والنقل عن العادات البشرية إلى الأخلاق الملكوتية ، والتجوهر بجوهر الملائكة ، وهى أول درجة من درجات الآخرة ، ولا يصلح لمعاهدة إلا الورع السليم الصحيح فى دينه على ما هو به، مستضعفا ككون

(١) سورة الحج ٣٦ .

البهيمة مستضعفة ، ولا يجوز المريض ولا المختل ، يعنى الشاك المتخبط المضطرب ، ولا الزائد فى دينه برأى نفسه والناقص منه على حسب الزيادة فى أعضاء الذبيحة والنقص منها وتشوه خلقتها .

ومن حكم القربان أن يروى من الماء قبل تقريبه ، وبإزاء ذلك أن يشبع كلاماً فى ثبوت العهد ووجوبه عليه . ومن حكم القربان إحداد الشفار ، وهو الإتيان بالحجة القاطعة التى لايدفع فى وجه حقها باطل .

معشر المؤمنين . نفعكم الله بيومكم هذا (١) الذى جعل برهان فضله مبينا ، وأنزل فيه . ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً (٢) ﴾ إن هذا يوم نزول فريضة ختم الله بها فرائض الدين ، وأوضح معها نهج الهدى للمهتدين ولقد كان النبى ﷺ فرقا من وقفة تبليغها وأدائها ، ناظرا من وراء ستر رقيق إلى ما تشرح به نفوس من ماء بغضائها حتى نزلت عليه الآية بما ضيق خناق العذر ولز بأن يصدع بالأمر ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (٣) .

ومعلوم أن فرقة من الفرق لا تدعى أن النبى ﷺ وقف عن تبليغ رسالة فى فرض صلاة أو زكاة أو صوم أو حج أو جهاد ، وأنه دعاهم إلى الصلاة على صعوبتها على الأبدان ، والزكاة على شح الناس بأموالهم والصوم عى مضض سغبه وعطشه ، والحج الذى لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس والجهاد الذى فيه التغرير بالأرواح ، غير متحاسن من ذلك كله ، ولا مترجح فى أمره .

ولما كانت الولاية (٤) هى المذكية لنار الأحقاد ، والمثيرة لحسد الحساد ، كانت رائد التوقف ، والداعى إلى التأنى فى الأداء والتلطف .

---

(١) وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة .

(٢) سورة المائدة ٣ .

(٣) سورة المائدة ٦٧ .

(٤) المراد هنا خلافة على بن أبى طالب .

فإن دفع دافع أن التوقف كان عن تبليغ فرض الولاية / لم يبق لقوله سبحانه : ﴿ ياأيها الرسول بلغ ﴾ رباط يرتبط به ، ولا سناد يستند إليه مع اتفاق الجمهور عى أن النبى ﷺ لم يقعد عن تبليغ الرسالة فى الصلاة والزكاة وما يجرى مجراهما ، فقد صار هذا العلم مثل علم الضرورة أن نزول الآية فى شأن على عليه السلام وشأن الولاية .

وقول آخر : مضمون الآية يقتضى أن هذا الفرض الذى وقع التوقف عنه هو قوام الفرائض كلها ، وأن ثبوتها بثبوته ، وزوالها بزواله ، وذلك قوله : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ يعنى أن الذى بلغت فيما تقدم ما بلغت ، والذى صنعت ما صنعت ، بل ضيعت . هذا على مقتضى نحوى الآية ، والعقل يوجب أن يكون ذلك كذلك . فلو أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسنته التى جاء بها رسوله ﷺ ثم لم يقرن بعمله اعتقاد ولاية الرسول ﷺ الآتى بها لم يغن عنه ما عمل فتيا ، ولم يتبع غير أهل النار سبيلا .

إذا ولاية الرسول ﷺ كالمركز الذى تدور عليه دائرة الفرائض فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، ولاتثبت صحتها إلا بصحته .

وإذا كانت هذه نصبة الرسول ﷺ فى حياته كانت نصبة من يوليه أمر دينه مثلها فى مماته ، يدل عليه قوله ﷺ للناس . « ألست أولى بكم من أنفسكم » : وفحواه الإذكار بقول الله سبحانه : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (١) فحين قالوا : بلى ، قال ﷺ : اللهم أشهد على إقرارهم ، ثم قال : فمن كنت مولاه

(١) سورة الأحزاب ٦ .

فهذاعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، الخبر المشهور .

وكمثل ذلك نصبة من يليه ، ومن يلى من يليه ، ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد ، وورثها ولد عن والد ، فقد دلت الآية وقضية العقل أن الولاية هى الأصل الذى يدور عليه موضوع الفرائض .

وههنا قول آخر : إن قول الله سبحانه لرسوله ﷺ فى هذا الشأن : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ موجب بالضرورة شرطا ، وهو أن من لم يقبل من الرسول فرض الولاية آخراً فكأنه لم يقبل منه فرائض الصلاة والزكاة وغيرهما : أولا ، ليقع الأمران سواء عند المقابلة فالروسل إذا لم يبلغ الرسالة الأخيرة فكأنه ما بلغ الأولة والأمة أيضا إذا لم يقبلوا منه الرسالة الأخيرة فكأنهم ما قبلوا الأولة فى شأن الصلاة والزكاة وغيرهما مثلا بمثل .

وقو آخر : معلوم أن الفرائض التى فرضها الله تعالى فى كتابه سوف يعرض لها من عوارض الأمور ما يعلها ويبطلها ويدخل نقصا عليها ، كمثل الصلاة التى يستولى عليها النقص بالمرض فيجعل قيامها قعودا ، وقعودها اضطجاعاً ، وكمثل الزكاة التى يبطلها عدم المال ، وكمثل الصوم الذى يبطل بعلة السفر ، وحيض الحائض ، وعلة العليل ، وكمثل الحج الذى يبطله عدم الاستطاعة . والولاية هى الفريضة الثانية التى لا شىء يبطلها ، ولا علة بحال من الأحوال تعلها ، فقد دل ذلك على كونها أصل الفرائض ، وقطبها وقوامها ، والتى لاتمتد أيدى العلل نحوها .

وقول آخر : إن الله قسم فرائض دينه قسما ، فجعل الصلاة والصوم من الإنسان تكليف جسده ، والزكاة تكليف ماله ، والحج والجهاد تكليف جسده وماله ، وجعل الولاية من بين الجميع تكليف قلبه الذى هو أمير الجوارح كلها ، إخبارا عن كون الولاية أمير الفرائض كلها . ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[1] .

---

(١) ٣٧ ك ق ٥٠ .

اعلموا أن توحيد اللّه سبحانه يكبر عن أن تحصره النفوس ، أو تدركه العقول؛ لوجود المناسبة بين كل مدرك ومدرك ، بحكم الضرورة . فإذا عدمت المناسبة بطل الإدراك ومثال ذلك وجود المناسبة بين المبصر والمبصر بالقوة الجسمية ، والسامع والمسموع بالقوة الريحية ، والشام والمشموم بالقوة البخارية والذائق والمذوق بالقوة الذائقة ، واللامس والملموس بالقوة الحسية . فإن جوزنا كون البارىء سبحانه مدركاً بالعقول والنفوس أثبتنا وجود مناسبة بينه وبينه ، بها يصح الإدراك . وإذا أثبتنا ذلك أوجبنا أن فى كل ذى عقل وذى نفس أثرا من الإلهية ، وزدنا فى الكفر بانتحال هذه النحلة على من يدين دين النصرانية . ونعوذ باللّه من ذلك .

وقد سئل النبى ﷺ عن المعرفة فقال : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وقال : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » .

فأخذهم ﷺ عما سألوه من معرفة ربهم إلى معرفة نفوسهم وردهم على أعقابهم ، وذلك مما خص به ﷺ من جوامع الكلم وجواهر الحكم .

وكلامه هذا خاص وعام : أما العام فهو قول القائل : إن الإنسان إذا اعتبر حال نفسه ، كيف سله اللّه من تراب ، ثم جعله نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ولحما ، ثم أنشأ فيه روحا إلى أن جعله تعالى على سطح الأرض قائما ، وفيها متصرفا ، ومن طيباتها آكلا وشاربا ، قامت له الدلالة على اللّه سبحانه الذى أوجده من العدم ، وقواه من بعد الضعف، كما قال اللّه سبحانه : ﴿ الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ (١) .

(١) سورة الروم ٥٤ .

وكما قال سبحانه حكاية : ﴿ أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ (١) فهذا هو الكلام العام الذى يقتنع به فريق من الناس الذين تقاصرت أفهامهم وضعفت قواهم ، فإذا ورد عليهم هذا القول من جهة علمائهم الذين هم ضعفاء ناقصون فى الصور الدينية أمثالهم فرحوا وطربو نفوسا ، وشكرو وظنوا أن ذلك فى علم التوحيد غاية ، وفى معرفة البارىء سبحانه نهاية .

وأما الخاص فأن ينزه فعل الله تعالى عن الحاجة إلى المكان والزمان والعناصر التى هى النار والهواء والماء والأرض الحالة محل الأدوات من الصانع الذى لاتتم صنعته إلا بها وبوجودها ، كما لا تصح صفة هذه الكتابة إلا بالقلم والدواة والقرطاس وغير ذلك من أدوات الكاتب . إن ذلك فعل أمثالنا من الناقصين، من أجل العجز . وأن ينزه فعله سبحانه عن أن يفضى فعله إلى الكمال والتمام شيئا فشيئا ، وحالا فحالا ، كما أن هذا الفصل لم تمكن كتابته إلا حرفا ولفظا لفظا .

ولما رأينا الإنسان الذى تقدم ذكره لم يصح وجوده إلا بوجود النار والهواء والماء والأرض وبوساطة الأبوين والطعام والشراب ، الحال جميع ذلك محل الأدوات من الصانع ، ثم لم يصح كماله الا مدرجا من نطفة الى علقة ، ومن علقة الى مضغة ، الى أن بلغ أشده واستوى ، مما هو نظير صناعة هذه الكتابة من كتبها حرفا حرفا ، نفينا كونه فعل الله سبحانه على الإطلاق ، وأوجبنا كونه (فعله) سبحانه بوسائط .

---

(١) سورة الكهف ٣٧ .

فإن أنكر هذا القول ضعف البصيرة منكر ، واستبشعه مستبشع ، رد الى ما لا قبل له بالدفع فى وجهه من البرهان ، فقيل له : انك فى الدنيا خلقت ، وعلى سطح الأرض ولدت ، ومن هوائها استنشقت ، ومن طعامها أطعمت ، وأنك بالدنيا قائم ، وفيها عايش ، علما ضروريا . والدنيا خلقت غير محتاجة الى شىء مما أنت محتاج إليه منها ، ولا متماسكة بك كتماسكك بها ، فقد بان الفرق بينك وبينها ، أنك فعل الله سبحانه بوساطتها ، وأنها فعله بلا واسطة غير أمره سبحانه الذى قال فيه : ﴿ انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ . فما وجه الإنكار ؟ وإذا كانت الصورة هذه اقتضى قول النبى ﷺ « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه »[1] ، معنى غير ما ذهبوا اليه .

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

قد كان قرئ عليكم من الكلام فى قول النبى ﷺ « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » ما سمعه مستمع ، وانتفع به - بإذن الله - منتفع . وقد قيل لكم : إن منتهى شوط المفسر له من مخالفيكم أن يقول إن الإنسان إذا رأى كيف استخلصه الله تعالى من الشراب والطعام ، ودرجه فى مدارج الأصلاب والأرحام ، وأخرجه إلى فضاء هذا العالم وهو ضعيف فى خلقه ، عاجز عن الكفالة بنفسه ، فلم يزل ينشئه ويربيه ويزيده وينميه ، حتى أفضى به إلى تمام الخلقة ، وكمال الفطرة ، قامت له الدلالة على توحيد الله جلت عظمته ، وأنه هو الله الذى لا شريك له ، ولا يقدر على هذه الأفعال غيره ، ونبيتهم على أن هذا القول معيب من حيث يظن مفسرهم أنه فيه مصيب ، وذلك أن الفعل الصادر إلى الوجود بالآلات والأدوات هو بفعل الخلائق أشبه منه بفعل الخالق .

ولما كان وجود الإنسان متعلقا بوجود أرض وسماء ووالدين وشراب وطعام ، ولا يصح وجوده إلا بهذه المقدمات ، حكمنا بكونه فعل الله سبحانه بوسائط ، وقسمنا فعله جل جلاله قسمين : أحدهما الإنسان وما يجرى مجراه من الخلق الممتنع وجوده إلا بوساطة السماء والأرض والأشياء المقدم ذكرها . والآخر السماء والأرض نفسهما اللتان أنشأهما الله سبحانه بوساطة أمره ، ولا واسطة هناك غيره ، وقلنا : إنه إذا كانت القضية هذه كان قول رسول الله ﷺ : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » معنى لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، خص الله أئم ، دينه بجماله ، وأفقر الناس إلى ما عندهم فيه . فنقول :

إن الإنسان منقسم إلى تربة الأرض التى كان منها وجوده من جهة حظه

الترابى ، ومنقسم إلى الهواء المستنشق منه من جهة حظه الهوائى ، ومنقسم إلى عنصر النار بحظه النارى ، ومنقسم إلى عنصر الماء بحظه المائى . فهذه عناصر جسمه القائمة للعيان ، التى لايختلف فى اعتلاق الجسم بها اثنان . ثم إن فيه معنى لطيفا يحصر السموات والأرض بالفكر بلا كلفة ولا مؤونة ولا حركة جسمية ، وهو الذى يسمى النفس الناطقة بها شرف الإنسانية ، والتميز عن النفس الحيوانية . ومعنى آخر مميز للخير والشر ، ومقسم للحق والباطل يدعى العقل والصورة تقتضى أن تكون هذه النفس الناطقة والعقل المتميز المقسم اللذان بهما شرف الإنسانية ينقسمان كذلك إلى عنصرين شريفين كمثل انقسام الجسم إلى عناصره القائمة للعيان ، فعبرنا عنهما بالنفس الكلية والعقل الكلى ، لكون العقول والنفوس الجزئية منسوبة إليها وإذا انتهينا إلى هذا الموضع فقد استوفينا تقاسيم الإنسان كلها من حيث جسمه الكثيف الظاهر ، ومن حيث قواه اللطيفة الباطنة ، فلم يبق بعدهما شىء ، وحكمنا بكونه أعنى الإنسان مولود هذا العالم الذى هو عالم الأجسام من حيث جسمه ، ومولود عالم انفس الكلية والعقل الكلى من حيث تفسيره وعقله ، وإذا صح كونه مولود العالمين ، وجب أن نستقرى حظه من عالم الجسم وحظه من عالم الجسم وحظه من عالم النفس والعقل ، ونعتبر فى أى مكان يقع بالنسبة إليها :

فنبتدىء بتأمل حظه من عالم الجسم وقياس كل جنس منه إلى أصله . فنقيس طينته التى منها تركيب جسده إلى طينة الأرض ، فنجدها من القلة بحيث لاتحتمل النسبة ، ونقيس حظه الهوائى الذى يتماسك به إلى فسحة الهواء وفضائه . فنجده من القلة بحيث ايحتمل النسبة ، ونقيس حظه النارى الذى منه مادة حياته إلى النار الكلية ، فنجده من القلة بحيث لايحتمل النسبة ، ونقيس حظه المائى إلى

أصول الماء فنجده من القلة بحيث لايحتمل النسبة . فهذه تقاسيم جسمه صارت مستوفاة ، وهى بالقياس إلى أصولها من القلة بحيث لاتحتمل النسبة على ما قدمنا القول فيه على كونها أجزاء من عالم الجسم لا اثارا .

ونثنى بذكر حظة من عالم ا لنفس والعقل فنقول : إن حظه منه آثار لا أجزاء على نسبة الجسم ، لعله يقطعنا ذكرها لو ذكرها عن سياقة الكلام فى معنى التوحيد. ونقول : إنه إذا كانت حظوظ جسمه التى هى أجزاء من عالم الجسم لا آثار بحيث لا تحتمل النسبة من النزارة والقلة ، فما يقول فى حظوظ نفسه وعقله التى هى اثار لا أجزاء عند نسبتها إلى عالمها ؟ وأين موقع الثرى من الثريا ! .

فإنه إذا كان الإنسان من الاستغراق فى تصور عالم النفس والعقل حق التصور بهذه المثابة وهو مولوده ، من حيث خلصت فيه آثاره ، ومنسوب إليه من جهة نفسه كانتسابه إلى الدنيا من قبل جسمه ، فكيف يرجو الترقى إلى معرفة مبدعة جل جلاله الذى لا مناسبة بينه وبين مبدعاته ومخلوقاته ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فعند ذلك يكون تدرجه فى مراتب العلم إلى حيث يعلم أنه لا وصول وصلاً ، ويوقن أنه لا إدراك إدراكا فقد حصلت زبدة قول رسول الله ﷺ « من عرف نفسه فقد عرف ربه » مسفرا كالصباح ، نيرا كالمصباح .

أعاذكم الله عن فئة استخصمت نبيها فى بنى بنتة ، وقصدت خراب بيت الهدى بقصدها / لأهل بيته . إن يوم عاشوراء هو اليوم الذى دارت فيه على بيت نبيكم رحى المحن ، وجارت أيدى الزمن ، وهتكت ستور الفرائض [1] والسنن . ولقد كان الله تعالى ساق ذكر ما وقع فيهم لرسول ﷺ سوقا فى نص الكتاب ، وأراه من حجب الرموز والأمثال بحجاب ، فقال : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ [2] ، وفى ظاهر هذه الآية تقرير وتبكيت : هل يود أحدكم أن تنزل بساحته هذه النازلة ، وتلم بفنائه هذه الخطة الهائلة ؟ وليس ذلك فى شرط مايود . فإذا كان ذلك مما ينتفى أن يوده أحد لنفسه أو يختاره بنى جنسه ، فضلاً عن بنى نفسه ، فالنبى الذى هو سبيل الفلاح ، والجسر إلى نجاة الأرواح أولى أن لاتقرع هذه القارعة بابه ، ولاتتأمم من صوب أمنه جنابه .

وبعد ذلك نقول : هل شريعة الرسول ﷺ الغاذية مجرد الأرواح والعقل بأقل من جنة الأعناب والنخيل ؟ أم هل أنها علمه الجارية بأقل من الأنهار المشاهدة المعلومة ؟ أم ثمرات حكمة السائغة فى النفوس السارية بأدون من هذه الثمرات المأكولة المهضومة ؟ وهل يصح فى الكبر إذا أصابه إلا الكناية عن المفارقة ، وقد فارق محرابه ، فلحق من ربه سبحانه بالمنزلة الكبرى ، والآخرة التى هى خير من

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

الأولى ؟ وهل يصح فى الذرية الضعفاء إلا قوله ﷺ حين احتضر لفاطمة الزهراء رضى الله عنها وقد سمعها تقول : من لنا بعدك يارسول الله ؟ فقال : أنتم المستضعفون بعدى والله . وهل أصاب تلك الجنة إلا إعصار فيه نار فاحتقرت بأهله دين تمحقت ، وظلم عمت الأرض وطبقت ، وأبواب هداية استغلقت ، وجسوم طاهرة من رءوسها فرقت ؟ ما حال بيت ربته قتيلة كمد ، وربه حصيد حسام مند، وابنه منقسمان ما بين سم ناقع ، وسيف قاطع ، ونساؤه ملكة السيء ورجاله عرضة اقت وانفى . قد عوضوا من فرض الصلاة عليهم فى الصلاة لعنا على المقابر ، وبدلوا عن واجب الطاعة لهم قطعا للحناجر . منابرهم موطىء الأقدام النحسة ، ومواسم أيام الله منهم دوائر بالأيام النحسة . أبعد احتراق هذا البيت من احتراق وبعد الأغساق الطارئة عليهم من أغساق ؟ . « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل / وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء . فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » فسبحان من وسع الظالمين حلما ، وقال : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ (١) .

(١) سورة آل عمران ١٧٨ .

وقد جاء الخبر أن رسو الله ﷺ قال فى كلمة الإخلاص التى هى قوه : لا إله إلا الله ، أنها لو وضعت فى كفة ميزان ، ووضعت السموات والأرض وما بينهما فى الكفة الأخرى لرجحت كلمة الإخلاص ، .

ومعلوم أن ذلك مما ينفيه حكم المشاهدة ويثبته الباطن حكم العقل والبصيرة لكون هذه الكلمة مثل الكلمات جرما ، يدور به اللسان ، وينشق عنه الهواء ، ويخلص إلى الأسماع والأذهان ، فلو أنه كتب على إحدى كفتى الميزان لما رجحت على الأخرى . وقد كان بالقول جرما ، فعاد بالكتابة جسما .

ونحن نقول : إن هذه الكلمة التى هى كلمة الإخلاص كلمة جامعة حاصرة لجميع خلقه الله سبحانه ، من عالم العقل وعالم النفس وعالم الأفلاك وعالم الطبيعة على صغر حجمها . ونزارة جرمها . ونضرب لها مثل يسهل قبوله ، ويتسرع إلى النفوس وصوله ، بإذن الله تعالى فنقول : إن مثلها مثل النطفة التى هى على قلتها حاصرة للأشكال الظاهرة والباطنة من الصور الإنسانية المتشكلة بأشكال عالم الجسم من حيث كونها مولودة بجسمه ، وعالم العقل والنفس من حيث كونها مولودة بعقله ونفسه ، حتى إنها من حيث الفكر تحيط بالعوالم وما فيها إحاطة خط الدائرة بمركزه. فإذا كان معلوما وجود هذه الأمور العظيمة الهائلة بحكم الضرورة فى مضمار النطفة، فهل ينكر كون كلمة الإخلاص بحيث قال النبى ﷺ «أنها لو وضعت السماء والأرض فى الكفة الأخرى لرجحت ، ؟ إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب.

فنقول بتوفيق الله ومعونته : إن هذه الكلمة نفى فى الأول وإثبات فى الآخر . أما النفى فقولنا : « لا إله » والإثبات قولنا « إلا الله » . وفى «قل هو الله أحد » التى

هى سورة الإخاص بعكس ذلك ، كون الإثبات فى الأول والنفى فى الآخر . أما الإثبات فقوله : « الله أحد الله الصمد » أما النفى فقوله : « لم يلد ولم يولد » إلى آخر السورة . ولذلك علة إن أخذنا فى إيرادها قطعنا عن الغرض وسنذكرها فى غير هذه انوبة إن أنسأ الله فى الأجل .

فالنفى والإثبات من قول « لا إله إلا الله » فصلان ، وتركيب الكلمة جميعها من ثلاثة أحرف / : « ألف ولام وهاء » وإنما كثرت من جهة التكرير ، يكون جملة ما قلناه خمسة فصول . وفيها أربع كلمات : « لا » كلمة « إله » اثنان ، « إلا » اثنان، « الله » اثنان ، فتلك سبعة ، وعدد حروفها جميعها إثنا عشر ، تكون جملتها ثمانية وعشرين .

ونحن نقيم أمثلتها من السماء والأرض ، وتقطيع الأيام والإنسان الذى هو العالم الصغير ، ومن القرآن الذى هو عالم الدين بإذن الله ، ليعرف تقابل بعضها ببعض ، وشهادة بعضها لبعض ، ذلك تقدير العزيز العليم .

أمثلتها من السماء فى النفى والإثبات : الكواكب الثابتة وغير الثابتة الأحرف الثلاثة التى منها تركيب الكلمة : الجواهر الثلاثة . الشمس والقمر والنجوم . الكلمات الأربع : الحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة . المقاطع السبعة : المدبرات اسبعة . الحروف الاثنا عشر البروج الاثنا عشر ، فذلك ثمانية وعشرون .

ونحن نقيم أمثلتها من الأرض . النفى والإثبات : العامر والخراب الجواهر الثلاثة : الطول والعرض والعمق . الكلمات الأربع : التراب والمعادن والنبات

والحيوان . المقاطع السبعة : الأقاليم السبعة . الحروف الأثنا عشر : الجزائر الاثنا عشر ، فذلك ثمانية وعشرون .

وأمثلتها من الأيام . النفي والإثبات : الليل والنهار . الجواهر الثلاثة : ماضى ومستقبل وحال . الكلمات الأربع : الفصول الأربعة : شتاء وصيف وربيع وخريف . المقاطع السبع : الأيام السبعة من الأحد إلى السبت . الحروف الإثنا عشر : الشهور الإثنا عشر ، فذلك ثمانية وعشرون .

وأمثلتها من الإنسان الذى هو العالم الصغير النفى والإثبات : الجسد والروح الجواهر الثلاثة : النماء والحس والنطق . الكلمات الأربع : الأخلاط الأربع التى هى الصفراء والسوداء والبلغم والدم . المقاطع السبعة : الأعضاء الرئيسية التى هى اليدان والرجلان والظهر والبطن والرأس . الحروف الإثنا عشر الجوارح الثنتا عشرة التى هى الساقان والركبتان والفخذان والزندان والمرفقان والعضدان فذلك ثمانية وعشرون.

وأمثلتها من القرآن : النفى والإثبات . المحكم والمتشابه . الجواهر الثلاثة ثلاث طاعات مقرون بعضها إلى بعض : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ (١) / الكلمات الأربع : مثل أنهار الجنة الأربعة .

المقاطع السبعة : سبع سموات وسبع شداد وسبع بقرات سمان وسبع عجاف .

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

الحروف الإثنا عشر : ﴿ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ﴾ (١) . ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ (٢) فذلك ثمانية وعشرون .

فهذا من تفصيل المجمل من قول ، لا إله إلا الله ، وما بقى فى الغشاء أكثر ، والذى لأتت معاطف العبارة عنه وما أوقف منه أوفر ، قد جلى لكم نفسه وكان غريبا فصار قريبا ، وأشرف عليكم بإنارة البصائر عن منبر النجاة خطيبا ، ليقوم لكم على صدق القول من نبيكم ﷺ واضح البرهان ، فى رجحان كلمة الشهادة على السموت والأرض لو وضعتا فى كفة الميزان .

---

(١) سورة المائدة ١٢ .

(٢) سورة البقرة ٦٠ .

ونقول الآن : إن العدة التى بها أقام الله تعالى عالم الخلق بمثلها يقوم عالم الأمر ، وهما المكنى عنهما بلسان الفلسفة : الكمال الأول والكمال الثانى ، وعلى لسان القرآن والشرع : بالخلق والأمر ، قال الله عز وجل : « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين (١) ، وهو حدود روحانية وجسمانية ، جعلهم الله عز وجل المنشأة الآخرة سببا ، وأقامهم بينه وبين خلقه وسائط وحجيا . وقد قال النبى ﷺ : « أمرت أن أقاتلت الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . ولم يضمن ﷺ على هذا القول أجراً غير حقن الدماء وصون الأموال . ثم قال : « من قالها – يعنى كلمة الشهادة – مخلصاً دخل الجنة ، قيل : وما إخلاصه يارسول الله ؟ قال: معرفة حدودها وأداء حقوقها » . وقد قال النبى ﷺ : من قالها مخلصا دخل الجنة ، ولم يقل : يدخل الجنة ، وذلك من أجل أن من تصورت فى غاشية المشيمة صورته ، وتفصلت حلاه وهيئته ، فقد ثبت فى الصورة الموجودة وجوده . ولن يمكث أن تنشق المشيمة عنه ، وتدفع به الطبيعة إلى فضاء دار الدنيا لابد منه إن لم يقطع به قاطع فساد ، وحائل يحول به فى وجوده عن نظام السداد . وأنتم اليوم فى مشيمة من جهة الأجسام قد تفصلت بها من نشأة الدين أشكالكم ، ووضحت معالمكم ، واستقامت أحوالكم . فإن أعاذكم الله من قواطع الفساد ، بالغى والارتداد ، وازيغ عن اتباع أيمانكم الركع السجاد – والله سبحانه يعيذكم بفضله – فما بينكم وبين الحلول بدار السلام ، غير أن تنشق عنكم غراشى الأجسام .

---

(١) سورة الأعراف ٥٤ .

معشر المؤمنين . فجر الله لكم ينبوع العلوم ، وفهمكم معنى قوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » . إن أحد دعاة أئمتكم وقف فى حلقة بعض القصاص وهو يفسر قوله سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم [1]» ، ويعد [2] فضائل النجوم بكونها زينة السماء ومصابيحها ، ورجوم الشياطين » ، واستحققها من الحق سبحانه أن يقسم بها ، مما صدر اللفظ به « فلا أقسم المعنى « أقسم » .

قال العالم [3] : تفسيرك هذا حظ العام . فأين حظ الخاص ؟ قال صاحب الرواية : فانقطع المتكلم وقال : عسى أن عندك منه ما تفيدنا إياه . قال [4] : نعم إن اعتنقت عهد الولاية ، وعدلت عن أصحاب الغواية ، ودخلت باب حطة ساجدا ، وصرت لحزب الباطل منافيا مباعدا . فأجابه إلى ذلك .

قال : اعلم يا أخى أن النجوم مصابيح تنير بها مسافة ما بين هذه السماء العليا إلى هذه الأرض السفلى ، وما لنورها إلى ما فوق السماء مرتقى ، ولا إلى ما تحت الأرض منتهى . فأين أنت من المصابيح التى أعربت عن فضيلة إمامها ورئيسها سورة « والنجم إذا هوى » حيث قال العلى الأعلى : « ثم دنا فتدلى » فكان

---

(١) سورة الواقعة ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) المقصود المفسر .

(٣) المراد هنا أحد الدعاة .

(٤) أى الفقيه الذى يمثل أحد الدعاة .

قاب قوسين أو أدنى ﴾ (١) ؟ وما محل النجوم ههنا ؟ أما تعلم يا أخى أن رباطات قلوب العارفين من قبل أوهامها تركت رباطات النجوم موطىء أقدامها ؟ أما تعلم أن أنوار قلوب العارفين بإخلاص التوحيد يستضىء بها الملأ الأعلى كما تستضىء بأنوار السماء دار الدنيا ؟ ألم تسمع قول النبى ﷺ « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم (٢) » . أفتظن أنه ﷺ قصر بهم عن رتبة النجوم لما قال : كالنجوم ؟ . كلا، بل قصر الحق سبحانه بالنجوم عنهم لكونهم محل وحيه وصفوته ، ومقر حد توحيده وأمانته ، ثم لكونهم المستخلصين للخلود فى جواره ، وليست النجوم بخالدة معه فى دار قراره ، فإذا علمت ذلك فقل غير متحاش : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » . وقل : « ربنا ، علمنا أن القسم عظيم : وولا الإشارة إلى ما سقنا إليه من الفائدة » لقد كان قوله تعالى : « لو تعلمون» كاللفظة الزائدة .

قال الرجل : بأبى أنت أمى ، لقد ملأت قلبى نورا . فما معنى قوله سبحانه : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ (٣) ؟

قال : وهل يكرم لعبد عند مولاه إلا به ، وبالتزود منه ؟ ألبس من سورة

---

(١) سورة النجم ٩،٨ .

(٢) ورد فى صحيح البخارى ومسلم وسنن ابن ماجه والترمذى .

(٣) سورة الواقعة ٧٧ .

إخلاصه [١] نور قلوب العارفين بإخاص التوحيد لرب العالمين . أليس بسبع آيات من فاتحته تصح صلاة المصلين وسجود الساجدين ، ويقبل قربان المتقربين ؟ أليس هو صبغة الله التى لا صبغة أحسن منها لقوم عابدين ؟ كيف لا يكون كريما وهو من حيث سبقه فى هوية الحق سبحانه أول ، ومن حيث تجسمه بالألفاظ آخر ، وفى الوسط بين طرفيه دارت دائرة الخلق والأمر ، فإن اتخذت منه شعاراً قطعت بدليل نورخه شعاب الظلمات ، وسبحت بجناحه فى السابحات ، ونفذت بسلطانه فى أقطار الأرض والسموات ، وإن ألمت بجنة منه (بجهنم) إلماما ، قيل يانار كونى برداً وسلاماً . فاجتهد ياأخى لكى يخالط نوره جوهرك . فيصيرا شيئاً واحداً ، تجد الدنيا تعبدك ، والآخرة تخدمك ، والجنة إليك ، والملائكة تسلم عليك ، والحق سبحانه يقول لك : لقد انجزتك ما وعدتك بسابق قولى : « ياابن آدم أطعنى أجعلك مثلى حيا لاتموت ، وعزيزاً لا تذل ، وغنيا لاتفتقر » .

قال الرجل : فما معنى قوله سبحانه : « فى كتاب مكنون » [٢] ؟ قال : هو اللوح المحفوظ الذى كان القرآن فيه مكتوبا إلى حين أنزل على النبى ﷺ وإنما سمى الوح لوحا لما يوح فيه من آثار الكتابة . فلوح الله المحفوظ هو الذى أودعه الحق سبحانه جميع ما خلقه من ابتداء خلق الدنيا ، وإلى حين تقوم الساعة وجميع ما يظهر إلى الوجود شيئاً فشيئاً ، يوما فيوما ، فهو من آثار كتابته اللائحة من محفوظ لوحه .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الواقعة ٧٨ .

فأين أنت يأخى عن العلم بأن القرآن المرقوم كان كاللوح المحفوظ ، ظهر من نقش القلم منه جميع خلقه الله تعالى دار الآخرة وكتابتها ، كما فى اللوح المحفوظ جميع نقوش خلقة الله سبحانه للدار الدنيا وكتابتها ، فكما لا وجود فى الدار الدنيا لما لم يكن فى اللوح المحفوظ منقوشا فلا وجود كذلك فى الدار الآخرة لما لم يكن فى اللوح المحفوظ [1] منقوشا . واللوح المحفوظ كالتربة ، وخلائق الدنيا زرعها، والقرآن بمقابلته كالتربة وخلائق الآخرة كزرعها ، قال الله تعالى : « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » [2] وقال : ما فرطنا فى الكتاب من شىء » [3] فحلاه الحق سبحانه حية اللوح المحفوظ بكونه مثله مستوفيه للنقوش والكتابة . ثم قال فى شأن الحفظ : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون » [4] لكونه محفوظا من جميع الجهات .

---

(١) يقصد باللوح المحفوظ فى العبارة الثانية القرآن . وفى ج ورد بعد هذه العبارة : فمثل ذلك، لا وجود فى الدار الآخرة لما لم يكن فى القرآن موجودا . لأنه جعل القرآن فى مقابل اللوح المحفوظ ، ثم جعل القرآن الدار الآخرة واللوح المحفوظ للدار الأولى . وكان الأنسب أن يقول : « فلا وجود كذلك فى الدار الآخرة لو لم يكن فى القرآن موجوداً، ويستغنى عن العبارة المثبتة فى ج لوحة ١/٤٠ فى الهامش .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٤) سورة الحجر ٩ .

قال [1] : وقوله سبحانه : « لا يمسه إلا المطهرون [2] » أمر أو إخبار ؟ إنه إن كان أمراً جاز ، وإن كان إخباراً لم يصح فى العيان ، لأن أيدى الأنجاس تمسه ، وفى أهل الشرك من حفظه أو يحفظ منه . قال [3] : هو أمر وإخبار .

قال [4] : كيف يكون إخباراً مع ما قدمنا ذكره ؟ وكيف وجهه ؟ قال العالم : إن اثار الشمس تقع على المزابل فلا يعلق بها شيء من نجاستها ، فما ظنك بتنزيل رب العالمين ؟ وأين موقع آثار الشمس من أنوار كلام رب العالمين ؟ إنه والله يمنع نفسه ، ثم إنه والله يمنع نفسه .

قال : فقوله : « تنزيل من رب العالمين » ما معناه ! إنه ليوهم أنه سبحانه متحيز فى مكان عال ، ونحن فى حيز منسفل هو منه خال . والمعلوم من صفته أنه لا يخلو منه مكان . قال العالم : إن العلو والسفل والقرب والبعد بوجود الأجسام توجد . وبنفيها تنفى، وليس الله سبحانه بذى جسم فيوصف بصفات ذوى الأجسام. ولو أن بيهمة كانت على ذروة جبل : وكنت فى قمر بئر ، ورفعت وساطة الجسم بينك وبينه من الوهم ، من المستحق منكما أن يسمى عاليا ، أو يسمى سافلا ؟

---

(١) المقصود هنا الرجل القاص .

(٢) سورة الواقعة ٧٩ .

(٣) المقصود القاص .

(٤) أحد الدعاة .

أنت على كونك فى قعر البئر ، أم هى على كونها فى قمة الجبل ؟ فكمثل ذلك أحكم على قولة : تنزيل من رب العالمين ، ، وإن كان أقرب إليك من حبل الوريد .

إن بعض العلماء اجتاز بحلقة ، فإذ مفسر القرآن يفسر قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر [1] ، فيقول : أغفلكم تكاثر العدد ، ووفور العدد ، عن طاعة الفرد الصمد ، حتى زرتم المقابر ، فوجدتم كثرتكم قلة ، وعزتك ذلك . فقال العالم : رحمك الله – أصدق ، إن الله صادق ، وقوله صدق ، وهو يحب الصادقين . أهم زاروا المقابر طوعاً أو أخذوا إليها كرها ؟ قال المفسر : بل أخذوا إليها كرها .

قا العالم : فكيف تجعل الفعل لهم أنهم زاروها ، وما زاروها ، بل أخذوا إليها كرها ؟ . ثم إن الزائر يزور ويرحل ، وليس الذى ينزل فى القبر براحل .

قيل : فسُقط فى يد المفسر ، وخلاه العالم وانصرف ، فتبعه المفسر حتى لحقه ، وقال : ياشيخ . لقد ناديتنى بلسان الحق فأسمعتنى ، وكنت لاهيا فى جملة اللاهين، فأذكرتنى . فما التكاثر الذى ألهاهم ؟ فقال العالم : أعلم يابنى أن الإنسان كثير من حيث حرصه ، كثير من حيث طمعه ، كثير من حيث أمله ، كثير من حيث غضبه ، كثير من حيث شهوته ، كثير من حيث نقائصه ورذائله ، ومنصب فى الشعب الذى توجبه الحياة الدنيا « إنما الحياةالدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد [2] ، فهو فى تكاثر من جميع ذلك ، ألهاه عن نفسه ،

(١) سورة التكاثر ١، ٢ .

(٢) سورة الحديد ٢٠ .

وصرف وجهه عن النظر لآخرته .

قال السائل [1] : فما معنى زيارته للمقابر، وليس هو يزورها إنما يؤخذ إليها كرها كما قلت؟ قال العالم : ياحبيبى. هذا المأخوذ إلى المقابر، أليس ذلك عن حادث يحدث به يسمى الموت، فيجعل حركاته سكنات؟ قال السائل : نعم . قال العالم: أليس يغسل فيقى عليه أثواب لا عهد له بها؟ قال السائل: نعم قال العالم : أليس يدفن بعد ذلك فى القبر ؟ قال السائل : نعم . قال العالم : فما الذى يصنع القبر به ؟ قال السائل: يأكل محاسنه ، ويمحو معالمه، ويفرق جمعه . قال العالم أفيحجز بينك وبين هذا الأمر المهول حاجز إن أردت أن تحجز عنه ؟ قال السائل : اللهم لا. قال العالم : فهلا تواقع الموت اختياراً قبل أن يواقعك اضطرارا بأن يميت النفس الشهوانية عنك . فتجعل حركاتها سكنات ، وتأتى الموت من قبل أن تراه وهو إليك آت، فتكون ميتا باختيارك، وهلا تغسل من سوء أعراض الدنيا عرضك بماء جعله الله تعلى ظهورا من الشك والشرك أمَّن غسل عن ممات ، تكون مغسولا باختيارك، وهلا تلبس لباس التقوى تحت طمرين توارى جسمك، لتكون مكفنا باختيارك وهلا تسلم نفسك إسلام الميت إلى قبره، والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، لتكون مقبرا باختيارك. والروضة ولى من الأولياء، والحفرة عدو من الأعداء ، فكذلك تسلم نفسك إلى ولى من أوليائه، يقطع من الدنيا بالترغيب فى الآخرة أوصالك، ويبت من حبالها حبالك، فلا يبقى عليك سمة من معالم الدنيا إلا محاها، ولاعلاقة بينك وبينها إلا قطعها، ويجعلك زرعا يزكو للآخرة

---

(١) أى المفسر .

﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾(١) وهنا لك لاتخاف سوقك بيد المنية اقتسارا ، وقد زرت المقابر كما قال الله سبحانه اختياريا ، ورحلت عنها تشق إلى سعة رضوان الله تعالى للسموات أقطارا .

قال السائل: فما معنى قوله: ﴿ كلا سوف تعلمون* ثم كلا سوف تعلمون﴾(٢) ؟ قال (٣) : العلم الأول أنهم يعلمون سماعا وأخبارا ، والعلم الثانى أنهم يعلمون علماً يقينيا .

قال السائل : فما معنى قوله : « كلا لو تعلمون علم القين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين » ؟ ما هذه الرؤية مرتين : إحداهما علم اليقين ، والأخرى عين اليقين (٤) ؟ قال العالم : هما مثل العلمين المقدم ذكرهما فالرؤية الأوى هى أن الكفار والمنافقين هم طلائع الجحيم وطلع شجرها ، فإذا رأوهم فقد رأوا الجحيم من وراء الحجاب ، إلى أن يروها عند كشف الحجاب ، إذا حقت الحقائق ، وبلغ الكتاب أجله ، واقترب الوعد الحق ، وكشف الغطاء ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة ٢٦١ .

(٢) سورة التكاثر ٣،٤ .

(٣) أى الفقيه .

(٤) سورة التكاثر ٥،٦،٧ .

(٥) سورة ق ٢٣ .

ثم قال السائل : « فقوله : « لتسألن يومئذ عن النعيم (١) ، قال العالم : هو المشارب العذبة الباردة ، التى هى من ينابيع ماء الحيوان الجارية ، على ألسن أولياء الله وخلصائه وأحبائه ، يسألون عنها : لم خلوها وعدلوا عنها إلى الحميم الآجن الذى قال الله سبحانه فيه : ﴿س وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (٢) .

---

(١) سورة التكاثر ٨ .

(٢) سورة محمد ١٥ .

قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ﴾ (١) . فسره مفسر العامة على جهة ، ومفسر بعض فرق الشيعة على أخرى . ونحن نقول :

إن الصدقة جزء من مال العبد الذى أعطاه الله سبحانه ، يعود به الغنى على الفقير . وأعطاء على ضربين : أحدهما ما يفيد الأجسام من أعراض الدنيا . والآخر ما يفيد الأرواح من علوم الآخرة . وصاحب المال والعطاء بالحقيقة هو رسول الله ﷺ الذى شرع الشريعة ، وأقام معالم النجاة ، ثم أئمة من ذريته ، فالمخاطبون بالآية هم الذين نصبوا مجلس العطاء توسما بالخلافة من دون استخلاف لهم ، وكانوا يتملكون بسيف الشريعة البلاد ، ويقيمون فيها معالم الصلاة والصوم التى هى جزء من أجزاء علوم الشريعة ككون الصدقة جزءا من أجزاء المال ، فنهاهم الله سبحانه عن الدعوة إلى شريعة محمد ﷺ بأذية آل محمد فى إبطال حقهم ، ودفعهم عن مقاماتهم . فهم بفعلهم هذ يرامون الناس بدعوى الإيمان ، ويكاشفون الله سبحانه بالعصيان ، ثم قال جل جلاله ، ، كمثل صفوان عليه تراب ، مثه الله فى الصلابة التى لاينجح فيها نور الكلمة فتخصب منها مزارع الحكمة بالحجر الأملس الذى لايؤثر صوب الماء فيه فيخرج منه نبات . ثم قال سبحانه : ، عليه تراب ، والتراب محل الزراعة إذا خالطه الماء فعجنه ، وكان فى مركزه فأما إذا كان ترابا على وجه حجر فإن الماء يغسله ، فيبقى الحجر أملس .

---

(١) سورة البقرة ٢٦٤ .

والتراب رمز على الإيمان الذى منه تشكل أشكال الآخرة ، كما من التراب تشكل أشكال الدنيا . والتراب على الحجر إيمان على غش ، لا يقوم منه بوصول العلم إليه زرع الآخرة ، كما لا يقوم من التراب على وجه الحجر الأملس إذا فاض عليه الماء زرع الدنيا ، بل يمحى ، وكذلك يمحى ذلك القدر فيصير نفاق محضا . فمن أجل ذلك قال الله تعالى : « فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لايهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم يعنى يزرعون الحكمة، ويودعون الأمانة فيها أهلها « ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم » (١).

الجمع بين قوه : « ابتغاء مرضاة الله » ، « تثبيتا من أنفسهم .. فيه تباين من حيث اللفظ . وإذا رجع إلى المعنى وضح أن إخلاص التوحيد لا يثبت إلا بثبوت رتبة الوصاية والإمامة التى هى نفس الديانة ، وبها يقع تفصيل الكتاب بالإبانة عن مقامات الحدود الروحانية والجسمانية . وتنزيه الحق سبحانه عن صفاتهم . فإذا لم تكن الوصاية والإمامة خرج جميع ما يعتقده المنعقد فى التوحيد تشبيها وتعطيلاً .

وقوله جل جلاله : « كمثل حبة بربوة » الجنة ، البستان ، وهو مجمع الخضر والأزهار والأثمار . وكل وصى وعالم من علماء الدين بذات نفسه جنة ، قد خضر فيها من الخضر والزهر والثمر ما تتلذذ به النفوس اللطيفة تلذذ الأجسام الكثيفة فى البساتين الكثيفة، وكل من كانت هذه صفته فهو بربوة أى مكانة عالية على الخلق، كعلو الرابية على الأرض ، ولكن الله تعالى زاد القول تأكيدا بقوله: « لاستشراف من هذه سبيله إلى المواد العلوية ، وإشرافهم على من هو دونهم من أجناس الخليقة.

---

(١) سورة البقرة ٢٦٤ - ٢٦٥ .

وقوله تعالى : « فأصابها وابل » يعنى من المادة العلوية . « فآتت أكلها ضعفين [١] » يعنى نطق بلسان التنزيل والتأويل ، وجع بين المحسوس والمعقول ، واستخدم دارى الدنيا والآخرة . « فإن لم يصبها وابل فطل ، يعنى فمن كان حده دون حد أرباب التأييد والمادة التى شبهها بالوابل حصلت له قوة التخيل المشبهة بالطل ، وكان له فيها ما ينشىء زروعه النفسانية المنشأة الآخرة الأبدية الباقية ، «والله بما تعملون بصير [٢] » .

---

(١) سورة البقرة ٢٦٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٥ .

روى عن بعض أصحاب الصادق ﷺ أنه قال : اختلج فى صدرى ذكر إقسام الله سبحانه ، بالتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، فطفقت أتعجب من ذلك زمانا لا أبوح به ، ولا يطمئن قلبى بما مر بى فى تفسيره . فلما أفاض الفكر على قلب أتيت الصادق ﷺ فقلت : بأبى أنت وأمى . اعترتنى وسوسة فى قوله الله عز وجل : ﴿ والتين والزيتون ﴾(١) وإقسامه بما لاقدر له ، وفزعت إليك فى إزالتها ، وأنت أولى من نفسى عن خناق فكرى فيها . فقال ﷺ لقد سألت عن عريض . سأنبئك به على أن تؤتينى موثقا أن لا تلقيه إلا إلى أهله ، وتخفيه عن غير مستحقه ،. فقلت : لك ذلك العهد يامولاى . قال : فما هما عندك ؟ قلت : هما ثمرتان . قال : صدقت ، هما ثمرتان شجرهما هذا العالم بطوه وسفله وسمائه وأرضه ، ولكن الله سبحانه ميزهما عن الثمار فأنشأهما بنور علمه وحكمته ، وظل عليهما عرضه . قلت : وما هما ؟ قال : هما آدم ونوح عليهما السلام كأنك لا تعرف من الثمار إلا ما يؤدى إلى المخرج هما من الثمار التى يؤخذ منها ولا تغنى، لأن الثمار الجنة كالمصباح الذى تصتبح منه ما شئت ولا يعتريه نقص . قلت : وكيف وقعت الكناية عن آدم بالتين وعن نوح بالزيتون ؟ وأية علة ؟ قال عليه السلام : لأن كل ثمر يتقدمه ورق ونواره والتين تنشق عنه أعواد الشجر ، وكل حي يسبقه حبل وولادة . وآدم أستخلصه الله من أديم الأرض من غير حبل وولادة ، فمن أجل ذلك مثله بالتين . قلت : فما وجه الكناية عن نوح بالزيتون ؟ قا : خاصة الزيتون هو الزيت المأخوذ منه، حتى كأنه هو الغرض من الزيتون ، وكمثل ذلك، خاصة نوح وإبراهيم عليهما السلام المستخلص من ذريته ، حتى كان الغرض من

---

(١) ا لتين (١) .

نوح وإبراهيم ، فهو مضمر فى نفس القسم من الله سبحانه .

قلت . فما معنى طور سينين ؟ فقال : يوشك أن تكون هذه المقدمات دلتك على النتيجة . فعمت أن القول رمز بموسى عليه السلام . قلت : كأنك تريد موسى عليه السلام قال : نعم وطور سينين ، فإنه موضع مناجاته ، ومكان فضيلته ، وفيه إضمار مثل الإضمار الأول فى القسم . قلت : وما هو ؟ قال : المسيح عليه السلام «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين [1]» ، فالمسيح عليه السلام هو الشجرة الخارجة من طور سيناء النابت من نبعة ملة موسى عليه السلام فشرفه الله تعالى ورفعه . وهو الشجرة فى معنى ، والكلمة فى معنى . قال الله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء [2]» ، فشبه أحدهما بالآخر لقوة المناسبة بينهما .

---

(١) سورة المؤمنون ٢٠ .

(٢) سورة إبراهيم ٢٤ .

قد سمعتم من معنى قوله سبحانه : « والتين والزيتون وطور سينين » ما استملى من ألسن الصادقين ، فانتفى عنه عيب من فسر القرآن برأيه تفسيرا نزعت عنه بهجة عقل ونظر فقال : إن الله سبحانه أقسم بثمر مأكول وحجر ومعلوم لكل ذى بصيرة وبصر أن الإنسان لا يقسم إلا بعزيز عند ذى خطر ، ولا يحلف بدنىء من الأشياء محتقر ، وإذا كان مستحيا أن يقسم الإنسان بداره أو ضياعه وعقاره ، ودار الإنسان وضياعه معتمده فى سكناه ومعيشته ، كان إقسام الله سبحانه بما هو أقل عنده من الدار والضياع عندنا ، ولا يضطر إليه اضطرارنا أشد وأبلغ فى مكان الاستحالة ، وكان المعتقد لإقسامه بما هذه سبيله مغرقا فى الجهالة (١) .

وإذ قد مضت هذه النوبة، فنعود إلى شرح معنى قوله سبحانه: « وهذا البلد الأمين، إتمام لما شرطنا إتمامه (٢)، وقصدا من نظم فى سلك ذوى البصائر لما يتولى الله تعالى برحمته نظامه. قد كان سبق القول فيما رويناه عن الصادق عليه السلام أن القسم بطور سينين إشارة إلى صاحب المناجاة فيه، وهو موسى عيه السلام وإن فيه إضماراً مشاراً به إلى عيسى عليه السلام وهو قوله سبحانه: «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكين »، وكان المسيح » والشجرة الخارجة من طور سيناء، يعنى انابع من نبعة ملة موسى عليه السلام ومكان نبوته، فشرفه اللهّ تعالى وفضله، وهو الشجرة فى معنى، والكلمة فى معنى. قال الله سبحانه : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء »

---

(١) و/د بالتفاصيل فى المجالس والمسايرات .

(٢) لأنه وعد فى خاتمة المجلس السابق بإتمام التأويل .

فشبه أحدهما بالآخر لقوة المناسبة بينهما، ثم قال: « تنبت بالدهن والشجرة لاتنبت بالدهن والشجرة التي تنبت بالدهن وكان الله سبحانه أشار في هذا الموضع إلى الحقائق والطائف ، ونفى القشر من حيث تخصيص تلك الشجرة بالطائف .

قال السائل: فقلت فعلى هذه سياقه فالبلد الأمين هو رسول الله ﷺ قال : أجل. هنالك نبلة الله الناسخة لقبل ، بنيانها أول بينان بنى على وجه الأرض ، كما قال الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى لعالمين [١] » لآخر ساكن من أولى العزم من الرسل . قال الله سبحانه : « لاأقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد [٢] » ، ثم قال الصادق عليه السلام : وفيه إضمار على شبه ما تقدم ، قال السائل : قلت : وما هو ؟ قال : القيامة التي ليس بينه وبينها فصل : قال النبى ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ، وجمع بين أصبعيه المسبحتين من اليمنى واليسرى[٣] ، قال : وفرض الله حج البيت الذى هو أول بيت وضع الناس لآخر علم من إعلام القيامة الذى [٤] هو محمد ﷺ فمن حج على طرق الإخلاص كمن أجاب داعى الله ، ولبى تلبية الحقيقة دون اعجاز ، قاطعا للشقة إلى محل التقى ، فيه الطرفان أولا وآخرا ، فكان أولا مع الأولين ، وآخرا مع الآخرين ، وسالكا فى شعب أصحاب

---

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

(٢) سورة البلد ١, ٢ .

(٣) ورد فى صحيح البخارى ومسلم .

(٤) ورد فى سنن ابن ماجه .

الجنة اللذين يقال هم : « إدخلوها بسلام آمنين » .

قال السائل : إذا والله لقسم عظيم ، إذا والله عظيم . ثم قال : جعلت فداك ، كشفت الحجاب عن ناظرى ، وشحذت بحسن البيان خاطرى ، وبقى لى سؤال . قال : سل عما بدالك ، قال : وما كانت الحاجة إلى إتخاذ ذلك فى هذه الحجب والأستار ، والعدو بها عن طريق الإيضاح والإظهار ؟ قال : الحاجة إلى اتخاذ الحب فى أغطية السنابل والثمار فى أغشية الأشجار ، ليقوم بإستخلاصها ذوو البصائر والأبصار، ويبين الله سبحانه فضل المجتهدين على المقصرين ، والمجاهدين على القاعدين . يقول الله سبحانه : « آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون، وقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين » ويقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم [1] .

قال السائل : قد أوجبت فى كل اسم من هذه الأسماء التى أقسم الله بها إضمارا دلت به على [2] غيره ، إلا التين الذى رمزت به على آدم عليه السلام قال عليه السلام : وفى التين كمثله إضمار . قال السائل : وما هى ؟ قال : القيامة ، وذلك لكون آدم عليه السلام إفتتاحا للحياة الدنيا ، وكون القيامة اختتاما ، والقيامة لا تأتى إلا بغتة لا يجيليها لوقتها ولا هو ، ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم بغتة، ينشق آمر الله سبحانه عنها إنشقاق العود عن التين ، على حسب وجود آدم عليه السلام بلا مقدمة ولا حاجب . ﴿ كما بدأنا أول خق نعيده ﴾ [3] .

---

(١) سورة العنكبوت ٣،٢،١ .

(٢) سورة محمد ٣١ .

(٣) سورة الأعراف ١٨٧ .

اعلموا أن الناس إلا من عصم الله ورحم ، أغروا فى الدين بالكذب وركبوا فى التدين بما يأفكون ، ميلا مع الهوى مركب اللهو واللعب ، حتى قال قوم من منتحلى التشيع ، الذين هم على الشيعة شنعة ، ومقالتهم للالحاد طلعة : إن القرآن نزل على على بن أبى طالب عليه السلام دون النبى ﷺ وأنه كن فيه التصريح بسمه وأسم أهل بيته عليه السلام ما أسقط وحذف ، والكلام عن مواضعه حرف ، جريا منهم بزعمهم على منهاج أهل الكتاب من اليهود (١) والنصارى ، الذين قال الله تعالى فيهم : « يحرفون الكلم عن مواضعه (٢) » فوجب أن نتكلم فى هذا الباب بما يزيل عن قلوب سامعية أدناس الشبه ، ويكشف عنهم حجب العمى والعمه ، ونشفع كل فصل من فصوله بسراج من دلائل العقل منير ، وسيف من حجج الحق التى لايدفع فى وجوهها شهير والله سبحانه الهادى والمرشد والموفق برحمته والمسدد . فنبتدى نقول فى ذكر الفرق بين محمد ﷺ وعلى عليه السلام فى المنزلة ما نصبه على قالب الشرع أولا ، ثم نفضى به إلى موجب العقل ثانيا ، ونوقع التوزان بينهما بالقسطاس المستقيم فنقول :

إن الشرع دال على كون آدم عليه السلام أبا للبشر ، وكون حواء التى هى أمهم مخلوقة منه كما قال الله عالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء (٣) » قال المفسرون: عنى بالنفس الواحدة آدم المخلوق من طين ، وبزوجها المخلوقة منها حواء ، وبث

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة ١٣ .

(٣) سورة النساء ١ .

منهما رجالا كثيراً ونساء من جهة التناسل . قال أهل التأويل الأئمة من آل الرسول ﷺ : إن مقام النبى فى دوره مقام آدم [1] عليه السلام فى دوره ، فكما أنه أو صورة بشرية صورها الله سبحانه وأقامها، وفتق بالنطق الذى هو العبارة عن الدنيا لسانها، فكذلك محمد ﷺ فى دوره أو صورة صورها الله تعالى فى صورة الملة الحنيفة وأقامها من حيث نفسه اللطيفة، لا من حيث جسمه الترابى الكثيف ، وفتق بالنطق الذى هو العبارة عن الآخرة لسانها. قالوا : وكما أن الله تعالى بعد خلقه لتلك النفس الواحدة التى هى آدم خلق التراب، خلق منها زوجها التى هى حواء، كذلك خلق التراب، فقد خلق الله سبحانه من هذه النفس الواحدة التى هى النبى ﷺ خلق الدين على بن أبى طالب الذى هو زوجه من حيث نفسه اللطيفة ا من حيث الجسم الكثيف، لكونه قليلا لأمانة دينه، مستودعا لأسرار وحيه وتنزيله ككون الإناث قابلة لنطف الذكور، ومبلغة بها من حيث لا صورة فيها حد التصور . فمن ذلك قال النبى ﷺ « أنا وأنت يا على أبوا المؤمنين » . وإذا حمل ذلك من جهة الأبوة الجسمية المعروفة لم يصح . ويؤكد ذلك قول الله تعالى : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم[2] » وإذ قال « أزواجه أمهاتهم » فقد أوضح أن النبى ﷺ أبوهم . وهذه نسبة لا يكاد يقوم بصحتها غير الولادة النفسانية والأبوة الدينية فقط .

وقالوا فى معنى قوله « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » [3] يعنى من آدم وحواء من حيث الولادة إنه بث من محمد ﷺ وعلى عليه السلام أئمة ومأمومين ،

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

(٢) سورة الأحزاب ٦ .

(٣) النساء (١) .

وعلماء ومتعلمين .

فالفرق بين النبى وبين على فرق ما بين السماء والأرض ، وما بين الذكر والأنثى . فكيف يجوز أن يكون القرآن نازلا على عليّ عليه السلام من دونه ، وهو مخلوق من ضلع من أضلاعه – نعوذ بالله من العمى وارتكاب الهوى .

أما القول فى كيفية نزول الوحى على النبى ﷺ وعلى غيره من الأنبياء عليه السلام فنقول إن الفرق بيننا وبينهم عليه السلام من نفوسنا اللطيفة خادمة طباعنا ومعنى ذلك أن نفوسنا اللطيفة خادمة لشهواتنا وملاذنا وآرابنا الجسيمة الدينوية ، ونفوسهم بالعكس من ذلك لكون لطباعهم خادمة لنفوسهم ، ومسخرة لأمرها فمن هذه الجهة صارت نفوسنا محتاجة إلى طلائعها التى هى الحواس الخمس فى تأدية معرفة الأشياء إليها ، ولاتكاد تتصور من الأمور إلى ما وصل إليها من جهة الحواس الخمس ، والأنبياء يتصورون بنفوسهم الشفافة من دون وساطة الحواس الخمس فى عالم الدين والآخرة ما يوردونه علينا ، ونؤديه نحن إلى أنفسنا من جهة الأسماع . وهم بقوة المناسبة بينهم وبين الملائكة فى اللطافة من حيث جواهر النفوس يتراءون للملائكة ويستملون منهم ويأخذون عنهم ، ثم يؤدون إلينا ما أخذوه بالعبارة الجسمية المنطقية بما يجمعنا وإياهم من المناسبة فى ذلك . قال الله تعالى : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك (١) » ولم يقل على سمعك وقال : « لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين (٢) » تجسيما له بالأشكال والحروف.

(١) سورة الشعراء ١٩٣ – ١٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ١٩٤ – ١٩٥ .

على أن النبى ﷺ كان إذا تغشاه الوحى تحلقه كلفة عظيمة ، وتناله مشقه كبيرة ، وكان يتصبب عرقاً مأخوذاً عن نفسه مغموراً فى حاله ، حتى لو قطعت – والعياذ بالله بضعة من جسده لما أفاق له . وهذا معروف مشهور . ومن أجل هذا الاستغراق نسب إلى الجنون ، وللذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى (١) .

---

(١) سورة النحل ٦٠ .

ونحن نسوق من زيادة الشرح فى ذلك ما يشرح الله به صدور المؤمنين ، ويزيد فى يقين المخلصين فى دينهم الموقنين ، بمشيئة الله وعونه ، فنقول : إننا وجدنا فى كل جنس من أجناس الحيوان والأشجار والنبات والجماد شيئاً هو غاية فى ذلك الجنس وكماله ، والمستوفى لشرفه وقواه ، فمن ذلك أننا وجدنا فى جنس الحجر الكثيف المظلم ما يسمى الياقوت الأحمر . قد ميزه الله تعالى عن الحجر ، وإن كان حجراً ، وأعطاه من وقوة تأثير الشمس صبغة ونورا . فاستدللنا من ذلك على مقامات الأنبياء عليه السلام الذين اختارهم الله من ابلشر ، وإن كانوا بشراً ، فصبغهم صبغة دينية ، وأعطاهم قوة رسالته ، وحمل أمانته . وكمثل ذلك فى جنس النبات والأشجار نوع الزروع والنخيل المثمرة . ومن جنس الحيوان أنواع البشر الذين شرفوا بنطقهم وعقولهم المفكرة . فقد قامت الدلائل على هذا الباب بوجيز من القول .

وأما الكلام فى القرآن ووقوع النقص منه والتحريف فيه كتحريف أهل الكتاب الذين هم اليهود والنصارى لكتبهم . فقد يقع القطع على أنه حرف الكلام عن مواضعه فى القرآن ، لا من حيث يعتقد أنه نقص شىء من مسطوره ، بل أدخل عليه التحريف من جهة المعنى الذى هو الغرض والمغزى ، لا من حيث اللفظ . ومثال ذلك قوله سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عيكم شهيداً [(١)] » . المعنى بالأمة الوسط هو الأئمة من آل النبى ﷺ ، وهم الشهداء على الناس ، كل منهم شهيد على زمانه ، والرسول شهيد عليهم كلهم . فمن فسره على أن الأمة الوسط كل من قال : لا إله إلا الله ، وأنهم الشهداء على

(١) سورة البقرة ١٤٣ .

الناس ، فذلك ممتنع ، لأنهم إن كانوا كلهم شهداء ، فمن المشهود عليه ؟ وإن كانوا يقولون إنهم اليهود والنصارى ، ففساد هذا القول أوضح من أن يحتاج إلى إقامة البرهان عليه . فقد أدخل عليه التحريف الذى قال الله سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه (١) » . وكمثل ذلك قوله تعالى : فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل (٢) » . معلوم أن أهل المباهلة كانوا خمسة نفر : محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام . وقد فسروه على عموم الناس كلهم . فهذا وأمثاله نفس تحريف الكلم عن مواضعه وعينه . فلم يتغير المسطور (٣)، ولم يدخل عليه زيادة ولا نقص .

ولما وقع التحريف فى المعنى الذى المسطور من جهته ، وسلم إلى معرفته ، قال الله تعالى : « يحرفون الكلم عن مواضعه ، وعنى به أهل الكتاب الذين نزل : المحرفون من هذه الأمة على مكانهم فقد أبنّا عن كيفية التحريف ووجهه .

ومما يزيد القول تأييداً فى ذلك وتأكيداً قول اللّه تعالى حكاية عن إبليس لعنة الله عليه : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله (٤) » وليس فى المشاهد أن أشياع إبليس

---

(١) سورة النساء ٤٦ ، المائدة ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ٦١ .

(٣) المسطور من جهته .

(٤) سورة النساء ١١٩ .

يغيرون خلق الله ، ولا أنهم يقدرون عليه . فلو كانوا قادرين على ذلك لوجب أن تكون صور الكفار وأعداء الله مستحيلة عما عليه صور المسلمين ، فقد علمنا أن التغيير وقع عليهم من حيث نفوسهم الباطلة ، واعتقاداتهم الكامنة ، وأن صورهم من حيث الأجسام والخلق باقية على ما كانت عليه لم تتغير ولم تتبدل ، وكذلك ألفاظ القرآن الظاهرة محفوظة على ما كانت عليه ، وإنما دخل التحريف عليها من جهة معانيها .

زعم الزاعمون ممن تقاصرت بهم الأفهام ، وملكتهم الأنصاب والأزام ، أن هذه الشمس والقمر والكواكب التى هى جواهر رصعها الله سبحانه فى تيجان السماء، وطراز بها أكمام هذه الحلة الزرقاء ، لا فعل لها فى هذه الغبراء ولا تأثير ، ولا تقديم عندها فى شىء من الحوادث ولا تأخير .

فنقول بتوفيق من الله سبحانه : إنه إن كان وقوع الشبهة فى كونها فاعلة ، وفى الأجسام بالسعود والنحوس بإذن ربها سبحانه مؤثرة ، من أجل بعد المدى بيننا وبينها ، وقصورن دون أن نطول إليها ، فعندنا من القريب الشاهد ما يقع الاستدلال منه على البعيد الغائب ، وذلك أنه لاخفاء على أحد أننا على سطح الأرض ، وهى الحاملة لأثقال جسومنا ، والمخرجة لأقواتنا . وهذا هو العيان الذى لايحتاج معه إلى دليل ، وقال الله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا [1] فإن قلنا : إن حملها لأجسامنا ، وإخراجها لأقواتنا لا يستحق أن يسمى فعلا ، فقد أطلقنا عنان المكابرة ، ودفعنا العيان بالراح ، وتكذيب قوه الله كفر .

وإن قلنا أن ذلك فعل لكنه فع غيرها فيها وبها ، فليس يخلو من أحد أمرين ! أما أن يصبح فعل الفاعل من دونها وبغير وساطتها ، فأنشاؤه لها مع الغناء عنها عبث ، أولا ، فقد ثبت أن لها فى ذاتها فعلا غير فعل الفاعل فيها ، كما أن للقلم فعلا غير فعل الكاتب به ، وللسيف فعلا غير فعل الضارب به . والأرض إذا الحاملة نا على ظهرها بإذن الله ، والمخرجة لنا أقواتنا بإذن الله ، والهواء هو الذى نستنشق منه فينقسم فى أجزاء عروقنا دخلا وخرجا بإذن الله . أفيجوز أن نقول إن أجسامنا

(١) سورة النبأ ٦–٧.

ممارسة لله تعالى لا للأرض ؟ أم آنافنا مستنشقة من الله تعالى لا حق الهواء ؟ أم أجوافنا شبعانة من الله تعالى لا من الطعام ؟ وأى فضيلة للبارى سبحانه تحصل بنسبتنا فعل الأرض بأجسامنا ، والطعام والشراب فى شعنا ورينا إليه ؟ إن ذلك بالرذيلة أشبه منه بالفضيلة .

وإذا كانت هذه صورة الأجسام استناداً إلى الأرض فى إمساكها وحملها ، وإلى الأغذية الخارجة منها فى قوامها وحياتها ، وهى واقعة تحت العيان والحس ، فما الذى يُنكر أيضا من تماسكها بالشمس والقمر والأجرام العلوية وتأثيرها ولم لا نستدل بشاهد ما عندنا على غائب ما لا نطول إليه ؟ .

أو ليس معرفة الإنسان نفسه على هذه الصيغة أنه مربوط برباطات علوية وسفلية سماوية وأرضية مثل البيت المطنب بأعمدة وأرسان مشدودة إلى أوتاد هى المقيمة له والمانعة من سقوطه وتداعيه أوفى له بالدلالة على كمال قدرة الله تعالى ونظام حكمته من تصورنا أن الشبع منه لا من الطعام ، والرأى منه لا من الشراب، والحرق منه لا من النار ، والبل منه لا من الماء ، وأنه ليس يصح فاعل غيره ؟

أليس الله يقول فى محكم كتابه : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ؟ فإن كان سبحانه يتمدح بعلم ما يفعله هو فلا معنى لتمدحه بذلك العلم ، فكل إنسان يعلم ما يفعله ، فإنما التمدح بعلم ما هو غائب عنه من أفعال الغير ، وقوله سبحانه : « ويعلم ما فى البر والبحر » تلك سبيله . « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها [1] » فذلك إذا سقطت الورقة لنفسها، أو أسقطتها الرياح. فأما إذا كان هو مسقطها فقوله إنى أعلم

(١) سورة الأنعام ٥٩ .

إذا سقطت ورقة من شجرة أنى أسقطتها لغو – وحاش لله منه – وقد قال سبحانه : «وما تسقط من ورقة » فجعل الفعل لها لا يغيرها كما يدعون .

أو ليست هذه السموات المرفوعة ، والأرض المدحوة إن كانت قد أنشئت لا فعل لها ، ولا يصدر نفع ولا ضر منها ، فإن فعلها عبث ولعب . فقد قال الله سبحانه « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » (١) .

---

(١) سورة الدخان ٣٨ .

وإذ قد انتهت هذه الصورة التي ليست هي الغرض بل هي سياقة إلى الغرض . فنحن نورد ونقول الآن : إنه لما كان موضوع عالم الجسم وعالم الدين الذى هو الأوضاع الشرعية اللذين كنى الله عنهما بالخلق والأمر على أصل واحد ونسخة واحدة كما قال الله سبحانه ، سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1] ، . وكما قال النبى ﷺ : ، إن الله تعالى أسس دينه عى مثال خلقه ليستدل بخلقه على دينه ، وبدينه على وحدانيته ، وكان عالم الجسم ذا شمس وقمر ونجوم جعلها الله سببا لوجود الموجودات الجسمانية فى دار الدنيا وإنماتها وإنشائها وواسطة ، وكان عالم الديانات على نسختها ذا رسالة ووصايا وإمامة جعلها الله سببا لوجود الصور للدار الآخرة وإنشائها وإنمائها وواسطة . ثم لما تغلب عى كرسى الشريعة من تغلب عليه ممن لم يؤته الله سلطانا ، ولم يجعله سببا ولا واسطة كانت خصومته مع الذين جعلهم الله سبحانه وسائط وأسبابا لوجود الصور الجسمانية أولا والروحانية آخرا ، فدان بنفى الوسائط وتكفير من قال بأن لها صنعا أو تأثيراً بحال من الأحوال ، وقال بتعطيل الشمس والقمر والنجوم من الفعل والآثار فى الأجسام ، وقال إن الفعل لغيرها ، وقال بتعطيل النبوة والوصاية والإمامة من الفعل والتأثير فى النفوس ، فقال صاحب الرأى ، إنه لو لم يأت رسول ولا نبى لاستغنى عنه بعقله ونظره فى معرفة الله تعالى .

ومعلوم أن معرفة الله عز وجل هى القطب الذى تدور عليه دائرة النبوة والرسالة فإذا كان وقع الغنى عن رسول ﷺ فى معرفة الله سبحانه التى هى أشرف المعارف،فالغنى عنه فما هو دون ذلك أكثر فسبيل من ينتحل هذه النحلة سبيل من

---

(١) سورة فصلت ٥٣ .

يعطل الشمس ، ويذكر وقوع الغنى عنها ، أما الوصاية فهى منفية عند جماعتهم ، يقولون : كيف يجوز أن يكون الرسول المأمور بأداء الرسالة إلى الأبيض والأحمر عموما يخص بأسرار دينه واحدا من جملتهم ويلقى إليه مقاليد كافتهم ؟ أليس هو إذ فعل ذلك لم يبلغ رسالة ربه سبحانه ؟

والجواب عن ذلك أنهم مجمعون على كون الله قادراً تام القدرة ، وإذا كان ذلك فلقد كان يمكنه أن يلقى فى قلوب الناس جميعا ما يحتاجون إلى معرفته من أمور دينهم ، ولا يرسل إليهم رسولا يصطفى من بينهم ويرسله فلم يفعل ، واصطفى رسولا واحدا من الجملة فأرسله رولا إليهم لوجه من وجوه الحكمة وكمثل ذلك فعل النبى بأمته كيلا بكيل ووزنا بوزن ، واختص أحدهم بوصايته كما خصه الله من بين الناس برسالته ، وجعله باب علمه ، ومستودع سره ، فما وجه الإنكار؟ وهؤلاء أمثال القائلين بتعطيل القمر .

فأما الأئمة فإنهم يقولون : غنينا عنهم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وهؤلاء أمثال القائلين بتعطيل النجوم التى قال الله تعالى : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر [١] .

---

(١) سورة الأنعام ٩٧ .

زعم الزاعمون ممن صرف وجهه عن اتباع أولياء الله وصفوته ، ولجأ فى دين الله سبحانه إلى حوله وقوته أن الأنباء والقصص المشتمل عليها كتابه العزيز هى أخبار وآثار ، وإن المنفوع منها ذكرى واعتبار ، وقال الأئمة الصادقون عليهم السلام : بل ينبغى أن يجرى فى مضمار شريعة الرسول جميع ما جرى فى الشرائع المتقدمة مثلا بمثل ، واستدلوا بقوله ﷺ : لتسلكن سبيل الأمم قبلكم باعا بباع ، وذراعا بذراع » حتى لو دخلوا خشرم[1] دبر لدخلتموه [2]» وقوله ﷺ أيضا : «كائن فى أمتى ما كان فى بنى اسرائيل حذو النعل بالنعل ، والقذة[3] بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه [4] » .

وقال القائلون : سمى القصص قصصا ، لأن بعضه يتبع بعضا ، يدل عليه قوله سبحانه : « وقالت لأخته قصيه [5] » يعنى اتبعيه وذلك مصداق القول فى كون هذه الأمة تابعة لجميع الأمم المتقدمة فى أفعالها وآثارها ، وجارية على ومنهاجها، وممثلة لمثالها . وإذا ثبت ذلك كانت قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام محصورة فى شريعة النبى ﷺ فحيثما انصرف القول وتوجه الكلام من

(١) الخشرم ، مأوى جماعة النحل والزنابير، والدبر = الجماعة من النحل والزنانير .

(٢) ورد فى صحيح البخارى ومسلم .

(٣) سبق التعليق عليه .

(٤) ورد فى صحيح البخارى ومسلم .

(٥) سورة القصص ١١ .

مرمى قريب أو بعيد كانت الإشارة فيه متوجهه إلى حاضر شهيد ، فإن لم يكن ذلك كذلك كانت قصص القرآن والعياذ بالله لغوا ، والأنباء عن قوم زالوا فزالت أيامهم وأحكامهم حشوا .

ومما يدل على كون نسخ الأديان كلها ثابتة فى صحف شريعة الإسلام قول رسول الله ﷺ : القدرية مجوس هذه الأمة ، والمرجئة يهود هذه الأمة والرافضة نصارى هذه الأمة، فجميع الملل الثلاث المشهورة المعروفة فى ملته، واستنسخها فى نسوخ شريعته، وصب -عليه أفضل السلام- القدرية على قالب المجوس والثنوية، وشبهها بهم، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما إله واحد (١) وذلك لأن الثنوية يدينون بالنور والظلمة، وقال بعض أهل الحكمة: للنور أصل ينتهى إليه فى وجوده وعين. والظلمة لا أصل لها ولا عين . والقوم الذين هم مجوس هذه الأمة يجمعون بين ولاية وصى وبين ضده جمع الثنوية بين النور والظلمة فمن ههنا حصلت المشابهة ، فأما قول من قال : إن للنور أصلا ينتهى إليه، وعينا ، وهو جرم الشمس ، وأن الظلمة لاعين لها ولا أصل . فالنور على ما ذكرنا وصى الرسول ﷺ وله أصل ينتهى إليه عين، وذلك الأصل والعين هو رسول الله ﷺ جعله الله تعالى لعام الدين والشرع بمنزلة الشمس من عالم الجسم التى هى مادة حياته ، ككون النبى ﷺ مادة حياة الدين والشرع . والظلمة هى الضد لا عين ولاأصل تنتهى إليه. والمعنى الذى أوردناه هو فى الحد الجسمانى، لا فى الأصول .

(١) سورة النحل ٥١.

قال الله تعالى : « الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها [(١)] ، آيات فى الظاهر آيات القرآن ، والمكذبون بها أهل الكفر والطغيان . والآيات فى الباطن هم الأئمة المترجمون عنها ، والقادحون أنوار الملكوت منها . فهم لها بمنزلة الأرواح من الأجسام ، وبائتلافهما وانتظامهما يأتلف سبب الرشاد . والآيات هى الأعلام ، فكفى بهم أعلاما للنجاة ، وأدلة على تحقيق الحياة . قال الله سبحانه : ما نفسخ من آية أو ننسها فأت بخير منها أو مثلها [(٢)] ، يعنى ما ينقرض إمام من الأئمة الذين هم آيات الله وأعامه وأركان دينه وقوامه بموت طبيعى وإحترام جسمى إلا ويقيم مقامه مثله فى فضله أو أمثل منه ففى فعله . قال الله تعالى : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، [(٣)] . ومن ذلك قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام : « أنا الآيات البينات ، لكون الأئمة ناشئين منه ، موجودين عنه ، وهو أقدمهم فى الفضيلة ، وأسبقهم فى الرتبة الجليلة .

وأما قوله سبحانه : « واستكبروا عنها » فهو تصديق القول فى كون الإشارة به إلى الآيات الأحياء النطقاء منطلقة ، وعليهم عند التقصى والبحث متسقة ، إذ كان الاستكبار يمتنع عن الحروف المهجأة التى لاتكاد تفطن للاستكبار ، ولا تميز بين المعرفة والإنكار .

---

(١) سورة الأعراف ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ١٠٦ .

(٣) سورة المؤمنون ٥٠ .

وقوله سبحانه : « لاتفتح لهم أبواب السماء [١] » فالسماء مستقر الشهب ذوات الضياء ، ومهبط الرزق المتمكن فى جسم الماء . وقد جعل الله سبحانه السماء على الأجسام مظلة ، وعليها مطلة ، والأجسام نحوها لاتتطاول ، ولها لاتتناول ، ومنه قوله سبحانه : « الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فأرجع البصر هل ترى من فطور ، ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير [٢] ، والنفوس البشرية اللطيفة تتطاول إليها ، وتحتوى من جهة المعرفة عليها . فالسماء محيطة بالإضافة إلى الأجسام محاط بها بالإضافة إلى النفوس ذوات الأقدار الجسام .

وفى مقتضى الحكمة ، وموجب الرحمة وجود حدود لله معظمين ، مشرفين لديه مكرمين . يحلون من الأنفس اللطيفة محل السموات من الأجسام الكثيفة فهم سماء العقول والنفوس ، وفيها النجوم المؤثرة لسعودها فى مبادها والنحوس مفتحة لكم أيها المؤمنون أبوابها ، منكشف دونكم حجابها ، مشرقة لكم أنوارها هاطل عليكم مدرارها . فاحمدوا الله تعالى على ما خصكم به عنها من الحظ ، وارعوا حق الأمانة فيها بالحفظ . وقوله : « لاتفتح لهم أبواب السماء » هو من هذا القبيل ، لا من حيث الحظوظ السماوية التى لاتفرق فى وصولها بين العليم والجهول .

---

(١) سورة الأعراف ٤٠ .

(٢) سورة الملك ٣ – ٤.

وقوله : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط [(١)]» والجنة مشتقة من الجنين والاجتنان والجن فى ظاهر اللفظ . وكل ذلك فى حكم الغطاء ، ومحدود فى حد الخفاء . والتعارف من حال الجنة أنها البستان ، يوجد فيها من الثمرات الألوان . والجنة جنتان : إحداهما بالقوة والأخرى بالفعل . ومعنى قولنا : إحداهما بالقوة والأخرى بالفعل مثاله أن النطفة البشرية إنسان بالقوة دون الفعل ، تصير إلى الفعل مهما استقرت فى قرارها المكين ، وأسعدتها المؤثرات بأمر الله سبحانه على تمام البلوغ والتكوين ، فتصير بإذن الله إنسانا كاملا ، ليعترف المستبصر بعظيم قدرته، فيقول : « ربنا ما خلقت هذا باطلا [(٢)] » .

وكذلك نقول إن دعوة الأئمة من آل محمد ﷺ جنة بالقوة ، تؤدى إلى الجنة بالفعل ، عرضها كعرض السماء والأرض ، فمن لم يثبت له وجود فى دعوة الأئمة من آل محمد ﷺ لم يثبت له فى دار ثواب الله تعالى وجود ، كما أن من لم يثبت له فى وجود فى أصلاب الآباء وبطون الأمهات لم يصح له وجود فى الدنيا دار المحيا والممات . فقوله سبحانه : « ولا يدخلون الجنة » إشارة إلى ما ذكرناه .

وقوله : « حتى يلج الجمل فى سم الخياط » فالجمل فى موجب الشريعة جاء فيه المدح طورا ، والذم طورا . فأما المدح فله مواضع معروفة ، تقطع عن الغرض إذا أفضنا فيه ، وأخذنا فى نشر مطاويه . وأما الذم فقول رسول الله ﷺ لا يصلى

---

(١) سورة الأعراف ٤٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٩١ .

أحدكم وقدامه بعير ، فما من بعير إلا فى ذروته شيطان ، وإذا اعتبر من هذا الخبر ظاهره كان مثلوما ، والبعير مظلوما. وإذا رجع به إلى وجه المحكمة كان عليه بالصحة محكوما . فالبعير من أضخم الحيوان جثة ، وأعظمها صورة وأحملها ثقلا . وهو رمز على المتوسم بالعلم من أهل التقليد والحشو الذى هو على بسطته فى معرفة ظاهر علم الشريعة القائمة منه مقام عظم الصورة أعجم اللسان عن الحقائق . وسناده أحد أضداد وصى صاحب الشريعة عليه السلام فهو رأسه لا محالة ورئيس دينه ، العالى عليه علو الرأس على البدن . فقوله سبحانه : « حتى يلج الجمل فى سم الخياط [1] » ، مشار به إليه ، مدلول به عليه .

وأما سم الخياط فإنه هو الثقبة التى هى مجرى خيط الخياط ، وهو الذى يفصل الثوب، ويقدره على لابسه، ويخيطه ويؤلف بين مفترقاته بخياطته ، ليجعله صون جسده . ونظيره فى الدين حاصل ممن يفصل الاعتقاد الذى هو كسوة النفس ولباس التقوى على قدر لابسه ، فى صغره وكبره ، ويؤلف بين مفترقاته، فيجعله شعار روحه قال الله سبحانه « يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما بالسهما ليريهما سوآتهما [2] » . وسم الخياط دستوره الذى يعمل عليه ، ويرجع فى أحكام صنعته إليه فيه من الدقة مالا يكاد يدخل فيه المدل بنفسه فى عظم قوته ، وانبساط مكنته ، دون أن ينزع عنه لباس الكبر ويلقاه بالتصاغر والتذلل فى القدر .

---

(١) سورة الأعراف ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف ٢٧ .

وقد كان أحد دعاة الأئمة عليهم السلام بالشرق سأله بعض الجبابرة عن قوله سبحانه : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » فقال سأجيبك إذا انتزحت عن سرير ملكك ، فأستقر عليه ، وجلست بين يدى كما يجلس العبد عند المولى وبين يديه ، فأجابه ذلك الجبار إليه ، وجلس عنده ، فأخذ العهد عليه ، ثم قال له : أنت الجمل وأنا الخياط ، وكتاب عهدى هذا هو الذى ولجت فيه من سم الخياط .

فأما موضوع اسم الرفض والتسبيح من جهتهم عليكم فهو ظلم ، وقد يقع التعيين على من هو محقوق باسم الرفض فيما نستأنف بإذن الله ، فنزول عنكم هجنته ، ويلحق بمستحقه عاره ومعرته .

وأما التسبيع فهو نعت أصيل من جملة أصول كثيرة تركوا وسمكم بها ، واقتصروا على واحد من جملتها ، وذلك أن الديانة بناها توحيد الواحد الأحد الصمد سبحانه ، والطريق إلى معرفة التوحيد معرفة إزدواج الأشياء قال الله تعالى : ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها .. ﴾ الآية (١) وقال رسول الله ﷺ خلق الله الأشياء كلها مزدوجة لتكون دلالة على وحدانيته . فهذا أصل تاه فيه النصارى ، والأربعة التى هى بمقابلة الأركان الأربعة أصل . والخمسة التى هى بمقابلة الحواس الخمس أصل . والستة التى هى بمقابة الأيام الستة التى فيها خلق الله السموات والأرض أصل . والسبعة أصل ، والثمانية التى هى بمقابلة أبواب الجنة الثمانية وحملة العرش أصل . (والتسعة التى هى بمقابلة ليال عشر وغير ذلك أصل) . والأحد عشر التى هى بمقابلة ليال عشر وغير ذلك أصل . والأحد عشر التى هى بمقابلة تكبيرات الصلاة لكل ركعتين أصل ، والأثنا عشر التى هى بمقابلة أثنى عشر نقيها أصل ، والسبعة عشر التى هى بمقابلة الصلاة أصل ، والتسعة عشر التى هى بمقابلة خزنة النار أصل . والأصول غير ذلك كثيرة فلا وجه للتخصيص بسبعة ، والغرض التشنيع . والمرء عدو ما جهل .

واعملوا أن الله سبحانه خلق خلقه لعبادته كما قال وقوله الحق فى محكم

---

(١) سورة يس ٣٩ .

كتابه: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » [1] . وبعث نبيه ليؤسس أساسها فى شريعته ، ويوضح معالمها . وجعله ينبوعا للحكمة ، وطريقا مستقيما إلى الجنة ، فنجا من الجاهلية الأولى وعبادة التماثيل من اللات والعزى ، ودعا إلى تجريد التوحيد للحميد الظاهر من حيث تضطر العقول إلى معرفته من جهة الصنائع المحكمة المتقنة الدالة على أن لها صانعاً ، خلاف ما انتحله المفترون والزنادقة المبطلون بقولهم : إن الصانع هو الفلك والطبائع ، تبًالهم أنى يؤفكون .

كيف يجوز أن يكون الفلك والطباع هى الصنائع . وآية الجبر فى أعيانها ظاهرة ، وعليها بالحدوث منادية . وكل من الشمس والقمر والمدبرات والأركان له نهج لا يفارقه، وطبيعة لاتزايله ، وشروق لايتجاوز فيه حده، وغروب لايتعدى منه المقدر له ، دلالة عى أن ليس عند شيء منها إختيار ، بل كل مجبر مصرف مدبر ، والله تعالى مجبره ومصرفه ومدبره كيف يشاء ؟ وخلاف ما قاله غيرهم إن الصانع هو القوة النافذة آثارها فى الأفلاك والأنجم والأرض وما عليها من المعادن والنبات والحيوان المعطية إياها قوة حفظ صورها . وإن هذا المعنى حال من جميع ما ذكرناه محل الروح من الجسد وكيف يكون ذلك كذلك ؟ ومعلوم أنه ليس تآلف الأرواح والأجساد عن قصد منهما ولا إرادة ، ولا افتراقهما عن قصد ولا إرادة ، وعلى تلك السبيل كون المعنى الذى ذكروه مع العالم . فأين هم عن المؤلف بينهما والجامع بين اللطيف والكثيف منهما ؟ وهو المتعالى عن أن يشبههما أو يناسبهما بحال من الأحوال . فتعالى الله الظاهر من حيث الاستدلال عليه بصنعه الجلى ،

---

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

الباطن من حيث إن الشيء لايخلو من كونه مرئيا أو مسموعا أو مسموما أو مذوقا أو ملموسا أو متوهما ، واللّه جل اسمه خالق المرئيات فلا تراه عين ، والمسموعات فلا يناله سمع والمشمومات فلا يبلغه شم ، والمذوقات فلا يبلغه ذوق ، والملموسات فلا يبلغه لمس ، وخالق الوهم فلا يحيط به وهم ، بطل عن جميع ذلك كله ، فسبحان الباطن الظاهر .

اعلموا أن الله سبحانه خلق ما خلقه زوجين ، ظاهرا وباطنا ، فقال جل جلاله: « ومن كل شيء خلقنا زوجين [(١)] » . ونظائره كثيرة ، فقرن أحدهما بصاحبه ، وأظهر الفائدة فى اقترانهما وازدواجهما كالدنيا والآخرة ، والجسد والروح أحدهما له حد الحركة ، والآخر له حد السكون . وجعل فضيلة الإنسان بالنطق . ونطقه غير متألف بأقل من حرفين : أحدهما متحرك والآخر ساكن ، دلالة على أن مخلوقاته . كلها متعادلة ، وفى القياس متماثة ، وأعلام التماثل من الآفاق والأنفس قائمة ، كقوله سبحانه : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم [(٢)] وقوله سبحانه : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون [(٣)] » .

وكان تأسيس النبى ﷺ أساس الدين الذى هو ببيت العبادة وطريق آخرة ، على مثال فطرة الله الأولة ، وصيغته كصيغتها الحسنة ظاهراً وباطنا ، حتى إذا تأمل العاقل مبنى الديانة وحده موافقا كمبنى السموات والأرض ، فأحكم ذلك عقدة اعتقاده ، فصار مؤمنا برسوله ، مصدقا بمعجزاته ، تصديق من يعلم أن صدوره من حيث صدر عنه خلق السموات والأرض ، مثلا بمثل ، وقلما بقلم، كما قال النبى ﷺ : إن الله أسس دينه على مثال خلقه ، ليستدل بخلقه على دينه ، وبدينه على وحدانيته . فقام ﷺ بإظهار معالم الشرع واضعا وضائعه ، ومرسما رسومه ، على مثال ترتيب الله مراتب خلقه لسمواته وأرضه فى ستة أيام ، على ما وصفه

(١) سورة الذاريات ٤٩ .

(٢) سورة فصلت ٥٣ .

(٣) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

فى كتابه ، ثم الاستواء على العرش الذى هو السابع الحافظ نظام الستة – سبحانه أن يكون قوله ذلك عبثا ، أو أعياء أن يخلق فى لحظة واحدة ، كما قال عز وجل : « قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون [1] » . قال الله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر [2] » لكن قوله حكمة بالغة ، والمدة فى الفطرة تحتها مصلحة قائمة .

فكذلك رتب النبى ﷺ للدين ستة دعائم بإزاء ستة أيام : طهارة وصلاة وزكاة وصوما وحجا وجهاداً . وكما أن الله حفظ نظام الأيام الستة باليوم الذى هو الأستواء على العرش فكذلك جعل النبى ﷺ حفظ نظام الوضائع الستة بوصية الذى آخى بينه وبين نفسه ، فأظهر ولايته ، وجعله خازن علمه ، ومستودع سره ، وباب حطته ، وقال ﷺ . « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . وأية فائدة فيما أدبنا الله تعالى فى كتابة بقوله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها [3] » لولا ما فى هذه القصة وأمثالها من حكمته . ولا خفاء على أحد أن الأبواب تنصب ليدخل منها إلى الدور .

لاجرم أن الأمة ما عصت نبيها فى طاعة وليه ضلوا وتاهوا وسقطوا عن طريق الهداية ، فصاروا إلى آرائهم موكولين ، وإلى قياساتهم الفاسدة مضطرين ، ولا يزالون مختلفين كما اختلف بنو إسرائيل إلا من رحم ربك ، وهم الذين يدخلون الباب سجدا ويقولون حطة .

---

(١) سورة النحل ٤٠ .

(٢) سورة القمر ٥٠ .

(٣) سورة البقرة ١٨٩ .

والذى يؤكد القول أن الولاية التى هى آخر الفرائض أشرفها وأعلاها رتبة ، وبها قوام كلها قوم الحكماء وأهل البصيرة : إن الإنسان أشرف مواليد هذا العام ، ونهاية قوته ، وآخر ما ظهر منه وأتمه ، وهو السابع من درجات الموجودات التى هى على ما قالوا : المعادن والنبات والحشرات والبهائم والسباع و الطير ، والإنسان فى الحد السابع . وكان إظهار النبى ﷺ ولاية على عليه السلام سابعة من فرائض دينه ، مماثلا لإظهار الله إنسان فى الحد السابع من خليقته ، وكان كون من قصر دون قبول ولايته منسلخا من الشريعة ككون من قصر دون الدرجة السبعة التى هى الإنسانية معدوداً من جملة البهائم والسباع وغير ذلك مما تقدم شرحه .

والذى يؤكد القول أيضاً أن الإنسان ينقل الكمال فى سبعة أحوال كمال قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا اعلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأنا خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين [1] » . والخلق الآخر هو النهاية والتمام ، وهو يحل مما بسطه النبى ﷺ من البساط الشرعى محل.الولاية التى بها كمال الفرائض ، كمثل ما قال الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتمت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً [1] » .

وكما أنه إن بطل المعنى المسمى الخلق الآخر الذى به تمام الخلقة بطل ببطلانه السلالة والنطفة والعلقة والمضغة والعظام واللحم فكذلك إذا انتقضت

---

(١) سورة المؤمنون ١٢، ١٣، ١٤ .

الولاية انتقضت بانتقاضها الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وأصبحت معاقد الشرع منحلة ، وعاد الدين جاهلية . وقد قال النبى ﷺ من مات ولم يعرف أمام زمانه مات ميتة جاهلية [٢] » .

والجاهلية جاهليتان ينطق بهما نص القرآن [٣] ، قوه سبحانه : ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وإذا قال (أولى) فقد أثبت جاهلية (أخرى) ، قال الصادق عليه السلام : الجاهلية جاهليتان : جاهلية كفر وجاهلية ضلال أما جاهلية الكفر ، فما كان قبل مبعث النبى ﷺ وأما جاهلية الضلال فهى من جهل امام زمانه ، فضل عن معالم دينه ، وغرق فى طوفان البدع والضلالات . قال رسول الله ﷺ . « ومثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » [٤] . أو ممن تعلم من أهل بيتى تنجوا من النار [٥] » .

---

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) ورد فى صحيح البخارى ومسلم وسنن الترمذى والنسائى .

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٤) ورد فى سنن الترمذى .

(٥) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

ونحن نقول وبالله التوفيق : إن تشبيهه أهل بيته بسفينة نوح موجب لوجود طوفان نوح فى أمته ، وإلا فلا معنى لذكر السفينة إذا لم يكن طوفان . إذ الطوفان فى الديانات بتكاثر البدع المحيرة للأنفس المغرقة فى لجة بحار الشبهات فى سائر أركان الدين، وركاب السفينة قليل، كما قال الله تعالى: « وما آمن معه إلا قليل (١)». وقد كنى الله سبحانه عن ذلك القليل بالكثير فقال تعالى : « يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك (٢) » فعد ككل واحد منهم أمة ، كما عد إبراهيم عليه السلام أمة .

ونحن نقول : إن الأمة والسواد الأعظم هم الذين غرقوا فى ابدع والشبهات ، وأهل بيت رسول الله ﷺ وأتباعهم على قلتهم أهل السنه والجماعة . اجتمعوا وأئتلفوا بعقائدهم ، وتحابوا وتآخوا فى الله دون العدد الكثير الذين تفرقوا بقلوبهم وإن اجتمعوا بأبدانهم ، كما قال الله عز وجل : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى (٣) » . « سئل أمير المؤمنين على عليه السلام : من أهل السنة والجماعة ؟ قال : أنا وأصحابى وإن قلوا قيل : ومن أهل البدعة والفرقة ، قال المخالفون لى وإن كثروا » . وقدذم الله سبحانه فى كتابه الكثرة فقال : « وأكثرهم للحق كارهون » (٤) وقال تعالى : وما يتبع أكثرهم إلا ظنا (٥) وقال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (٦) »

(١) سورة هود : ٤٠

(٢) سورة هود : ٤٨ .

(٣) سورةالحشر ١٤ .

(٤) سورة المؤمنون : ٧٠ .

(٥) سورة يونس : ٣٦ .

(٦) سورة : يوسف : ١٠٦ .

ونظائرها كثيرة . ومدح القلة ، قال تعالى : « وقليل ما هم[1]» وقال تعالى : « وقليل من عبادى الشكور [2] » ، وقال « ما يعلمهم إلا قليل [3] فقرة وإذا رجع من هذا الباب إلى النصبة العقلية وجد فى الأفاضل قلة ، وفى الأراذل كثرة . وإن أخذ الشبه والقياس من السماء ونجومها عرف أن فى المدبرات منها قلة ، وفى الأذناب كثرة وإن أخذ الشبه والقياس من الأنبياء والفضلاء الذين هم سموات العلوم ومهابط الحكمة وجدت فيهم قلة ، وفى الهمج كثرة . وإن أخذ الشبه والقياس من أحجار الأرض وجدت فيها كثرة ، وفى الجواهر التى هى من جملتها قلة .

وقد فسر المفسرون قوه الله تعالى حكاية عن إبليس لعنه الله « وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا [4] ، أنه سيكون لله من الألف واحد ، والباقون له » ، ومن ذلك قول الله سبحانه : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين [5] » .

(١) سورة ص : ٢٤ .

(٢) سورة سبأ : ١٣ .

(٣) سورة الكهف : ٢٢ .

(٤) سورة النساء : ١١٨ .

(٥) سورة هود : ٤٢ .

ثم نرجع إلى حكاية اللهّ تعالى فى قوله لنوح : « قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين [١] » ، وموافقته لقضايا هذه السفينة التى هى أهل بيت آلنبوة عليه السلام من اعتقاد الظاهر والباطن اللذين كل واحد منهما زوج لصاحبه ، والتمسك بالأسماء والمسميات ، والأمثال والممثولات ، خلافا لمن يعبد اللّه على حرف ، ويدين له من اعتقاد ظاهر من العمل لا علم معه ، مثله مثل الأموات ، وباطن علم لا عمل معه وجوده مستحيل . قال اللّه سبحانه فى شأن السفينة . « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال [٢] » ، وهى أمواج البدع والضلالات التى لأئمة الضلال تصادم السفينة ، والسفينة تخرقها وتشقق أعطافها .

إذا كانت هذه الكراسى المنصوبة والمنابر القائمة هى مجالس آل محمد ﷺ غالبهم عليها أشباح لا أرواح فيهم ، فمن أجل ذلك قال رسول اللّه ﷺ يؤتى يوم القيامة بمصورى التماثيل ، فيقال لهم انفخوا فيما صنعتم [٣] ، وقد حسب القوم أن المعنى بهذا هم الذين ينقشون على الثياب والحيطان ، وهو الصحيح ، ولكنهم أصابوا فى الأقل الأدنى، وذهب عنهم الأهم الأقوم الأوفى إذ كان أصحاب التماثيل هم أئمة الباطل، الذين يقومون بإزاء أئمة الحق، وخلق الناس الذين يتشبهون بخلق اللّه تعالى. وهم أشباح بلا أرواح، يعنى لم ينفخ اللّه فيهم روح الحياة الحقيقية بنص من رسول اللّه ﷺ ولا توقيف. ورسول اللّه ﷺ أول من نفخ فيه روح الحياة فى

---

(١) سورة هود : ٤٠ .

(٢) سورة هود : ٤٢ .

(٣) انظر صحيح مسلم ٨٢٥/٥ باب تحريم تصوير الحيوان مع اختلاف فى اللفظ.

زمانه ودوره . يقول الله سبحانه : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا [١] » فالوحى إليه من الله سبحانه روح فيه . ونصه على على عليه السلام بعده روح فيه ، ونص على على الحسن عليه السلام روح فيه . ونصه على الحسين عليه السلام روح فيه . يطرد ذلك فى إمام بعد إمام إلى أن تقوم الساعة فهؤلاء أصحاب الأرواح المقدسة المهنتية إلى الروح الأمين، المبلغ عن رب العالمين سبحانه . «ومن لم يجعل اللهّ له نوراً، فماله من نور [٢] » والمخالفون ينادون من مكان بعيد [٣] ، والويل لهم « يوم يدع الداع إلى شيء نكر [٤] » ، ويقال لهم : انفخوا فيما صنعتم ، لقد أويتم الباطل ونصرتموه ، وبصورة الحق أظهرتموه ، وانفخوا الآن فيه ، وصلوا بسبب الله سبحانه سببه ، هنالك – لا شك – يخسر المبطلون .

---

(١) سورة الشورى : ٥٢ .

(٢) سورة النور : ٤٠ .

(٣) سورة فصلت : ٤٤ .

(٤) سورة القمر : ٦ .

وقد كان روى لكم من قول النبي ﷺ : « كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل ، حذو النعل بالنعل والقذة[1] بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ما يقتضي هز القلوب له ، وتحريك الخواطر به . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، إن شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون إذ كان ذلك فعلا يتعدى إلى مفاعيل ، وموجبا أن يكون في دور النبي ﷺ سامري وعجل ، ليصح التماثل والتقابل ، وأن يكون فيه سحر وسحرة، كما قال الله تعالى : « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم [2]، وأن يكون فرعون وهامان، وأن يقول فرعون هذه الأمة لها مانها : « ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذبا [3] » .

والعجب من هذ الخطاب المقتضي على حسب ما يقوله العامة أن يكون فرعون الذي قال هذا القول مجنونا . ونحن نرى أن مجانين زماننا تحاشوا عن مثله، علما من فطرتهم أن ذلك ممتنع . فإن كان فرعون قاله فآفته في عقله، ليست آفته في دينه . والتكليف عنه زائل ، إذ لا تكليف إلا على ذي عقل .

---

(١) القذة : ريشة الطائر كالنسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لتركب في السهم : للشيئين يتساويان ولا يتفاوتان . أنظر لسان العرب لابن منظور – طبعة دار المعارف – القاهرة.

(٢) سورة الأعراف : ١١٦ .

(٣) سورة غافر : ٣٦ – ٣٧ .

وفى مثل هذه المقامات يجب عى العقلاء أن يستنجدوا بعقولهم وأفكارهم ، ولا يكبوا على وجوههم إكباب البهائم ، ولا يقنعوا بقلوب كقلوبها ، وأن يطلبوا النور من بيت النور الذى أمر الله سبحانه بتعظيمه فخفى على المجوس قديما حقيقة ما أمروا به ، فتمسكوا بمثله ، وتخلوا عن ممثوله .. وهم إلى الآن يعظمون بيت النار ، ويخدمونه ويحومون حوله ، ظنا منهم أنه هو البيت المأمور بتعظيمه. وقد أمر المسلمون حديثا بتعظيم بيت نورهم . وإن اختلف اللفظان ، فتهاون كل بالمعنى وتعلقوا بالألفاظ ، واقتصروا على تعظيم الحيطان والأحجار والموات ، وبيت نور المسلمين هم الأئمة من أهل بيت نبيهم ﷺ اختصهم الله تعالى بنور الهداية ، فأمروا بتعظيمهم ، ليعيشوا بضياء علومهم ولا يختلفوا فى أركان شرعهم ودينهم ، وأكد الله تعالى حق طاعتهم فقال : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (١) » وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعً ولاتفرقوا (٢) » ، وأمثال ذلك فى القرآن كثيرة ، فهموا بأن يطفئوا نور الله بأفواههم بأكاذيبهم وأباطيلهم المختلفة فى دفع مراتبهم ، والاحتجاج على أنهم وكل من قال « لا إله إلا الله من أمة محمد ﷺ سواء لاتفاوت بينهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون بحقهم ، الجاحدون لأمرهم ، وارتكبوا من إراقة دمائهم ، وهتك حريمهم ما ارتكبه فرعون من بنى إسرائيل ، « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، إلى قوله تعالى : يحذرون (٣) .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٣) سورة القصص : ٤ – ٥ – ٦.

لاجرم أن الأمة لما عصت نبيها فى طاعة وصيه تزلزلت أركان دينهم ، وانهدت قواعد شرعهم وصار كل قائس ومنتحل إمام ، يقتضى فى الدم والفرج ، فترد تلك القضية بعينها على إمام مثله ، فيقضى بغير قضيته [1] ، ثم يخبر صاحب القضية بين القضيتين ، ولربما كان علجا من العلوج ، ليختار منها ما شاء، فيختار أوقعهما بقلبه، وأوفقهما لهواه ، بعد أن يصير الأختيار إليه . تلك والله الطامة الكبرى، والبلية العظمى. والعجب العجب إنكارهم للتأويل، وكل إذا خنقه العجز فى كل شيء يلتبس عليه يفزع إلى تأويل معوج مضطرب يهذب به رأيه ، ويثقف معه قوله، كما فزعت المعتزلة، وهم .. بزعمهم – فرسان للكلام إلى أن تأولوا قوله : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربى ناظرة [2] ، فقالوا : إنما عنى به : ثواب ربها فزادوا

---

(١) يشير إلى اختلاف الفقهاء فى المسألة أو القضية الواحدة بسبب اختلافهم فى القياس . وهو ينكر القياس ، واستدل بهذا المثال على فساده .

(٢) القيامة : : ٢٢، ٢٣ . وهذ التأويل وإن كان المعتزلة قد قالوا به إلا أنه فى الأصل قول مجاهد تلميذ ابن عباس (ابن كثير ٣٠٥/٤) . ولا أظن المؤيد كان يجهل هذا، لأنه قرأ تفسير الطبرى ، وصرح بذلك فى أكثر من موضع من مجالسه. والطبرى ذكر فى تفسيره هذا اقول لمجاهد . ولكن نظراً لما كان بين المؤيد والمعتزلة من خلافات شديدة فإنه نسب إليهم هذا القول من قبيل التشنيع عليهم . والمؤيد من عادته إذا وجد قولا من أقوال الصحابة أو التابعين في التفسير يخالفه فإنه لايتعرض لصاحب هذا القول وإنما يتعرض لمن أخذه عنه من المفسرين . وقد تتبعته فى ذلك وبينت الأسباب التى دعته إليه فى فصل التأويل من كتابى (المؤيد وقضية الدعوة الفاطمية) .

فيه ثوابا من عندهم ، لا وجود له فى نص التلاوة ، وقصدوا ، بزعمهم نفى التشبيه ، وردوا الخبر المأثور عن النبى ﷺ : إنكم لترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر ليلة البدر ، لاتضامون فى رؤيته » . والخبر صحيح عندنا وعند أكثر الناس ، وحملوا يد الله المذكورة فى القرآن على معنى القوة ، ويدل على بطلان قولهم قول الله تعالى مخاطبا إبليس : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » بتشديد بين صحيح . فإن كان معنى اليد القوة ، فما معنى قوتى إذن ؟ وقال : « بل يداه مبسوطتان » (١) .

---

(١) سورة المائدة : ٦٤ .

قالوا (١) فى قول الله عز وجل : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان أنه كان ظلوما جهولا (٢) » أنه عنى بالسموات أهل السموات وبالأرض أهل الأرض وبالجبال أهل الجبال ، واحتجوا بكون السماء والأرض والجبال مما لايفقه ، ولا يعقل ، ومستحيل أن يكون الله سبحانه يعرض أمانته على من لاعمل له ولاتكليف عليه . وأنه إذا كانت الصورة هذه وجب أن يكون عرض الأمانة على أهل السموات من دون السموات ، وأهل الأرض من دون الأرض، وأهل الجبال من دون الجبال. فيقال لهم: من أهل السموات ؟ فيقولون : هم الملائكة . قلنا : صحيح . فمن أهل الأرض ؟ فيقولون :

---

(١) على المعتزلة الذين ناقشهم فى المجلس السابق فى تأويلهم . وفى هذا المجلس يستأنف مناقشته لهم ، فيتهمهم فى مقدمة المجلس بأنهم « يبسطون إلى كتاب الله الكريم يد الزيادة والنقصان ، »ويرى أنهم فعلوا ذلك – بزعمهم – ليطابقوا بين التنزيل وبين العقل ، فأدى بهم فعلهم إلى نقض مبانى التنزيل فزلت بهم قدم الشرع دون أن تقلهم أرض المعقول : فارتكضوا فى العمياء مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وقد اختار فى هذا المجلس آية من الآيات التى أولها المعتزلة تأويلا يخالف مذهبه . وقصده – كما يبدو من مقدمة المجلس – أن يبين لأتباعه خطأ المعتزلة فى تأويلهم ، فيدركوا فضل أئمتهم الذين هم أصحاب التأويل الصحيح – كما يعتقد – حتى يشكروا الله الذى هداهم لتأويل أئمتهم ، ويستعيذوا به من الوقوع فيما وقع فيه المعتزلة – فى نظره – من خطأ نتيجة عدم رجوعهم إلى الراسخين فى العلم – يعنى الأئمة أصحاب التأويل .

(٢) سورة الأحزاب : ٧٢ .

هم الناس . قلنا : صحيح . فمن أهل الجبال إذاً ؟ وهل للجبال على الانفراد أهل من دون الناس ؟ فيضطرب حبل هذا التفسير في أيديهم ههنا اضطرابا لا قبل لهم بضبطه وربطه . ويقال لهم : وقوله سبحانه : « وحملنها الإنسان أنه كان ظلوما جهولا » هذا الإنسان بمقتضى تفسيركم خارج من أهل الأرض وخارج من أهل الجبال وغير معدود في جملتهم .

إن فساد هذا القول أشهر من أن يقام عليه دليل ، أو يوجد إلى إثبات ما نفاه العقل منه سبيل ، فهذه نبذه من محالاتهم وما تمسكوا به من فاسد تأويلاتهم . فليت شعري لم لا يتمسكون بالتأويل الذى هو قرين التنزيل وهو الذى جعله الله بريئا من المعائب ، نقيا من الشوائب ، وجعل أهل بيت رسوله ﷺ خزنته وحملته ، ذلك « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزورون [١] فوا أسفا على المستضعفين في الأرض الذين غرتهم طيا لستهم ، وخدعتهم كراسيهم وعروشهم . اللهم تكفل لهم بالعفو والغفران ، إنك قلت ومن أصدق من الله قيلا : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لايستطيعون حيلة ، ولايهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم [٢] وعسى منك واجب ووعد .

---

(١) سورة النحل : ٢٥ .

(٢) سورة النساء : ٩٨ – ٩٩ .

إن الباطل قد تشبه بالحق ، فمن أجل ذلك استمرت الشبهة ، واستحكمت الحيرة . قال النبى ﷺ : لو كان الباطل ظاهراً لما تمسك به متمسك ، ولو كان الحق ظاهراً لما أعرض عنه ، ولكنه يؤخذ ضغث من هذا ، وضغث من هذا ، فيجمعان ، فحينئذ تقع البلية وتعترض الشبهة (١) وقال النبى ﷺ إن إبليس يتراءى للناس بصورة العلماء » وكلامه هذا يدل على اقتدار إبليس – لعنه الله – أن يتشكل بالأشكال المختلفة ، ويظهر فى الصور المتفاوتة ، لبقايا الذى معه من بركات أيام سعادته حين كان يركع مع الراكعين ويسجد مع الساجدين ، ويقوم فى صف الصافين المسبحين . ولو أنه ظهر بمشوه صورته ومنقلب عينه ، وظاهر عواره ، وقبيح عوره ، لكان فى كراهة منظره ، وسماحة صورته ما كان يمنع من ميل النفوس إليه ، ويقضى بنفور القلوب عنه ، ولكنه – لعنه الله – يأخذ شعاراً غير شعاره ، ويرتدى برداء غير ردائه ، ويستظهر بحول الله وقوته ، على إضلال لعباده، وصدهم عن طاعته (٢) .

وكمثل ذلك نصبة جميع الأضداد فى الشرائع كلها ك فإنهم يستجنون بجنها، ويضربون بسيفها ، ويرمون بسهمها ، فينالون بذلك منها ، وهم فى سربال الأولياء مالا يناله المشتهرون بعداوتها من أجناس الأعداء .

---

(١) الضغث كل ما جمع وقبض عليه يجمع الكف ونحوه . اسنظر : لسان العرب .

(٢) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

فنقول (1) إن محل النبى ﷺ والنبوة فى عالم الأمر محل الشمس من هذا العالم الذى هو عالم الخلق . قال الله سبحانه : « وجعل الشمس سراجا (2) » وقال فى موضع آخر : « وجعلنا سراجا وهاجا (3) » يعنى به الشمس . وكنى سبحانه عن النبى ﷺ هذه الكناية فقال : « ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (4) » وقد قال أهل التنجيم : ما دامت الشمس مؤثرة فى الإنسان ، فإنه حى ، فإذا انقطعت عنه مادتها مات ، ذلك أمر ضرورى ، فنقول مادام الإنسان متعلقا بعلائق النبوة والشريعة فإنه حى بحياة الحقيقة، كما قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » (5) فإذا انقطع عنها مات، فصار من جملة من كنى الله سبحانه عنهم : « أموات غير أحياء » وهم فى شعار الحياة ظاهرا وقال أهل التنجيم : ليس فى الأفلاك أجل وأعلى رتبة

---

(1) قال المؤيد فى مقدمة هذا المجلس : وقد كان قرى عليكم من ذكر الولاية ووكيد فرضها (انظر المجلس) ما استقر فى النفوس علمه ، ووفق لفهمه من تعلق بالنجاة همه . ونحن نورد من زيادة الشرح فى ذلك ما يزيدكم الله به إيماناً ، وتلحظون فى مضماره نور الحق عيانا بمشيئة الله وحسن توفيقه.

(2) سورة نوح : ١٦ .

(3) سورة النبأ : ١٣ .

(4) سورة الأحزاب : ٤٥ – ٤٦ .

(5) سورة الأنفال ٢٤ .

من الشمس . فنقول : ليس فى أفلاك عالم الأمر التى هى مراتب الحدود ومقاماتهم أجل وأعلى من رتبة النبوة ، وبها قوام كلها ، كما بالشمس قوام جميع الأفلاك . وقالوا : إن جميع ما يحصل فى عالم الطبيعة من صور النبات والحيوان فمن تأثير الشمس ، فنقول : إن جميع ما يحصل فى عالم الأمر من الصور الدينية المخلوقة لبقاء الأبد فمن قوة النبوة وتأثيرها .

ثم نقول : إن فضيلة النبوة والنبى ﷺ فى انبساط أنواره ، وإشراف الدار الآخرة به ، بحيث لاتدانيه شمس ولا قمر ولانجوم ، إذ كانت الشمس وإن كانت يستنير بها كل شىء فهى مظلمة فى ذاتها . ومعنى قولنا أنها مظلمة فى ذاتها أنها غير محيطة بذاتها من جهة العلم ، ولا عارفة بمكانتها من خارجها ، كمثل السراج ينير غيره وهو فى ذاته مظلم . وأما منصب النبوة فصاحبه ﷺ منير فى ذاته أضعاف ما هو منير لغيره ، وإنما الخط الواصل إلى غيره كالرشح من الإناء المملوء . فهذا هو الفرق بينهما .

وقال أهل التنجيم : إن الشمس مقبلة على القمر بالإمداد ، والقمر مقبل على الشمس بالاستمداد وأنه يحل منها محل الوزير من الأمير . فنقول : إن النبى ﷺ مقبل على وصيه بالإمداد وهو مقبل عليه بالإستمداد ، وأنه وزيره ككون القمر وزير الشمس . والذى يدل على ذلك من الشرع قوله الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام: « واجعل لى وزيرا من أهلى (١) » وقول النبى ﷺ « على منى بمنزلة

---

(١) سورة طه : ٢٩ .

هارون من موسى ، إلا أنه لانبى بعدى » [1] ثم قال الله تعالى : « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما فى الآخرين ، سلام على موسى وهارون [2] » . فإن كان تشبيه النبى ﷺ نفسه بموسى وعليا بها بهارون صحيحا ، فإنه يسايره على مقتضى هذه الآية قدما .

وقال أهل التنجيم : إن هذا العالم الذى هو عالم الكون والفساد فى تلك القمر وفى تدبيره وإن نفوذ تأثير الشمس فيه بوساطة القمر ، ولو نفذ فيه تأثير الشمس بمجرده من دون القمر ، لم يصح أن يوجد نبات ولا حيوان ، ولكن القمر يقبل تأثر الشمس ، فيفضى به إلى حد الأعتدال ، ثم يوصله إلى مواليد العالم ، فيكون به النشأة والعمارة . فنقول : إن الشريعة وأركانها تعلقها بالوصى ووصول الناس إلى حقائقها من جهته ، وإنه مهما رفعت وساطته من الدين ، والتمس التمسك بعلائق النبوة بمجردها من دون الوصاية ، بطل مواليد الدار الآخرة ، والصور المنشأة للحياة الأبدية . فتبارك الله الذى جعل فى سماء الدين نجوما (كما جعل فى السماء الدنيا نجوما) وجعل فيها سراجاً وقمراً ، كما جعل فيها سراجا وقمراً منيراً ، ليكون أحدهما مثلا والآخر ممثولا ، هذا محسوساً وهذا معقولا .

---

(١) صحيح مسلم : ٦/٢٦٧ باب فضائل على بن أبى طالب .

(٢) الصافات : ١١٤ – ١٢٠ .

قال الحكماء : إن الإنسان هو العالم الصغير ، لأن آثار جميع ما هو فى العالم الكبير موجودة فيه ، فجعلوا القلب الذى هو أشرف شيء فى الإنسان ، وهو بيت الحياة والحرارة ، بإزاء الشمس التى هى أشرف شيء فى الفلك ، لتخصص القلب بقبوله قوى الشمس . وجعلوا الدماغ الذى هو حاسة العقل وأشرف شيء فى الإنسان بعد القلب ، ومكان المعارف من الألوان والطعوم والروائح بإزاء القمر الذى هو أشرف شيء فى الفلك بعد الشمس . وقالوا : إن الدماغ وزير القلب ، وقالوا : إن نفوذ القوة من القلب إلى الدماغ كنفوذ الشمس إلى القمر . وقالوا : إن إدراك الدماغ حقيقة الطعوم والروائح والأصوات والألوان بآلات السمع والبصر والشم والذوق ، ورجوعه فيها إلى القلب الذى أفاده القوة كاستناد القمر فيما يحصله فى عالم الطبيعة من صور الأشخاص والمواليد إلى الشمس التى تمده القوة ، كما يمد القلب الدماغ الحرارة . وقالوا : يفسد بفساد الدماغ الحس والعقل ، ويقف عن إدراك المعارف ، كما أنه لو لم يكن فلك القمر أوقف العالم عن إظهار الصور .

ولما كان الأمر على هذا الترتيب كان الإنسان الذى هو العالم الصغير بإزاء الشريعة التى هى عالم الأمر ، وكان حلول القلب الذى هو متصل بالشمس ومعدن الحياة وأمير الجوارح التى لاتورد ولاتصدر إلا عن أمره كحلول النبى ﷺ الذى هو أمير عالم الأمر ، ومعدن حياة الخلق ، والرئيس الذى لاتورد ولاتصدر حدود دينه إلا عن رأيه وأمره ، وكان سبيل الدماغ الذى هو متصل بالقمر وحاسة العقل ، ومكان تمييز الألوان والروائح والطعوم ، وإدراك المعارف بصورها . وكونه وزير القلب تنفذ القوة منه إليه كنفوذ قوة الشمس إلى القمر ، كسبيل الوصى بكونه وزير النبى ﷺ ! فى عالم الأمر ، تنفذ إليه قوته ، ويتصل به علمه ، فيبين حقائق الدين

بالقوة الممنون بها عليه . وكان إدراك الدماغ حقيقة الطعوم والروائح بالآت من السمع والبصر والحواس ورجوعه فيها إلى القلب الذى أفاده القوة كقيام الوصى عليه السلام بدعاء الناس إلى حقيقة أمثال الشريعة بآلاته الذين هم جدوده مستندا إلى بركات النبى ﷺ الذى أفاده القوة ، وكان كون فساد الدماغ موجبا لفساد الحس والعقل ، ككون استحالة وجود ذلك القمر موجبة لاستحالة وجود الصور موجبا أن عدم الوصى الحال من عالم الأمر محل الدماغ الذى هو سبب المعارف من الصور الإنسانية ومحل القمر من الأفلاك الذى به قوام هذا العالم يقتضى استحالة وجود الصور الدينية المهيأة لقبول فوائد الآخرة .

وكما أنه ولولا القمر لما كان لصور الطبيعة وجود ، ولولا الدماغ لما كان للمعارف الحسية وجود ، فكذلك لولا الوصى عليه السلام لما كان المعارف الإلهية وجود ، ولا لصور الحياة الأبدية وجود . فتبارك الله أحسن الخالقين . يقول وهو أصدق القائلين : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون (١) » .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

ونحن نورد عليكم ذكر المفرطين ووقوعهم فى هذه القضية بالعكس من المقصرين [١] ، وذلك أن المفرطين أخذوا نسخة كفرهم من النصارى الذى هم أمة عظيمة ، وهم عن بكرة أبيهم غلاة ، يدينون بآلهية البشر ، ويقولون : « إن المسيح عليه السلام قال : جئت من عند أبى ، وأنطلق إلى عند أبى » ، وإن الله سبحانه قال له : « أنت ابنى بكرى » .

وفرق الإسلام تنكر أن المسيح عليه السلام قال من هذ القول شيئا ، وتكذب النصارى فيه ، جهلا منهم بالمعنى ، إلا قليلا من أهل المعرفة وقوله عليه السلام صحيح لا شبهة فيه سوى أن له نظائر من قول المسيح عليه السلام لو شهرها النصارى كشهرة هذا القول لانتفت عن المسيح الإلهية ، منها . قوله للحواريين : « إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وآلهكم ، وقوله أيضا : إن أنتم غفرتم للناس خطاياهم فإن أباكم الذى فى السماء يغفر لكم خطاياكم » .

---

(١) يعنى بالمفرطين هنا الغلاة الذى ألهّوا عليا ، كما أله النصارى المسيح ، ويعنى بالمفرطين الذين غمطوا عليا وآل بيته حقهم ، بأن جعلوهم كغيرهم من الناس ، وهؤلاء تحدث عنهم فى المجلس ١٨ . وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته لهذا المجلس بقوله : « قد سمعتم ما قرىء عليكم فى شأن المقصرين الذين أسدلوا على وجوه الأنوار الدينية غيوما ، بأن جعلوا الخصوص من فضائل الأئمة عموما ، وتأولوا فى آية المباهلة وهى قوله : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم .. الآية) وفى قولة : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس) ونظائرهما ، أن الخطاب فيها متوجه إلى كل من شهد الشهادتين ، فأجروا الخاص منها مجرى العموم، وزالوا عن نهج الدين القويم، وزالوا معه من الصراط المستقيم » .

فلما وجدنا القول من المسيح عليه السلام في هذا الباب فدعم ، من كونهم أبناءه ، مثل كونه ابنه لم نشك فى أن للحواريين آباء وأمهات معروفين مشهورين . ففسدت نسبة كون المسيح وحده ابنه ، وكانت نسبته لهم إلى بنوة الله على الجهة التى كان هو منتسبا إليها . وفى ذلك ما ينقض حجج النصارى ، لأنه إن كانت البنوة تجمعه وإياهم على نسق واحد ، فقد كثرت آلهتهم وجاوزت ثالث ثلاثمائة فضلا عن ثالث ثلاثة . وإن ادعوا فرقا بين ما قاله فى نفسه وما قاله فيهم طولبوا بالبرهان والعلة فيما انتحله النصارى من هذه البدعة . إنهم سقطوا عن الهداة والأدلة ، كما سقط المقصرون والمفرطون من هذه الأمة ففسروا بآرائهم ، وتأولوا على قضية أهوائهم .

ونقول : إن لهذه الأمة مسيحا اهتدى به قوم اهتداء الحواريين بالمسيح ، وغلافية قوم غلو النصارى فى المسيح ، ومقته قوم مقت اليهود للمسيح عليه السلام فالحواريون أبناء الله على النسبة التى بها المسيح ابنه ، كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام « نحن نور الله ، وشيعتنا منا » . فإذن الفضيلة عامة لا خاصة ، والإلهية باطلة ، وهى عكس معتقد المقصرين فى رد الخاص عاما .

ولما عملت النصارى على إلغاء ذكر الحواريين بكونهم أبناء الله ، وإختصاص المسيح بالنبوة من دونهم ، إحكاماً لعقيدة الإلهية نزلت نصارى هذه الأمة الذين هم الغلاة على مكانهم ، ومنعت الحواريين فضلهم بكونهم فى نبوة الله شركاء مسيحهم ليدينوا له بالآلهية ، وتمسكوا بما روى له من قوله وهو على منبره: « أنا الأول وأنا الآخر وأنا الظاهر وأنا الباطن ، وأنا بكل شيء عليم ، وأنا الذى

رفعت سماءها ، وأنا الذى دحوت أرضها ، وأنا الذى أنبت أشجارها وأنا الذى أجريت أنهارها » . وهذا خبر يروع ويهول سماعه ، والناس فيه بين ثلاثة : إما ومكذب كذب له ومُنَزِّه لأمير المؤمنين عن قول مثله من المقصرين ، وإما متقبل معتقد له على ما هو به من المفرطين ، وإما مستمل لمعناه من أئمة الحق من المؤمنين ، كما قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين . « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (١) .

فنبتدى ونقول فى أقوالهم فى المسيح إنه ابن الله والحواريين إنهم إبناء الله . إنه لا روعة فى هذا القول إلا عند أهل الجهل الذين لم يرتعوا فى مراتع العلم . ومعلوم مستفاض فى كلام العامة دون الخاصة أنهم يسمون المتهافتين على الدنيا أبناء الدنيا ، والطالبين للآخرة أبناء الآخرة . أفترى تلزم الدنيا والآخرة نقيصة كون هؤلاء أبناءهما ؟ أو يتوجه عليهما ما يتوجه على الحيوان من مذمة التوليد بالمزواجة والمناكحة ؟ ونقول : إن الإنسان مولود العالم من حيث جسمه ، ومولود الأفلاك والأجرام من حيث حركته وحسه ، ومولود النفس والعقل من حيث نفسه وعقله .

وإذا قيل إنه ابن الله على هذه النسبة والقياس كان حكمه هذا الحكم . ثم إن المسيح وغير المسيح من أنبياء الله الصادقين وأوليائهم الطاهرين فى ذلك شرع سواء خلا أن تفاوتا بينهم من أصل إلى فرع ، ومتبوع إلى تابع .

---

(١) سورة النساء : ٨٣ .

ونحن نقول الآن بحول اللّه وقوته في قوله عليه السلام « أنا الأول وأنا الآخر » إن الأول الذى لا أول قبله ، هو نور كلمة اللّه تعالى الذى قام منه الخلق ، والآخر الذى لا آخر بعده ، هو نور الله سبحانه الذى يقوم منه البعث . قال الله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها » (١) الآية .

ومعلوم أن الوصول إلى سعادة البعث من جهة التعلق بكلمة الإخلاص التى قام بها قائم الخلق . فإذا كان هذا الحكم مستقراً عند الأمة مجمعاً عليه غير مختلف فيه ، فنقول : إن النبى ﷺ ألقى هذه الكلمة إلى الناس مجملا ، فلم يضمن عليها غير حقن الدماء وصون الأموال جزاء ، فقال ﷺ . أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، ثم قال ﷺ من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة ، قيل : وما إخلاصها يارسول الله ؟ : قال . معرفة حدوها وأداء حقوقها » .

وكلمة الإخلاص المشتملة على معرفة الحدود وأداء الحقوق ملقاة إلى وصيه عليه السلام مقاليدها ، منظومة بفضل خطابه عقودها ، فمن علق بأسباب التوحيد من غير جهته كان محصوله على الشرك ، ومن رام اليقين من دون جهته لم يتخلص من عقله الشك ، فانقطع من الطرفين الأول والآخر نسبه ، ولم يتصل بسبب النجاة سببه ، فهو الأول والآخر من حيث لا وصول إليهما إلا من جهته . وهذا القول أثر مشرعى .

---

(١) سورة الزمر : ٧٠ .

وقول آخر مأثور فى الخبر أن آدم عليه السلام لما كان فى السماء رأى مكتوبا فى ساق العرش : لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلى ، . فهما عندالله من حيث المنزلة والمكانة أول ، ومن حيث رسالة والوصايا المختومتان بهما آخر . وهذا القول شرعى .

وقول آخر : معلوم أن رتبة النبوة والوصايا من حيث افتتاحهما منساقة إلى حيث اختتامهما . والبشارة من الأوائل لم تزل متصلة للأواخر ، والقصد إذا من الأوائل للأواخر . وإذا كان ذلك كذلك فهما الأول والآخر . وهذا القول شرعى .

وقول آخر مأثور أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد بستة آلاف سنة فينبغى أن يكون أشرفها قدراً أقدمها خلقاً ، ولا أشرف منهما فى مقامات النبوة والوصاية ، فهما الأول والآخر . وهذا القول شرعى .

وإذ قد مضت هذه النوبة فيما يتعلق بالأثر والشرع فقد بقى علينا ما يتعلق بالعقل ، فنقول بحول الله وقوته : إن الإنسان أول من حيث نفسه ، آخر من حيث قامته الألفية وجسمه ، والدليل على ذلك كونه وهو فى حد النطفة والعلقة بمقابلة النبات الذى ليس فيه غير القوة النامية ، ثم يتدرج فيصير حساساً بمقابلة الحيوان الذى يحس بالملاذ والآلام ، ثم يتدرج فيصير ناطقاً ، ثم يصير عاقلا ، فيتميز عن الحيوان بنطقه وعقله . وهذا التدريج منهاج إلى معرفة المبادىء التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة هذا الوجه ، وهى تدل على سبق النبات للحيوان ، والحيوان للصورة الإنسانية ، وعلى كون الصورة الإنسانية الصورة الكاملة التى هى خاتمة الصورة .

ولما كانت الصورة الإنسانية الصورة الكاملة كانت مهيأة لقبول آثار النطق والعقل التى هى من القوى الروحانية ، ولا تعلق لها بالأمزجة الطبيعية ، فصار الإنسان باتحاده بعالم العقل والنفس الذى منه يستملى نطقة وعقله أولا ، ومن حيث قامته الألفية المهيأة لقبول آثارهما آخرا ، فصار كالدائرة الملتقى طرفاها المحيطة بالسموات والأرض وما بينهما ، ومن أجله صار الإنسان مستوليا على الجميع بعلمه ، حاكما على الكافة بحكمه ، مستبعدا لأنواع الحيوان ، مستخدما لها فى مصالحه، وإذا كانت هذه نصبة الإنسان من حيث الإيجاب العقلى فإن الإنسان المطلق على الحقيقة من ختمت بنبوته النبوة وبوصايته الوصاية ، فهما الأول والآخر . والخبر الصحيح –وهو من جحد المقصرين وإسراف المفرطين فى حرز منيع وحمى- «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لايؤمنون فى اذانهم وقر وهو عليهم عمى[1] » . جعلكم الله ممن عرف لأنعم الله تعالى وأنعم أوليائه عظيم الأقدار، وفى كشف الغشاوة عن الأسماع منهم والأبصار . فنقول فى معنى قوله « أنا الأول وأنا الآخر » :

إن الحساب أصل لجميع خلق الله تعالى من عالم الطبيعة وعالم العقل بقول الله سبحانه . « لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق [2]» وإن غاية الحساب هى من واحد إلى ألف، وما بعد ذلك تكرير ، وإن أقسامه أربعة آحاد وعشرات ومئون وألوف . وهى أمثله على حدود الله سبحانه فى عالم الخلق وعالم الأمر . وللحساب طرفان . أول وآخر . فالأول الواحد الذى هو علة الحساب، ومنه بإزاء

---

(١) سورة فصلت : ٤٤ .

(٢) سورة يونس : .

والآخر الألف الذى هو غاية الحساب ، وإليه انتهاؤه . وليس فى الحساب ما يستحق أن يسمى العلة المطلقة غير الواحد الذى هو فى الطرف الأول ، ولا ما يستحق أن يسمى المعلول المطلق غير الألف الذى هو الطرف الآخر وكل ما بينهما من الأعداد فهو فى ذاته علة ومعلول . والعلة والمعلول كالوالد والمولود ، وذلك أن الأثنين بالنسبة إلى الواحد ولد ، وعند النسبة إلى الثلاثة والد ، والثلاثة بالنسبة إلى الاثنين ولد ، وبالنسبة إلى الأربعة والد . وعلى ذلك يجرى أمر الأعداد كلها غير الواحد الذى هو أب للجميع ، ولا أب له ، والألف الذى هو مولود الجميع ولا مولود له . وإذا كانت الصورة هذه كان الواحد والألف غايتى الخلق والأمر . أحدهما الأول الذى لا أول قبله ، والآخر الآخر الذى لا آخر بعده .

وكان زمام الطرفين بيد على بن أبى طالب عليه السلام والوصول إليهما من جهته بما قدمناه من الدليل فى امتناع الوصول إلى الإخلاص فى كلمة الشهادة التى هى المعنى الأول بإرشاده وهدايته ، ومن حجب عن إخلاص الشهادة أولا حجب عن دار الثواب آخر . فهو كما قال عليه السلام الأول والآخر .

وقول آخر : قالت الحكماء : أول الفكرة آخر العمل . ومعناه على تقريب اللفظ الذى يدنو من التصور أن أحدنا إذا أراد بناء دار ، قسم فى فكرة تقاسيمها ، وجد فى سر نفسه حدودها ، ثم إذا شرع فى بنائها أتى بها على الخط الذى خطه فى سر نفسه ، فيكون آخر عمله أول فكرته . فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام معه الرفعة عند الله سبحانه بالمحل الذى يكون مثله ، كان مصوراً فى علمه من قبل تصويره فى دار الدنيا بحد جسمه ، فكان أول الفكرة آخر العمل ، فهو الأول والآخر .

فنقول . إنا قد استفتحنا فى تحميد هذا المجلس [1] ذكر وقوع الكتابة عن الله تعاللى بالظاهر والباطن من حيث نفينا كونهما نعته ، وأوجبنا كونهما إبداعه وخلقه وذلك لأننا رأينا الأفلاك التى هى من صنعته سبحانه وإنشائه ظاهرة من حيث أفعالها ، باطنة من حيث ذواتها ، ورأينا النفوس ظاهرة كمثل ذلك من حيث أفعالها ، باطنة من حيث ذواتها . ولما رأينا هذين المعنيين لازمين للافلاك التى هى خلق الله تعالى وللانفس التى هى صنعته ، نفيناهما عن الحق سبحانه الذى هو خالق الجميع وبارئه ومصوره – سبحانه وتعالى عن نعت مخلوقاته ومخترعاته – فإذا كنا قد نزهنا الحق سبحانه عن ذلك وألحقناه بصفة المخلوق ، فإن أمير المؤمنين داخل فى شرط المخلوقين ، فلا يتوجه عليه دعوى ربوبية حين قال : « وأنا الظاهر والباطن » فنقول « إنه ظاهر فى الدار الآخرة التى هى مقر كماله ، ومحل تجليه بصورة الحقيقة ، باطن فى دار الدنيا التى هو منها فى محل الغربة ومكنسى كسوة الطبيعة المستعارة الدائرة . ولقد وصف عليه السلام المؤمن الذى حده دون حده ، ورتبته دون رتبته بكونه ظاهراً وباطنا ، وإن كان غير اللفظ فقال : « هو مجهول فى الدنيا معروف فى الملأ الأعلى » وهذا هو المعنى الذى قاله فى نفسه بعينه وعيانه .

---

(١) الاستفتاح الذى يشير إليه هو قوله فى أول هذا المجلس : الحمد لله الظاهر والباطن لامتصفا بهما لكونهما فى حوزة ملكه ، واستحقاقهما صفة لمخلوقاته التى عملتها أيدى قدرته ، وحازتها قبضة ملكه كالأفلاك السبعة التى هى باطنة بذواتها ظاهرة فى أفعالها ، وكالأنفس التى هى فى ظهور الأفعال وخفاء الذوات على مثل حالها ، وتنزه جل جلاله عن أن يكون لمخلوقاته ومخترعاته شبيها . فمن وسمه بسماتها ووصفه بصفاتها تاه فى وادى الغى والضلال تيها .

وقول آخر فى كونه الظاهر والباطن ، وهو أنه ظهر لعيان عقول المحقين أنه من النبى ﷺ بمنزلة اللوح من القلم فى عالم الأمر ، فكما أنه لا كتَّابة للّه إلا به قلمه على هذا اللوح للدار الدنيا ، كذلك لا كتابة للّه تعالى إلاّ ما جرى به قلمه على ذلك اللوح للدار الأخرى (١) . فهو ظاهر بهذا الوجه لبصائر المحقين ، باطن عن أبطار المبطلين . يدل على ذلك قول رسول اللّه ﷺ « طوبى لمن رآنى ، وطوبى لمن رأى من رآنى ، وطوبى لمن رأى من رأى ،من رآنى » فمعلوم أنه إن كانت الرؤية التى قالها النبى ﷺ هى من حيث الأشكال والخلق والألوان والمقادير فقد رآه عدوه على المثال الذى رآه وليه ، فوجب إن يكون كل من ناصبه العداوة قد عمتهم كلمة « طوبى » ولقوا من اللّه الحسنى ، وهذا ممتنع ، وإذا كان ممتنعا كان معنى الرؤية متوجها إلى رؤية النفوس لنفسه ، دون رؤية الأشخاص لشخصه . ورؤية النفوس هى إحاطتها بعظيم قدره ، وشريف خطره ، وأنى لها بذلك . يقول اللّه سبحانه مخاطبا لرسول اللّ ﷺ « وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون (٢)» . وإنما تصبح الرؤية له ممن هو فى آفاق فضله ، والذى هو فى آفاق فضله وصيه عليه السلام الذى هو حامل أمانته ومستودع سره . وتصح الرؤية لوصيه ممن هو

(١) لاحظ أن المؤيد ينفى عن اللّه تعالى ما وصف به نفسه فى كتابه بأنه هو الظاهر والباطن تنزيها له عن أن يكون شبيها لمخلوقاته . ثم يصفه بأنه تعالى له كتابة على اللوح المحفوظ ، وعلى اللوح الآخر الذى كنى به عن على – كما يفهم من عبارته – مع أن اللّه تعالى لم يصف نفسه بهذا الذى وصفه به المؤيد . فأين إذن التنزية الذى أجهد المؤيد نفسه من أجله ؟؟

(٢) سورة الأعراف ١٩٨ .

أيضا فى آفاق فضله ، وهو الإمام الطاهر المعصوم عليه السلام : فقوله . « طوبى لمن رآنى » مشار به إلى وصيه عليه السلام الذى رآه حق رؤيته ، لاستملائه منه ، واستحقاقه أن يكون زوجا له . وقوله : « طوبى لمن رأى من رآنى » مشار به إلى الإمام المعصوم الذى هو فى آفاق الوصاية وساد مسد الوصى فى الرتبة . وقوله : وطوبى لمن رأى،من رأى من رآنى» هم المؤمنون المقتدون بالأئمة، الطائعون لهم، الآخذون الدين عنهم . يقول الله سبحانه : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (١).

وإذا كانت الصورة هذه فقد علمنا أنه الظاهر والباطن ، وأن كلامه الصدق والحق .

وقول آخر : معلوم أن العالم بين الجهال ضائع ، كالعاقل بين الأطفال والمجانين ، فلو أنهم رأوه حق رؤيته ، وعرفوه حق معرفته ، لكان محمولا منهم على الأحداق . ولكن على قلوبهم غشاوة تمنع نور الحق أن يصل إليها ، فهو بشخصه ظاهر وبفضله باطن .

وقد فسر المفسرون قول الله تعالى : مخاطبا لرسول الله ﷺ : « ووجدك ضالا فهدى (٢) » فقال قائل : إنه كان ضالا فى جملة ضلال العرب ، فهداه الله تعالى إلى معرفته . وقال آخرون كان ضالا عن طريق الرسالة ، فهداه الله إليها ، وقال آخرون : بل كان ضالا من الوله وشدة المحبة والحرص ، فهداه الله من الرسالة

---

(١) سورة الرعد : ٧ .

(٢) سورة الضحى ٧ .

والاصطفاء إلى ما يبل شوقه . وقال الأئمة : « كونه ﷺ ضالا على مقتضى ما يقال : إن الحكمة ضالة المؤمن . والمعنى أنه كان في وسط قوم لاهين عنه ، لايعرفونه، فهو كالجوهرة الثمينة في يدى من لا يفرق بينها وبين الزجاجة ، وكان ضلا فيهم على هذه النصبة ضائعا ، فهداهم اللّه لمعرفته ، وبصرهم بعظيم قدره من الشرف ومكانته .

فنقول : إن إعتقاد المعتقد أن الخالق سبحانه هو الجدير بأن يقول : ، وأنا بكل شيء عليم ، لا المخلوق اعتقاد فاسد من وجوده شتى ، إذا أسرى بسرية الفكر والرؤية إليه ، واطلع من مراقي العقل والبصيرة عليه .

فأحد الوجوه أن العلم موضوع على ذات ، به شرف تلك الذات . مثال ذلك أن النفوس هي واحدة من حيث ذواتها ، فإذا حملت نفس منها القرآن أو علم توحيد الله أو علم الكتابة ، والمهن والصناعات التي تفيد ديناً أو دنيا ، كانت تلك النفس أشرف من النفوس التي لا تحمل شيئا من ذلك ، ولو أمكن – وهو غير ممكن – أن نجعل سبحانة ذاتا فتشبهه بخلقه ، وهو المنزه عن شبه خلقه ، لم يكن بد من كونها كاملة في شرفها من دون أن تكون عالمة قادرة ، أو غير كاملة . فإن كانت كاملة كان العلم فضلا ، لا يحتاج إليه ،وإن كانت غير كاملة . – إلا أن تكون عالمة قادرة – عظمت النقيصة بذات الله سبحانه – أن يكون كما لها بمعلومات هي غيرها وخارجة عنها .

والثاني أن غاية شرف ذواتنا هي معرفة توحيد الله سبحانه ، فكيف نحكم بشرف ذاته من جهة معرفته بأجناس خلقه، التي ما تشرف ذواتها إلا به وبمعرفته، وكونها عالمة بهم وأفعالهم وأقوالهم، إن ذلك بالرذيلة أشبه منه بالفضيلة .

والثالث أن العلم معناه صورة المعلوم في نفس العالم . وصورة المعلوم في نفس العالم لا تخلو من كونها حالة طارئة عليها بالاكتساب والتعلم ، أو موجودة بوجودها لم تزل . فإن كانت صورة المعلومات طارئة على ذات الباري على زعم من يصفه بالذات – وهو منزه عنها – فتلك آية من كان ناقصا فتم ، وجاهلا فعلم

. وإن كانت صورة المعلومات قديمة ، فالعالم وجميع ما فيه قديم بقدمه ، موجود بوجوده . فتعالى الله عن ذلك .

والرابع أن من المعلومات المهن والصناعات كالفلاحة والزراعة والصياغة وما يجرى مجراها ، وهى داخلة فى شرط الآية : « وهو بكل شىء عليم [1] » ، فإن قلنا إنه عالم بذلك كله لمثبت فضيلة ، وإن قلنا غير عالم بطل حكم الآية : « وهو بكل شىء عليم » .

والخامس أن من الصنائع ما هو رذيلة كله ، لا فضيلة فيه ، كالغدر والخيانة والمكر والخديعة والأفعال الردية . والذى يعلم ذلك يتقبح به ولايتمدح . ولقد نفى الله تعالى فى نص كتابه بعض العلم عن نفسه، إذ كان قبيحا ممتنعا. وهو قوله: «أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون [2] » .

---

(١) سورة البقرة : ٢٩ ، الأنعام : ١٠٠ ، الحديد : ٣ ، الملك : ١ .

(٢) سورة يونس : ١٨ . قال ابن جرير فى تفسير هذه الآية : « معناه : أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض » (تفسير الطبرى ٤٦/١٥) . فالمنفى وقوع ما زعمه المشركون من أن آلهتهم تنفعهم شفاعتها عند الله . « فأخبر الله تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا ، ولا يقع شىء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبدا : (تفسير ابن كثير المجلد ١٩٣/٤) ويقول النسفى فى تفسير الآية : أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوما له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيئا . وقوله (فى السموات ولا فى الأرض) تأكيد لنفيه لأن ما لم يوجد فيهما فهو معدوم » ٩/٢ .

والسادس أن جميع الكائنات علم جملها مستقر فى النفس الإنسانية فهى تعلم تعاقب الليل والنهار ، والحر والبرد ، وحدوث جيل ، وانقراض جيل ، وأن الزمان لا يخلو من ذلك أبدا ، فماذا الذى يبقى مما يتفرد البارى بعلمه غير تفصيل هذه الجملة ؟ وما فيه منقبة . وإذا كانت الصورة هذه فقد قطع الطريق بمن يعتقد أن ذلك من نعوت الله سبحانه من حيث التحقيق ولم يتأمل قول رسول الله ﷺ فى صفة القرآن : « ظاهرة أنيق ، وباطنه عميق » وأنه وإن كانت العبارة فيه عن الخالق سبحانه فالمعنى به المخلوق .

وعند ذلك نقول استرسالا : إن قول أمير المؤمنين عليه السلام : « وأنا بكل شىء عليم » كقول الأرض لو كانت ناطقة : فى البر والبحر والسهل والجبل والمعادن والنبات والحيوان . وفى أدوات الكون لجميع الصور الجسمية وفسادها ، وآلات إنشائها وإبلائها . ونقول : إنه واقع من الصور المخلوقة للدار الأخرى موقع الأرض من الصور الموجودة فى دار الدنيا ، يملك من حال كونها وفسادها ما تملكه الأرض، ويقبض ويبسط فيها بإذن من له البسط والقبض .

ونقول إن اعترض معترض من أهل الشرع فقال : ما الذى دعا من الحاجة إلى قوله ما يؤدى بعض الأمة إلى الضلال والتضليل ، وما لا يتسبب إلى الخلاص منه إلا بغوامض التأويل ؟ . قلنا له : هو الذى دعا عيسى ابن مريم عليه السلام أن يقول ما قاله من القول الذى ساق أمته إلى القول بالإلهية ، إلا من رحم الله وعصم ، والذى دعا إلى أن يكون القرآن العظيم جاريا على نسبته ، مما اختلف فيه المختلفون ، وتكلم عليه – على مقاييس آرائهم – المتكلمون ، إيجابا لرؤيته فى مكان ونفيا فى مكان. واستملاء من قوله تعالى: « وجاء ربك والملك صفا صفا [1]» على أمر فتان ، ظاهره يهتك ستر العقول ، لكون الجيئة والذهوب صفة للأجسام ، التى يمتلىء منها حيز إذا جاءت ، ويخلو منها حيز إذا ذهبت .

فإن عدل به إلى معنى له يتعمل ، وتأويل فيه يتأول ، كان فيه تغيير القرآن ، وتحريف الكلم عن مواضعه الذى هو المضاهاة لقول أهل الكفر والطغيان . وقد قال أصحاب الرأى : إن قوله : « وجاء ربك » معناه : أمر ربك . وإنه لما كان شأن العرب الإيجاز والاختصار ، وكان نزول القرآن بلغة العرب أوجب أن يكون ذلك خارجا مخرج الإيجاز والاختصار ، ليعلم كل عاقل أن الله سبحانه منزه عن صفة الجيئة والذهوب . ومعلوم أن هذا جمع بين تغيير القرآن ونسب الله تعالى فى علمه إلى النقصان ، فقد كان سبق فى علمه أن أكثر الأمة يضلون بظاهر هذه الآية من جهة قصد الإيجاز والاختصار ، وكان الأولى برأفته ورحمته أن يجانب الإيجاز والاختصار فى هذا المكان على علمه بمستفيض ضرره ، ويقول : « وجاء أمر ربك » ليحمى به الشعوب والقبائل من أن يصلوا ناراً حامية ، بقصده مذهب العرب فى

---

(١) سورة الفجر : ٢٢ .

الإيجار والاختصار ، لأن الاختصار المؤدى إلى التمريض فى الاعتقادات والتعليل ، فى هذا المكان هو عين التطويل ، والسائق إلى العذاب الوبيل .

وإذا كانت هذه نسبة القرآن فى مخارج ألفاظه ، ومصارف أقواله ، والناس مختلفون فيها ، يموج بعضهم فى بعض ، فما ينكر أن يكون ما تقدم من القول الصادر عن أمير المؤمنين عليه السلام مثل نسبة الكتاب العزيز و الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ونحن نخلص لكم معنى تمام الخبر فيما يكشف العمى عن البصيرة والبصر فى قوله : « أنا الذى رفعت سماءها ، وأنا الذى دحوت أرضها » بما ينير بسراج العقل آفاقه ، ويشد من عقدة الحكمة المقصودة به وثاقه ، فى المجلس الآتى بمشيئة اللهّ وعونه .

ونقدم القول الآن بأن الغلاء على مكان النصارى نزلوا ، ولمثالهم تمثلوا وعند النصارى أن اللّه تعالى لرأفته ورحمته بعبيده لما علم أنه لا قبل لهم بأن يأخذوا الكلام فيما يتعلق بنجاة أرواحهم إلا عن صورة بشرية مثلهم ، تجسم فظهر لهم فى لبس ثوب الناسوت لخلاصهم ، قالوا وليس لبسه لباس الناسوت بمحدث عيبا فى معنى اللاهوت ، إذ كان هو كالشمس التى تقع على المزابل فلا يعلق بها شىء من وضرها .

وكمثل ذلك قالت الغلاة فى أمير المؤمنين على عليه السلام عن ورود الخبر المروى : « سبحان من تجلى لخلقه بخلقه » ، وفى قوله هذا من النقص على آلهتهم

بفاسد آرائهم مالا خفاء به على من فتح عين بصيرته ، وقدح زناد فكره . وذلك أن إلههم إن كان عندهم بصورة القادر التام القدرة ، فلقد كان الأولى بقدرته والأشبه بحكمته أن يحيل عباده الذين هو المالك لأمورهم إلى أى صورة شاء ، لا أن يستحيل هو عن صورته الأشرف إلى صورهم الأخس . فإن الواحد منا لو كان قادرا ، وكان يبتغى مصلحة دابة أو حمار عنده ، لكان قبيحا أن يستحيل فى صورة دابته على قوة المناسبة بيننا وبينها ، فمن الخالق سبحانه الذى لا مناسبة بينه وبين مخلوقاته أقبح وأقبح .

ومن قبيح ما ينتحله الغلاة قولهم فى رجل وجد مولده ومنشؤه وأكله وشربه . وعرف أبوه وأمه وصاحبته وبنوه ، وعرف قاتله : إنه الإله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وأما احتجاجهم أن الذى رأته العين من صورته ، وسمعته الأذن من كلامه ، غير ما رأت وسمعت ، فهذا هو البهت والمكابرة إلى إبطال الحواس التى لاتصح المعارف إلا من جهتها . وسبيلهم سبيل المنكر أن هذه الكتابة سواد على بياض ، وفى ذلك خروج عن حد المعقول ، وفسخ للفروع من المعارف والأصول . ولو أنهم قالوا : ما رأيتموه رؤية النفس للنفس ، وما أحطتم به إحاطة اللطيف باللطيف ، لكان ذلك قولا . فأما نفيهم رؤية العيون المشخصة لأشخاصهم ، وإدراك الأدوات المجسمة لأجسامهم فهو على ما ذكرناه عين البهت والمكابرة .

فنقول وباللّه التوفيق : معلوم أن الإنسان يحظ نفسه التى هى أثر من آثار النفسى الكلية – يستخرج العيون ، ويقيم الدواليب والنواعير ، ويجرى الماء إلى الأرض الميتة فيحييها ، يستخلص منها من الحب والثمرات ما يكون مادة لجماعة كثيرة من الحيوان فى حياتها ومعاشها ، أليس هو على قدر قوته قد أقام بهذا الفعل دولا بإزاء دولاب هذه الأفلاك والدوائر التى تقوم منها هذه الأمور العظيمة ؟ سوى هذا فإنه يصور الصور ، ويمثل التماثيل التى تشبه الإنسان وتشبه أجناس النبات والحيوان ، وربما زادت عليها بحسنها وبهجتها . أليس هو على قدر قوته قد أظهر مختلفات الصور نباتا وحيوانا ، يشبه ما هو فى العالم الكبير من صور النبات والحيوان ؟

وإذا كانت الصورة هذه قامت الدلالة الواضحة على كون الإنسان مولود النفس الكلية التى السموات والأرض وما بينهما نقشها . فمن هذه الجهة اقتدر على مماثلتها فى أفعالها – وإن كان الكبير على حده ، والصغير على حده . وإذا ثبت أن الإنسان مولود النفس الكلية القائمة منها نقوش العالم علوه وسفله ، كان الإنسان الحقيقى ومولود النفس الكلية الحقيقى هو رسول اللّه ﷺ ، وأمير المؤمنين عليه السلام . فقوله : « أنا الذى رفعت سماءها ودحوت أرضها » إشارة إلى عنصره الذى هو النفس الكلية القائمة منها نقوش السموات والأرض ، وليست هى غيرهما ، ولا هما غيرها ، من حيث العنصر .

وقد سقنا هذا الكلام مقتضى العقل ونحن نسوقه باللفظ الشرعى الأثرى ليسهل تصوره على من غلظ طبعه ، ولم يدق فكره ، فنقول . مأثور عن النبى ﷺ

أن الله تعالى أجرى قلمه على لوحه بما هو كائن من خلق السموات والأرض وما بينهما . فنقول : إن اللوح المذكور بلسان الشرع هو ما سميناه النفس الكلية بلسان العقل ، فعليه النقوش والكتابة ثبتت ، ومنه لاحت ، فسمي اللوح ، فظهرت فيها هو العقل والشرع تقابلا بإذن الله .

وقول آخر : إن النبي ﷺ والوصي عليه السلام في دورهما للنشأة الآخرة بمنزلة اللوح والقلم للنشأة الأولى ، كما أنه لاحظ ولا كتابة ولا نقش إلا وهو في مضمار القلم ، ولكنه لايتشكل ولا يلوح إلا إذا وقع في اللوح ، وكذلك صورة النشأة حيز الوصاية . وكما أن صورة السماء والأرض والجبال الجماد هي التي كانت قد ارتسمت في اللوح من القلم بأمر الله تعالى فقد ارتسمت في هذا اللوح كمثل ذلك ، صور السموات والأرض والجبال والحيوان للدار الآخرة التي هي الحيوان . فسمواته أئمة سموا على الخلق بقوة التأييد من الله سبحانه سمو السماء على الأرض . وهم مهبط أرزاق النفوس ، ككون السماء مهبط أرزاق الأجساد ، وهم مواقع الأنوار العلوية الروحانية ، ككون السماء مواقع الأنوار الجرمانية وأرضه أزواجهم القابلة لموادهم ، فيخرج منها أنواع الزهر والثمر الحكمية كقبول الأرض مادة السماء ، فيخرج منها أنواع الزهر والثمر الطبيعية ، وجباله أوتاد دعوتهم القائمة ، ككون الجبال أوتاد الأرض الترابية الكثيفة ، وأشجاره وزروعه مستجيبوهم والملبون لدعوتهم ، الذين هو الزروع الزكية ، كمثل أشجار الأرض ونباتها على اختلاف أنواعها . وقد خلصت بحمد الله زبدة القول بما يلمع نوره من سماء الفضل ، وبطل قول الخابطين في عشواء الجهل .

ولما كان على بن أبى طالب مسيح هذه الأمة بما شبهه النبى ﷺ به ، اعترضت فيه عوارض هذه الشبهة . فقد قيل فى المسيح إنه إنما سمى مسيحا لكونه ممسوحا بكلمة الله . وقيل كان ممسوحا بماء نهر الأردن . وقيل كان ممسوحا بالدهن . وعلى هذه النسبة فقد كان على عليه السلام مسيحا لكونه ممسوحا بكلمة الله : ما مسه دنس الجاهلية ، آمن برسوله ﷺ وهو طفل . وكان يصلى بصلاته ، ويتنسك بنسكه . وكما أن المسيح عليه السلام أوتى الكلمة التى هى آية النبوة طفلا فكذلك أوتى هذا (١) الكلمة الى هى آية الوصاية طفلا . وكما أن المسيح عليه السلام قال للدنيا : طلقتك ثلاثا ، فكذلك قال عليه السلام : طلقتك ثلاثا ، وقال : ياصفراء ويابيضاء غرا غيرى، وقال النبى ﷺ : لولا أنى أتخوف أن يقول فيك الناس ما قالت النصارى فى المسيح لقلت فيك قولا لاتمر بملأ من الناس إلا ويأخذون من تراب تحت قدمك ، ويشربون من فضل طهورك » .

وقال الله سبحانه : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل (٢) . وفى ضمن هذه الآية من التعريض بعلى عليه السلام مالا يصح غيره فى المعقول عند ذى الخبرة بالتأويل وإلا فلم ضرب ابن مريم مثلا لقوم النبى ﷺ، وهم بالبعد الأبعد عنه من جهة المناسبة ،

---

(١) هذا ما يقوله الإمام على .

(٢) سورة الزخرف : ٧-٩ . انظر تفسير هذه الآيات وسبب نزولها فى تفسر الطبرى ٥٢/٢٥ ، تفسر ابن كثير ٢٢/٧ وغيرهما من التفاسير . وقد فسر ابن عباس فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده ٣١٨/١ يصدون بمعنى يضحكون، وفى اللغة : صد من باب ضرب ضحك .

إذ كانت أمته النصارى الذين على ملته . ولم تكن العرب على ملته بكونهم متوجهين للأصنام والأوثان . وما وجه صدودهم عنه ، وغيظهم منه، من حيث لا معرفة هناك ولا نكرة ، والعهد بينه وبينهم ستمائة سنة . لولا أن كانت الإشارة متوجهة به إلى من يبغضونه ، ولا يحبونه عن معاصر لهم ، فحينئذ يكون لصدودهم عنه معنى . وقوله تعالى حكاية عنهم : « آلهيتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هو قوم خصمون ، هذه الآية فى معنى الآلهية وفق ما كان رسول الله ﷺ تلاه على بعض النصارى من قول الله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله ، والمسيح ابن مريم [1] ، فقال النصرانى . يارسول الله : ما عبدناهم ولا اتخذناهم أربابا ، فقال النبى ﷺ : ألم يكونوا يأمرونكم فتأتمرون ، وينهونكم فتناهون ، قال : بلى يارسول الله . قال : فتلك عبادتكم لهم فى اتخاذكم إياهم أربابا [2] ، وكمثل ذلك سياقة قول من قال الله تعالى عنهم : « وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلا ، يعنى ما فعل هذا إلا وهو أصل المجادلة والمخالفة وشق العصا .

وقال اللَّه تعالى بعد ذلك : « بل هم قوم خصمون ، ثم قال سبحانه : « إن هو

(١) سورة التوبة : ٣١ .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، باختلاف فى بعض الألفاظ عن هذه الرواية . والنصرانى هنا يقصد به المؤلف عدى بن حاتم قبل إسلامه . انظر تفسير ابن كثير ٣/٧٧ .

إلا عبد أنعمنا عليه » . وهذا القول وفق ما نزل يوم الغدير فى شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] وقال سبحانه « وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » . وبنو إسرائيل فى عصرهم المقدم ذرية النبوة من حيث الولادة ، وفى عصرنا ذرية النبوة من حيث ولادة الإيمان . ولما كانت الصورة هذه فى وقوع التشابه والتماثل ، وجب أن يصيب قوما من هذه الأمة ما أصاب النصارى من العاهة ، قولا بإلهية البشر . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

وقد سمعتم ما قرئ عليكم من شأن من دان بإلهية البشر ممن مضى وغبر؛ فخاب فى الدارين وخسر ، ما فيه عبره لمن اعتبر ، وذكرى لمن ذكر ، فاستعيذوا بالله تعالى من الوقوف فى موقف شركهم ، وإطلاق الألسن بمثل افترائهم وإفكهم ، وذلك أن قوماً اعتقدوا فى علي عليه السلام وبعض الأئمة من ولده ما اعتقده النصارى فى المسيح عليه السلام ، ورجحوا عليهم فى كفرهم ، بأنهم لو يوجبوا دار ثواب ولا عقاب غير دار الدنيا هذه ، فالمثابون عندهم أهل الاتساع والثروة وصحة الأبدان واستقامة الأحوال ، والمعاقبون أهل الفقر والقلة وذوو الأعلال والأمراض والزمانة ، والنصارى لاترى الدنيا دار ثواب ولا عقاب . فهم بهذا الاعتقاد الفاسد أعمى من النصارى وأضل سبيلاً .

ومعلوم لكل ذى عقل أن الدنيا لاتصح منها لذة ، لأن لذاتها هى دفع مضارها يدل على ذلك أن ألذما يكون الطعام إذا كان الآكل مرهقا بالجوع ، وألذ ما يكون الشراب إذا كان الشارب مرهقا بالعطش ، وذلك توابعهما . فالإنسان ما عاش يداوى علة بعد علة ، ويميط عن نفسه أذى بعد أذى ، فمداوة الأعلال لا تستحق الكفاية عنها باللذات . وإن جنة تكون هذه سبيلها ، وتكون مقاساة البول والغائط والحمى والآلام والأستقام فى مضمارها لجنة ذليلة خسيسة ، وإن معاناة حمى يوم واحد ، لا يماثل بها ملك الدنيا لو حيز لرجل ، فضلا عما يتعقبه من الموت وسكراته . والموت هو الذى يفرق جمعه ، ويبدد شمله ، ويؤتم ولده . وهذا إذا كان الموت هو الموتة الأولى ، فكيف أن يتوالى عليه موت بعد موت ، على رأى من يعتقد هذه المقالة السخيفة من رجعة بعد رجعة . فيا ضعف عقل من يتخذ ذلك دينا ، ويرى بطلانه من الحجة التى ذكرناها برهانا مبينا .

وقد دخلت الشبهة فى مثل ذلك على قوم ضعفاء العقول من أهل الدعوة لما ألقى إليهم أ الجنة مثل على الدعوة ، والنار على الظاهر والتقليد ، وقالوا : ها هى الجنة والنار حاضرتان وما هنالك شيء مغيب فضلوا وأضلوا . والدعوة على ما هى به من كونها تضر فى الدنيا ولاتنفع لمقت الناس لها وبغضهم لأهلها أشبه بالنار منها بالجنة . وأهل الدعوة إن كانوا من المؤمنين فقد قطع النبى ﷺ عليهم فقال : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » والسجن لا يكون جنة . وقال : « الموت ريحانة المؤمن » ، وإن كانوا أتباع الأئمة عليه السلام فقد قال الصادقون منهم : أعظم الناس امتحانا وبلاء فى هذه الدنيا الأنبياء ثم المؤمنون ، الأول فالأول والأفضل فالأفضل ، وقالوا : ما كرم عبد عند الله إلا زاد عليه البلاء .

وإنما قيل لهم : هى الجنة (١) ، لأنها جنة بالقوة ، تؤدى إلى جنة بالفعل ، كالإنسان الذى لايمكن أن يكون موجوداً فى الأرض ما لم يصح له وجود فى ظلمات ثلاث ، كما قال الله تعالى ، « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث »(٢) .

فلا تغروا بالأباطيل نفوسكم ، واجعلوا الدين والتقوى لبوسكم . واطلبوا الشيء من حيث يصح ، لا من حيث لا يصح ، واسعوا السعى الذى محصوله النجح واعلموا أن موضوع العلم كله هو التزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الأخرى . قال رسول الله ﷺ من أحب الدنيا ذهب حب الآخرة من قلبه ، وما آتى الله عبدا علما

(١) أى الدعوة .

(٢) سورة الزمر : ٦ .

علما فازداد للدنيا حبا إلا ازداد اللّه عليه غضبا » .

وإذ قد استوفينا هذه النوبة فنحن نقيم دليل العقل على أنه لا تصح النشأة الصالحة من اعتقاد الناصبة المقصرين ، ولا من اعتقاد الغلاة المفرطين . وأن الصور الصالحة لا تقوم إلا من اعتقاد الوسط من بينهما ، كما قال اللّه تعالى . «وكذلك جعلناكم أمة وسطا [1] » فنقول : « إن اللّه جل اسمه خلق هذا العالم لإنشاء الخليقة ، وهو على كونه مخلوقاً لذلك ، غير مخرج لصور النبات والحيوان بتة فى الطرف الذى يكون فيه للبرد غلبة مفرطة وسلطان قاهر ، ولا فى الطرف الذى يكون فيه للحر كذلك غلبة مفرطة وسلطان قاهر ، ووجدنا ظهور النبات والحيوان فى الوسط الذى هو حد الاعتدال ، وما يقرب من الاعتدال ، ووجدنا الإنسان المسمى بلسان أهل الحكمة « العالم الصغير » لاتتولد منه المواليد الطبيعية فى طرف الطفولية ولا فى طرف الهرم والشيخوخة ، ووجدنا تولد المواليد فى الوسط الذى هو حد الاعتدال ، وما يقع بالقرب منه .

ولما كانت الصورة هذه علمنا أن الصورة الصالحة التى هى مواليد الدين للدار الباقية ، لا يصح وجودها من الطرف الذى يكون فيه ظاهر فرد هو بمنزلة الطرف الذى فيه برد فى طبع الموت ، مما يدين به الناصبة المقصرون ، ولا من الطرف الذى فيه باطن فرد هو بمنزلة السمائم المحرقة مما يدين به الغلاة المفرطون ، وأن الوسط الذى هو مركز الاعتدال بإقامة الظاهر على حده وحكمه ، الباطن على حده وحكمه من غير تقصير ولا غلو ، مركز ظهور المواليد الدينية

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

والصور الملكوتية ، « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون [1] » . قال رسول اللّه ﷺ : « حمل هذا العلم من كل خيف عدو له ، ينفون عنه تحريف الجاهلين ، وانتحال المبطلين، وتأويل الغالين » [2] .

(١) سور البقرة : ٨٢ ، الأعراف : ٤٢ ، يونس : ٢٦ ، هود : ٢٣ .

(٢) ورد فى صحيح البخارى .

وروى لكم قول رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له .. إلخ » وهم الذين أقامهم الله سبحانه للتعديل بين الظاهر والباطن والدعاء إليهما ، والبعث عليهما ، واعتقادهما عملا وعلما . وكل منهما يؤكد صاحبه ويثبته ويؤيده ، وفق خلق الله سبحانه الجسد والروح مقرونين ، فمن اعتقد أن الباطن قواما دون الظاهر ، والعلم قبولا من دون العمل كان كمن أوجب الروح قواما من دون الجسد ، وقد أعظم المكابرة ودفع العيان . والله جل اسمه يقول: « إليه يصعد الكلم الطيب (1)» فالكلم الطيب النفس المتجوهرة بمعرفة كلمة الإخلاص وعلم الحقائق ، والعمل الصالح هو الطهارة والصلاة والزكاة وإقامة أركان الدين بكمالها . وإن الذى يبغى تغيير شىء من قواعد الدين ليبغى مالا يستطيعه ، فلا سبيل إلى قطع ما وصله الله من سبب ظاهر بباطن ، وباطن بظاهر ، إذ كانت هذه الأوضاع كمثل الأوضاع المحسوسة المشاهدة ، من كون الأرض أصل النبات ، وهى الحاملة له ، وبها وجوده ، فكيف يقطعونه عنها ؟ والنبات حامل للحيوان ، وبه وجوده ، فكيف يقطعونه عنه والحياة حاملة للنطق ، فكيف يقطعونه عنها والنطق حامل للعقل ، فكيف يقطعونه عنه ؟ فهل صدر عقل إلا من حيث صدر نطق ؟ وهل نطق إلا من حيث حصلت حياة ؟ وهل صدرت حياة إلا من حيث حصل غذاء ونبات ؟ وهل وجد نبات إلا عن أرض هى المستقر والنهاية ؟ فعلى هذا ترتيب الدين جار ، والنهاية إلى مستقر هو حامل الكل فى دار الطبيعة ، ونهاية النهايات التى يكنى عنها بالوحدة فى عالم العقل .

---

(1) سورة فاطر : ١٠ .

وكنا سقنا في أحد المجالس المتقدمة قول رسول الله ﷺ : القدرية مجوس هذه الأمة ، والرافضة نصارى هذه الأمة ، والمرجئة يهود هذه الأمة ، وقلنا إن المخالفين وسموا شيعة الحق بالرفض ، وثبتوة عليه ، وشرطنا أن نورد في ذلك ما ينفي هذه السمة عمن لا يستحقها . ونلحقها بمن هو أحق بها وأهلها فنقول : إن النبي ﷺ ما وضع الشبه في هذه الفرق الثلاث من أمته إلا مواضعه [1] ، وحيث يستحقه ، ووجدنا كل طائفة من طوائف الإسلام تنفي هذه السمات عن نفوسها كنفي الشيعة عن نفوسها سمة الرفض وكونها رافضة . فلا ملتزم لشيء من ذلك ولا راض به ولا معترف .

ولما كان الأمر على هذه ، رجعنا إلى اعتبار مذهب المجوس . ونظرنا في أصل اعتقادهم ، فإذا هم يقولون بالنور والظلمة ، ويعتقدون أن الله جل أسمه يريد الخير ولا يريد الشر ، وأن ضدا يهدم ما بناه ، ويفسد ما أصلحه ، وتأملنا من أشبه الناس بهم من هذه الأمة ، ومن الذي يوافق قوله قولهم فوجدناهم المعتزلة لأنهم من حيث يتطلبون أن ينسبوا العدل إليه ، يجعلون كل من يتبع الهوى اضدادا له ، ويقولون: إن الناس قادرون على فعل ما لا يريد الله ، ويدفعون آيات القرآن من قول الله تعالى . « ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها وقوله : « فمن يرد اللهّ أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » . وقوله تعالى حكاية عن نوح : « ولاينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم »[2]، وأمثال ذلك بحجج يخترعونها ، وتأويلات يعلمونها . فصاراهم فيها

(١) سورة الأنعام : ١٢٥ .

(٢) سورة هود : ٣٤ .

السقوط عن حد التنزيل ، والخروج عن حكم القرآن ، ولما ثبت هذا كله وجدنا اسم القدرية ملتاطا بهم ، وكناية النبى ﷺ عنهم بالمجوسية مستقرة لديهم .

وتأملنا حال اليهود ، فإذا هم أوسع الناس شراً ، وأكثرهم غيلة وخبثا ، والنبى ﷺ إيذاء وإعدانا ، ولرسالته ردا ، وقد كان اسم النبى ﷺ فى التوارة ثابتا ، وحق نبوته مؤكدا ، فمحوا من التوارة اسمه ، وجحدوا حقه ، وتأملنا شبههم من هذه الأمة فوجدنا قوما أخروا عليا عليه السلام عن مقام الوصاية كما أخر اليهود النبى ﷺ عن مقام الرسالة فاستحقوا به الإرجاء ، واعتمدوا من المكر والخديعة به مثل ما اعتمدوا اليهود مع النبى ﷺ ، فكما أن اسم النبى ﷺ كان ثابتا فى التوارة فمحوه ، وحقه مؤكدا فدفعوه ، فكذلك كانت ولاية على عليه السلام أكد الفرائض فى الشريعة ، فمحوها منها ، وحقه آكد الحقوق فدفعوه ، فإذا الاسم لهم لازم ، فهم المرجئة ، وهم يهود هذه الأمة .

وتأملنا حال النصارى ، وبحثنا عن اعتقادهم ، فإذا هم يدينون بآلهية البشر فى أصل الاعتقاد وان اختلفوا فى الفروع ، ونظرنا من يشبههم من هذه الأمة فإذا هو الغلاة الذين يدينون مثلهم بالهية البشر ، فمنهم من يغلو فى على عليه السلام وحده ، ويجعل النبى ﷺ رسوله ، ومنهم من يغلو فيهما جميعا ، ولكن يقدم عليا وهؤلاء يسمون العينية ، ومنهم من يقدم محمدا ﷺ ، وهؤلاء يسمون الميمية ومنهم من يقول بالهية محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام ويراهم شيئا واحدا ، كما أن النصارى يرون الثلاثة واحدا ، والواحد ثلاثة ، وهؤلاء يسمون المخسمة . فهذه الفرق على إختلافها هى نصارى هذه الأمة ، وسمة الرفض لازمة

لهم لزوم القلادة للعنق ، وشيعة الحق منزهون عن سماتهم وأوصافهم بحمد الله ومنه .

لقد اسمعكم – لو سمعتم – مانجيكم ، وهداكم – لو أطعتم – لما يجيئكم «ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم [(١)] ، فليت شعرى متى كان النبى ﷺ للأموات داعيا ، ولاستجابتهم مراعيا ، وأنى يجد الميت أذنا سميعة ، وقلبا واعيا . ولقد صح أن الميت بالحقيقة من طوى دون تفهم هذه الأمور كشحا ، وضرب الذكر عنها صفحا ، فاللّه اللهّ أن تقتصروا من ميسم الإنسانية على هياكلها، وإزاحة العلة فى مشاربها ومآكلها ، وتغفلوا عن مواقع دررها وجواهرها ، ومنابع عجائبها وبواهرها . وكونوا مع الدنيا كما قال المسيح عليه السلام « الدنيا معبر ، فاعبروها ، ولاتعمروها ، وكما قال عليه السلام . « إن الدنيا اعترضت له فى صورة امرأة حسناء عليها حليا وحللها ، فقال لها المسيح . من أنت ؟ فقالت : أنا الدنيا ، فقال . ما هذه الخرق التى عليك ؟ قالت . هى زخارفى أغربها أزواجى وخطابى . فقال المسيح . تأملى . هل أنا من أزواجك وخطابك ؟ قالت . لا ، ولكن ما تتسفى من نظرة والتفاتة . قال المسيح . إن كنت من أزواجك فقد طلقتك ثلاثا، وقد كنا سقنا فى ذكر على عليه السلام وقوله الدنيا : يادنيا قد طلقتك ثلاثا ، وقوع التشبيه له بالمسيح عليه السلام من هذه الجهة وغيرها ماعرفتموه . ونحن نورد فى مثل ذلك فصلا آخر ينفع اللّه به سامعيه ، ويجعل الرجس فى قلوب آخذيه على غير جهه ومتأوليه على غير الواجب من معانيه ، فنقول :

إنه اختلفت الأقاويل فى على عليه السلام كمثل إختلافها فى المسيح عليه السلام : قالت النصارى : هو اللهّ وابن اللّه – تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، وقال

---

(١) سورة الأنفال : ٢٤ .

المسلمون هو رسول الله ، وهو الكلام الحق ، وقالت اليهود : هو ولد الزنا ، واختلف الناس فى على عليه السلام فقالت الغلاة : هو الله شبيه قول النصارى فى المسيح عليه السلام تعالى الله عن قولهم – وقالت الأمة الوسط الذين هم الأئمة وشيعتهم المؤمنون : هو وصى رسول الله ﷺ شبيه قول المسلمين فى المسيح عليه السلام . وقالت يهود هذه الأمة وهم المرجئة الذين قدمنا ذكرهم فى المجلس المتقدم : إن عليا عليه السلام ما كان وارثا لمقام محمد ﷺ ولا مستحقا للقعود فى مقعدة ، فحرموه تراث النبوة كما يحرم ولد الزانا تراث أبيه .

وقد جاء فى الخبر أنه لاصيام لمن عصى الإمام ، ولا صيام لعبد آبق حتى يرجع ، ولا صيام لولد عاق حتى يبر ، ولا صيام لامرأة ناشزة حتى تتوب ». واعلموا أن ظاهر موضوع صوم هذا الشهر حسن ، فضلا عن معناه ، وأن على قواعد الحكمة وقوانينها تأسيسه ومبناه ، وذلك أنه لما كانت العلة في بعث الله سبحانه الأنبياء عليه السلام أن ينزعوا الناس عن العادات البهيمية ، ويعوضوهم عنها بالشمائل الملكوتية ليتوفاهم الملائكة طيبين ، ويلحقوا بدرجات المقربين ، وكان من عادات البهائم أن لا يحجزها عن أكلها وشربها وقت من الأوقات إلا عند عوارض الفقر والضرورات - جاء أصحاب الشرائع عليه السلام بالصوم الذى هو سد الأفواه وقتا معلوما دون مشربها ومأكلها ، منافاة البهائم ، وعدو لا عن سبيلها .

ثم إذا رجع بذلك إلى الحكمة التأويلية والمقادير العقلية سرحت النفوس فى روضة النعيم ، وفازت بحظ الخير الجسيم ، وذلك لأن فريضة الصوم هى فى شهر رمضان الذى هو تاسع شهور السنة ، والتسعة نهاية الآحاد ، ويبقى بعدها العشرات والمئون والألوف من الأعداد . فشهر رمضان بكونه نهاية الآحاد مضمار لمعرفة التوحيد ، ويبقى بعده من السنة ثلاثة أشهر بإزاء باقى الحساب ، وهو ثلاثة عقود ، فيكون باستيفائها تكملة الحساب ، وكمال معرفة الحدود ، قال اللهّ تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق [١] » .

(١) سورة : يونس .

فافتحوا أيها المؤمنون أبصاركم للمعارف الملكوتية ، لتكونوا ممن قضى فرض الصيام والقيام ، وتتجوهروا بجوهر الملائكة الكرام ، فتغنموا أيام المهلة ، لآخذ الزاد ، والاستعداد لما تفوزون به فى المعاد ، واشكروا الله تعالى نعمه فيما هداكم له من قصد السبيل ، ووجود الدليل . فأنتم المناجون منه سبحانه فى كتابه ، الداخلون البيت من بابه والموفون لله بعهود الديانة ، والحافظون لما ضيعه ركاب الهوى من الأمانة فى قوله جل جلاله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها [1] » .

فياغشاوة مدت على بصر من لايتدبر فحوى هذه الآية حق التدبر ، ولايتفكر فى معناها واجب التفكر . من الذى جهل فيما مضى من الأزمنة وغابرها ، وغائب الأوقات وحاضرها أن الأبواب على البيوت من أجل الدخول فيها منصوبة ، وإليه على علاته منسوبة ؟ فما وجه تأديب الله سبحانه لخلقه بشيء يتساوى فى علمه العالم والجاهل والغنى والفقير من البصيرة ، لولا أن سبحانه عنى بالبيت غير المبنى من الطين والحجارة ، وكنى عن سواه بهذه الكناية والإشارة ؟ ولم لا يكون هذا البيت بيت اللهَ الحى الناطق الذى به أغاث سبحانه الخلائق ، وهو رسول الله ﷺ فى عصره باديا ، وكل إمام فى زمانه ثانياً بيوت الله المعمورة بالحكم ، ومعالم الله التى هى منجاة الأمم ؟ ولم لا يكون باب ذلك البيت أمير المؤمنين الذى هو باب النجاة وسبب دائم الحياة ؟ فعند ذلك تخلص من الآية المذكورة الزبدة ، وتسقط عنها فى النقص إذا حملت على جهة ظاهرها العهدة ، ويكون كلام رسول الله ﷺ

(١) سورة البقرة : ١٨٩ .

عليها دليلا ، وبما تكلفت به كفيلا : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم في المدينة فليأت الباب ، ويكون أيضاً لفظ البارى سبحانه فى ضمن الآية بالبر فى أولها ، والتقوى فى أوسطها واقعاً موقعه من الصواب ، غير مالا تعلق لهما أمر البيت الجماد والباب . إذا كان أفضل ما يكون البر بر الوالدين ، والنبى ﷺ والوصى عليه السلام والدا الدين . قال رسول الله ﷺ : « أنا وأنت ياعلى أبو المؤمنين» . وأصل التقوى منهما ، وهما غاية المتقين . وقال بعض الأئمة الصادقين عليه السلام : التقية دينى ودين آبائى ، ولا دين لمن لا تقية له .

فاعرفوا أيها المؤمنون مواقع الرموز ، وقد كشف لكم عن خبايا الكنوز . وإذا انتهتم إلى هذا الحد فاذكروا من قول رسول الله ﷺ كائن فى أمتى ما كان فى بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، والقذه بالقذه ، ما هو أكبر الحجاج . وأعلموا أن الأمور جارية فى دوركم هذا على ذلك المنهاج . فان الله سبحانه « وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ... إلى قوله تعالى «يفسقون» (١) .

قال المفسرون : إن قوم موسى عليه السلام امتحنوا بباب نصب لهم ، ليدخلوه سجدا ، ويقولوا حطة ، وإن الظالمين منهم بدلوا قولا غير الذى قيل لهم من قوله « حطة ، وفعلا غير الذى أمروا به من دخول الباب سجدا ، وذلك أنهم ولوه أدبارهم . فشرح الحال بمثل ما تقدم حاصل عندكم فى وجه التأويل بوجيز من

---

(١) سورة البقرة : ٥٨ ، ٥٩ .

القول يغنى عن التطويل ، فى حديث البيت والباب ، وتصرفهما على مقتضى ما قدمناه من الخطاب ، وأن القوم أمروا بالانحطاط فتكبروا ، وبتولية وجوههم نحو الباب فأدبروا ، وظلموا أنفسهم فخابوا وخسروا .

زعم الزاعمون أن شهر رمضان يتم تارة وينقص أخرى ، وأن صيامه مبنى على رؤية الهلال ، واحتجوا بقول النبى ﷺ : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين » . وهذا القول فاسد من عدة وجوه ، نحن نذكرها ، ونقيم الأدلة على كون شهر رمضان كاملاً أبد ، لايعتريه النقص بحال من الأحوال .

ونبدأ بالرد على من يحتج بالخبر : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » فنقول : إنكم معترفون بكون مقتضى هذا الخبر أن رسول الله ﷺ أراد التوجه فى بعض الغزوات فى القرب من شهر رمضان ، فاجتمع إليه أصحابه ، فقالوا : يارسول الله : كنا نصوم بصومك ، ونفطر بإفطارك ، فكيف يجرى حالنا فى غيبتك، فقال رسول الله ﷺ : صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فقد دل حيز الخبر على وجوب الصوم بصوم الرسول إذا كان حاضرا أو من يقوم مقامه إذا كان غائباً ، ووجوب الفطر بإفطاره ، وأن الصوم على رؤيته الهلال من قضايا الضرورة ، فى حين عدم الرسول أو الإمام الذى يقوم مقامه . فإذا كان الرسول حاضراً ، أو الإمام حاضراً كان قانون الفرض أن يصام بصومه ، ويفطر بإفطاره ، كما قال القوم للنبى ﷺ كنا نصوم بصومك ، ونفطر بإفطارك .

وأما قول من قال : إن النبى ﷺ كان يصوم برؤيته الهلال فهو فاسد من ثلاثة أوجه : وجهان منها شرعيان ، ووجه عقلى . فأما أحد الوجهين : فمعلوم أن النبى ﷺ كان يقول . وهو صادق . إن الروح الأمين جبرائيل عليه السلام يغشاه بكرة وعشيا بالوحى والقرآن الكريم ، ومن كان جبرائيل يأتيه بكرة وعشيا بأخبار

السماء فلا حاجة به إلى أن يقلب وجهه فيها يطلب الهلال وعنده من يأتيه بالخبر اليقين . ولو أنه برز إلى السماء يطلب هلالا لكان تعليلا لقوله : إنه يهبط عليه جبريل عليه السلام . وكان يقال له : هلا سألته عن ذلك ، فغنيت به عن الطلب . والوجه الآخر أنه مأثور عنه ﷺ فى الأخبار أنه قال : « أنا بطرقات السماء أعرف منكم بطرقات الأرض ، فلو أنه بعد هذا القول شوهد يطلب هلالا لقيل له : فأين قولك بالأمس : إنك بطرقات السماء أعرف منا بطرقات الأرض ؟

وأما الوجه العقلى فمعلوم أن النبى ﷺ منزه أن يخفى عليه من حال الاختلاف فى مطالع الأهلة ومرائها مالا يكاد يخفى على منجم ، وأن أوضاع الأرض أيضاً مختلفة ، فمنها مرتفع يقضى بأن تكون رؤية الهلال أسرع مثل رءوس الجبال وما يجرى مجراها ، ومنها مستقل يقضى بأن تكون الرؤية فيه أبطأ وإذا كان معلوما من حاله ﷺ أن ذلك ممالا يخفى عليه ، فلو خفى لكان عليه أكبر نقيصة ، وحاشاه عن النقائص ، فكيف يوجب العقل مع معرفته باختلاف المرائى أن يفرض الصوم المتعلقة بفريضة الحج على الناس كافة على بينة واحدة ، وهو يعلم أنها لاتصح ، لأن قوما يرون فى ليلة ما ، وقوماً لا يرون ، ثم لايصح أن يوماً واحداً يكون من شعبان حيث لا يرى ومن رمضان حيث يرى أو رمضان حيث لايرى ، وشوال حيث يرى . هذا مما لا يشك فيه عاقل ، ولا يدفعه إلا جاهل.

وسوى هذا فقد قال الله سبحانه فى محكم كتابه : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون [1] ، والذين من قبلكم مشار به إلى

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣ .

النصارى ، وصيامهم غير متعلق بالرؤية ، بل بالحساب . ثم قال الله سبحانه تأكيدا . « أياماً معدات » والأيام المعدودات هى التى لا تزال معدودة لايحتاج فيها إلى رؤية ولا نظر ، فلو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تارة وتارة تسعة وعشرين لما قال . « أياما معدودات » قطعا وهى مثل قول القائل : « هذا حساب محسوب . وهذه دراهم معدودة » . وقول آخر ، لما كان موضوع السنة أن تكون ستة أشهر منها كاملة ، وستة أشهر ناقصة . وجب أن يكون أصلها وبناؤها موضوعا على الكمال دون النقص ، فالشهر الأول الذى هو المحرم كامل وصفر ناقص ، وربيع الأول كامل وربيع الآخر ناقص ، وجمادى الأولى كامل ، وجمادى الآخر ناقص ، ورجب كامل وشعبان ناقص ، وشهر رمضان كامل . قال النبى ﷺ : « ما تم شعبان ولانقص رمضان (١) » .

والدليل على نقص شعبان ليلة النصف منه ، ولا نصف لرجب ولا شهر رمضان وذلك أن ليلة النصف من شعبان ليلة الخامس عشر منه ، وهذه الليلة ليلة النصف بالحقيقة ، لكون أربعة عشر قدامها ، وأربعة عشر خلفها ، وهى فى النصف ، ولايكاد يصح ذلك فى شهر رمضان ، لأنه إن جعلت ليلة الخامس عشر منه النصف لم يصح ، فقد بقى فى الشهر ستة عشر يوما ، – وإن جعلت ليلة السادس عشر لم يصح ، فليس السادس عشر نصف الثلاثين .

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

ومما يدل على كمال شهر رمضان أيضا موضوع أمر الكفارات على من أفطر فيه يوما متعمداً ، وهو أن يصوم شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وهو مثلا شهر رمضان – ستين يوما ، فإن لم يستطيع فإطعام ستين مسكينا . ولو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تسعة وعشرين يوما لاحتمل أن تكون الكفارة إطعام ستين مسكينا ، أو ثمانية وخمسين مسكينا .

ثم أعلموا أنه ما استفتح مستفتح كتابا بأحسن من « بسم الله الرحمن الرحيم » فاتحة ، ولاترجم بأشرف منه ترجمة . وقد كانت للأمم المتقدمة على اختلافها فواتح يستفتحون بها كتبهم ، فعفت هذه الفاتحة الجميلة على آثارها ، وزادت عليها بحسنها وبهجتها وجمالها ، حتى أذعنوا لها ، وأقروا بفضلها ، إلا من طبع الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

وللأئمة من أهل البيت في الجهر بها في كل صلاة يجهر فيها بالقراءة مذهب ضيقوا مذاهب العذر في تركه ، والمسامحة في التسمح به . وقد خالفهم في ذلك فريق من المسلمين فأخفتوا القول بها في صلاتهم ، وأخفوها في قراءتهم ، بخير رووه عن النبي ﷺ أن « بسم الله الرحمن الرحيم » كانت آية من كتاب الله سبحانه فسرقها الشيطان . ونص هذا الخبر وظاهره يقتضي ضد ما هم عليه من المخافتة بها ، إذ كانت المخافتة بها تأكيداً لأمر الشيطان ، ورضاء بسرقته ، ونزولا عند حده وحكمه ، وكان الجهر بها خروجا عن طاعته ، وهتكا لستره ، ودفعا في صدره ، وإظهاراً لفضيحته .

وبعد . فإنا نقول : ياعظم ما لحق جهال الأمة من العاهة في عقولها ، ويابعد المسافة بينها وبين صحيح فكرتها ورويتها أما يفكرون كيف تكون طريق السرقة من الشيطان للقرآن ؟

أما يتلون قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون [١] » ؟ وإن كان له

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

طريق للسرقة ، فكيف لم يسرق إلا هذه الآية وحدها ؟ وأى عداوة كانت بينه وبينها من دون القرآن كله ؟ وإن كان سرقها ، فلم نراها مثبتة فى أوائل السور على جهتها ، غير ممحوة ولا مطموسة ؟ « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وإذ قد استوفينا هذه النوبة فى ذكر الصدأ الذى طبق مرايا أفكارهم ، وستر العمى المسبل على بصائرهم وأبصارهم ، فنقول : إن الأضداد وضعوا هذه الأوضاع على غير بصيرة ، وحرفوا الكلم عن مواضعه عن مخبرة . وإنهم كما قال الله تعالى فى محكم كتابه : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » [١] وقصدوا بفعلهم هذا وأمثاله اللبس على العامة العامية المساكين ، إحكاما لمبانى رياستهم ، وقصدا للحول بينها [٢] وبين مستحقها من أهل بيت نبيهم .

ولما كان لكل شىء باب ومدخل وفاتحة ، وكان المدخل إلى القرآن من « بسم الله الرحمن الرحيم » التى هى أسماء الله تعالى ، وكانت الأسماء أعلاما يتوصل بها إلى المسمى . والأسماء على ضربين : أسماء مهجاة مؤلفة من حروف يكتبها الكاتب ويمحوها ، وأسماء حية ناطقة عاقلة شريفة مثل الأنبياء والأوصياء الأئمة المعصومين الذين هم أعلام الآخرة ، وأدلة التوحيد ، والواسطة بين العبد والمعبود

---

(١) سورة البقرة آية رقم « ٧٥ » .

(٢) أى بين الرئاسة وبين مستحقها .

قال الله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه » [1] . يعنى ، اطلبوا الوصول إلى توحيده من جهة أسمائه .

والإلحاد مأخوذ من لحد القبر ، وذلك أن القبر يحفر عن خط الاستواء ، فإذا وصل إلى موضع اللحد عدل عن الاستواء ، فشق اللحد عن جانب ، فمن دخل فى الشريعة دخل فى خط الاستواء ، ثم إذا زاغ عن مراتب الوصاية والإمامة واعتقادهما والتدين بهما ألحد . ولما كانت الصورة هذه كانت ولاية الوصى والأئمة الباب والمدخل إلى تحقيق الشريعة المؤدى إلى النجاة الأبدية ، فسرقها الشيطان ، يعنى أهانها ، وأبطل فرضها ، وصغر فى نفوس نواقص الناس أمرها .

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

واعلموا أن الله سبحانه أنزل القرآن كتاباً محكماً ، وجعل سورة الحمد بين سوره بالفضل علما ، فسماها « أم الكتاب » . وفحوى هذا اللفظ أن الكتاب منها مولد ، ونوره من أنوارها مستوقد . وهو على التقدير إنجيل ، لأنه ورد في الخبر أن أصله كان أربع كلمات علمها المسيح أربعة من الحواريين ، فنجلوا منها الكلم ، فسمى الكتاب إنجيلا ، وهو إفعيل من النجل .

ومن فضائل سورة الحمد التى هى أم الكتاب ، على ما قدمنا ذكره أن الصلاة لاتتم إلا بها ، وأن قراءتها فى الصلاة تغنى بذاتها ، ولا تغنى قراءة باقى السور ما لم تكن مقرونة بها ، وقد عظم الله تعالى فى كتابه قدرها ، وامتن على رسوله ﷺ بمكانها ، فقال : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم (١) » . وقيل إنما سميت بذلك لأنها سبع آيات تثنى فى كل ركعتى صلاة . وهذه أمثال لها ممثولات عقلية ، وتحتها أسرار خفية ، يحتاج إلى البحث عنها ، إذ كان معلوما أن سور الكتاب كلها من حيث كونها تنزيلا من رب العالمن شريفة جليلة ، وما لاختصاص هذه الآيات السبع بهذه الرتبة معنى ، لو لم تكن مشاراً بها إلى أمر لازم حكمه . مؤد إلى النجاة علمه . ومما ورد فى الخبر عن النبى ﷺ أن له يوم القيامة لواء يعقد على رأسه يسمى لواء الحمد ، مشدودة فيه سبع مشاد ، طول الواحد منها مسافة ما بين المشرق إلى المغرب .

فأما القول فى الحمد لله رب العالمين فله معنى يدق عن الوصول إلى سنابرق منه ، وهو أنه يلزم أن يكون أول ما أبدعه الله سبحانه إبداعاً كاملاً ،

---

(١) سورة الحجر : ٨٧ .

لانقص فيه بحال من الأحوال ، إذ كان ممتنعا أن يكون الصادر إلى الوجود عن الحق سبحانه بغير واسطة إلا كاملا ، وما كان كاملا كان حكمه حكم السكون ، إذ كانت الحركة لا تحدث إلا بحدوث الحاجة ، وإذا لم تكن حاجة لم تكن حركة . ولما كان الأمر على هذه النسبة ، وكان من أبدعه الله كاملا لا نقص فيه ، غنيا عن حركة الناقص المحتاج إلى التمام ، وهو على تقريب اللفظ للسامعين المعنى المسمى بلسان الشرع القلم: الذى ورد الخبر فيه إن الله أمره أن يكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ووجدنا بعد ذلك الأفعال صادرة إلى الوجود بوساطته والأفعال لاتصدر إلا عن حركة ، والحركة لاتكون إلا عن حاجة ك وأوردنا أن هناك الكمال ولا حاجة هناك ، حكمنا بكون هذه الحركة لا حركة النقص والاستزادة ، بل حركة الشكر لمن أنعم بالكمال .

ونحن نضرب مثلا فى ذلك من مشاهد ما عندنا ، يستدل به على ما مغيب عنا فنقول : إن النبى ﷺ محله فى دوره من دار الدنيا محل أول مبدع من الله سبحانه فى عالم الإبداع ، ولما أجهد نفسه بالعبادة والتهجد حتى ورمت قدماه ، قيل له : ألم تعلم أن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما وجه هذا الشقاء بالعبادة ؟ فقال ﷺ . أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ، فدل على أن مقاصده شكر المنعم عليه بكماله فى جنس البشر ، لا لنقص يتوخى إزالته ، ولما كان هذا أصلا ، وجب أن يقال . « الحمد لله رب العالمين » يعنى أن الحمد لمن قامت العوالم كلها بحمده ، وهى عالم الملائكة ، وعالم الأجرام العلوية ، وعالم الطبيعة المنقسم إلى عوالم شتى ، وذلك لأن الإنس عالم ، والجن عالم ، والطير عالم ، والوحش عالم ، والسباع عالم ، وحيوان البحر عالم ، وبمجموع ذلك يقال . الحمد لله رب

العالمين ، القائمة هذه العوالم كلها بمحمده ، المستندة فى وجودها إلى كمال المبدع ومجده .

وأما القول فى ، الرحمن الرحيم ، فأن موضوع الكلمتين من حيث الرحمة واحد ، غير أن الفرق بينهما على ما يؤثر أن ، الرحمن ، من إذا رحم غير ، و ،الرحيم ، من يرحم فربما غير أو لم يغير . و ، الرحمن ، خاص من الاسم لا شركة فيه . والرحيم مشترك .

وأما القول . ، مالك يومى الدين ، يعنى يوم الجزاء ، فالمعنى أن ارتباط الآخر بالأول وهو العلة المطلقة . والآخر هو المعلول المطلق . فإذا استقام الكلام . وترتب إلى هذا الحد . نطقت المخترعات والمخلوقات بلسان واحد : ، إياك نعبد وإياك نستعين ، من حيث تعلق الجميع بالموجود الأول ، قيامه به ، واستناده إليه . وحياته به .

اهدنا الصراط المستقيم ، أن يتعلق كل حد سافل بحد فوقه عال من حيث أن قيامه به ، وهو سناد وجوده .

، صراط الذين أنعمت عليهم ، . وهو النعيم المسئول عنه المطرد ذكره فى شأن المسيح عليه السلام بقول الله تعالى . ، إن هو الا عبد أنعمنا عليه [1] ، . وفى شأن مسبح هذه الأمة لما نزل فيه . ، اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى

---

(١) سورة الزخرف : ٩ .

ورضيت الإسلام دينا [1] » .

« غير المغضوب عليهم » قالوا . هم اليهود . قلنا . أجل . ويهود هذه الأمة «ولا الضالين » . قالوا . هم النصارى . قلنا . أجل . ونصارى هذه الأمة .

---

(١) سورة المائدة : ٣٠ .

قوله سبحانه « الم » . قال المفسرون من أهل الظاهر : إنه قسم من الله سبحانه بنفسه وبجبريل وبمحمد ﷺ أن كتابه الذى هو القرآن « لا ريب فيه » قالوا . فالألف مأخوذ من « الله » واللام مأخوذ من « جبريل » والميم مأخوذ من « محمد » ﷺ . وهذا القول من إنكارهم التأويل أخذ الله بنواصيهم إليه وهجم بهم ضرورة عليه .

وقوله : « ذلك الكتاب ، لا ريب فيه » قالوا : عنى به القرآن ، ثم لم يأتوا بوجه العلة فى قوله « ذلك الكتاب » ولم يقل . هذا الكتاب ؟ ولو قال كان أشبه بالصواب ، إذ كان النص به على القرآن الذى هو حاضر ، عنه يتكلم ، وإليه يشار . وإنما يقال « ذلك » للغائب دون الحاضر . ومهما كانت الصورة هذه اقتضى ذلك معنى غير ما نحوا إليه . وسوى ذلك فإنه إن كان القوم المخاطبون بكون الكتاب لاريب فيه الكفار ، لم يردهم إقسامه بهذه الحروف التى لايعرفون وجهها ومعناها مؤمنين ، وبالكتاب مصدقين . وإن كانوا مؤمنين ، كان القسم بما تحقق فى نفوسهم صدقه وحقه فضلا . فإذا اعتبر ذلك على المعنى الذى قام فى نفوسهم دون الرجوع إلى من أمر الله سبحانه بالرد إليهم فى مثله إذ قال سبحانه : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » [(١)] دخل الخلل عليه من متفرق أبوابه ، وبقى الغرض فى سجفه وحجابه . فنقول : إن السبب الموجب تسمية الكتاب كتابا من حيث الظاهر المتعارف أنه كلمات وألفاظ جمع بعضها إلى بعض ، وفرق بعضها ببعض ، مؤدية معانى فى نفس الكتاب ، يعبر عنها بالكتاب ، فكذلك ، فإن كتاب الله سبحانه ألفاظ وكلمات تعبر عن مقاصد الله

---

(١) سورة النساء : ٨٣ .

سبحانه فى عبادة خلقه له ، وطاعتهم إياه ، وعما أعده للمطيعين من ثوابه ، وللعاصين من عقابه ، وإخبار عما كان فى أدوار الأنبياء عليه السلام والأمم الخالية، وما هو كائن إلى يوم القيامة .

والكتاب الذى ذكرنا أنه كتاب الله سبحانه ينقسم قسمين ، فمنه صامت ، وهو الذى بين الدفتين ، المتعلق بحروف الهجاء الموات ، ومنه ناطق ، وهو وصى رسول الله ﷺ القائم بتأدية معانيه ، وفتح مغالقه ، والمعبر عنه والمترجم دونه . وقد روت العامة فى معنى قول الله سبحانه :

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » [1] أن معناه حملة القرآن ، وحفظة معانيه من علمائهم . فاذا أجازوا هذه الرتبة لعلمائهم الذين ليس بينهم وبين رسول الله ﷺ قرابة ، ولا غير الإسلام عصبة ، كان على بن أبى طالب عليه السلام والأئمة من ذريته عليه وعليه السلام بكونهم أهل مذكر أحق وأولى ، إذ هم الكتاب الناطق الذى يحكم على الكتاب الصامت منه ، كما قال النبى ﷺ تصديقاً لذلك . «إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى[2] » الخبر المشهور .

وكما قلنا : إن الكتاب الصامت جامع لخبر ما كان ، وما يكون إلى يوم القيامة ، فقد روى كذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال وهو على المنبر : سلونى قبل أن تفقدونى ، سلونى عما كان ، وعما يكون إلى يوم القيامة . وورد فى

(١) سورة النحل : ٤٣ .

(٢) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

الخبر عن بعض الآئمة الصادقين عليهم السلام أنه قال : إن العلم الذى نزل به آدم عليه السلام وما فضل به النبيون فى خاتم النبيين وفى عترته الطاهرين . فأين يتاه بكم ، بل أين تذهبون ؟

وأما وجه قوله سبحانه : « ذلك الكتاب » الذى هو إخبار عن غائب ، وأنه لو كانت الإشارة إلى الكتاب الحاضر لكان قوله : هذا الكتاب أمس موقعا منه ، فهو تحقيق لما ذكرناه من وقوع الإشارة به إلى الكتاب الناطق الذى هو وصى رسول الله ﷺ تحقيقا لرتبة وصايته ، ونفيا لشبه المرتابين بعظيم حده ومنزلته ، وبمجموع الكتاب الصامت والناطق « هدى للمتقين » .

ونحن نورد عليكم من معنى قوله سبحانه! « الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة » ما نخرجه فى أسلوب ما تقدم، فينفع الله سبحانه بعلمه من علم. قال القائلون: إن الإيمان هو التصديق، واستدلوا عليه بقوله تعالى لابراهيم عليه السلام : أو لم تؤمن[1] ، يعنى أو لم تصدق، فقد يستحيل أن يكون إبراهيم إلا مؤمنا ، وقالوا: الغيب ما غاب عن الخلق، وإن معنى الإيمان بالغيب هو الإيمان بما غاب عنهم، ولم يروه من الله سبحانه وملائكة وجنته وناره وصراطه وحسابه، وجميع ذلك غيب، لأنهم لم يروه، وأن النبى ﷺ أخبرهم به فصدقوه فهذا معنى الإيمان بالغيب عندهم ونحن نقول: إنهم صدقوا فى وجه، وغلطوا فى وجه آخر. فأما قولهم: إن الإيمان بالغيب هو الإيمان بما لم تره العيون كا لله والملائكة والعرش والكرسى وغير ذلك مما تقدم ذكره فقد صدقوا فيه وأما ما غلطوا فيه فهو أن الذى دعا إليه النبى ﷺ وإن كان غيبا عند الحواس فليس بغيب عند العقول إذا نبهت عليه. فلو أنه ﷺ دعاهم إلى ما هو غيب عند الحواس، وغيب عند العقول لكانت دعوته باطلة، يدل على ذلك قول الله تعالى « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون[2]» فرد الشهادة بغيرة علم .

ونحن نأتى على شرح الحال فى الغيب المشار إليه ، كما يقع النفس ، وتكشف عن وجهه ستور اللبس بمشيئة الله وعونه ، فنقول بحول الله وقوته : إن النفس رمز فى الجسد ، وإن المعنى رمز فى اللفظ . ومعلوم أنه ما خلق الجسد إلا لذلك الرمز، ولا قام قائمة ، ولا استقامت حاله إلا به، وكذلك ما خلق اللفظ إلا لما

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٦ .

كمن فيه من رمز المعنى ، قال الله تعالى ! « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون [1] ، معناه ما يتعلق بالمعقولات . فالمؤمنون بالغيب هم المصدقون بتأويل القرآن الذى هو رمز فيه ، والقرآن موضوع من أجله ، ككون موضوع الجسد للنفس التى هى رمز فيه . ومعرفة تأويل القرآن تنقسم إلى : معرفة الآخرة والملائكة والحدود والروحانية والجسمانية ، ،ومعرفة المبدع سبحانه من حيث نفى التشبيه والتعطيل ، فكل ذلك داخل فى شرط الغيب لكونه غائبا عن الحس ، حاضرا فى العقل . فأما أن يقول النبى ﷺ : اعلموا أن ههنا آخرة وجنة وناراً ، ولا برهان له على ذلك فيقبلون ، فلا يكون للخبر عنه فضيلة ، ولا يصح من القابل قبول وتصديق .

ومعلوم أن الأنسان لا يبصر غيره ، وهو كذلك لا يبصر ببصيرة غيره . والنبى ﷺ سراج التى تتبصر ، كما أن الشمس سراج الأبصار الذى به تبصر . والسراج لا ينفع عند الأعمى المفقود البصر ، وكذلك إرشاد النبوة لاينفع عند أعمى العقل والبصيرة ، وكما أن بمجموع السراج والعين الصحيحة تبصر العين ، فبمجموع الرسالة والعقل يتبصر الصحيح العقل ، فإذا الإيمان بالغيب إرشاد الرسالة إلى ما هو غائب عن الحس عيانه ، شاهد فى العقل برهانه .

أما قوله سبحانه : « ويقيمون الصلاة كالسور المسور على مدينة فيها الخيرات والبركات ، ولها افتتاح يسمى تكبيرة الإحرام ، واختتام يسمى التسليم ، وبينهما

---

(١) سورة الروم : ٧ .

قراءة وركوع وسجود وتشهد ، وبمجموع هذه الأحوال كلها تسمى الصلاة صلاة وباطنها دعوة الحق ، التى هى سور مسور على معرفة الصلاة ظاهرها وباطنها دعوة الحق ، التى هى سور مسور على معرفة الصلاة ظاهرها وباطنها ، والصوم ظاهره وباطنه ، والحج ظاهره وباطنه ، ومعرفه توحيد الله سبحانه بغير تشبيه ولاتعطيل ، ومعرفة الحدود الروحانية والجسمانية ، والدعوة بازاء تكبيرة الإحرام من الصلاة المعاهدة ، وبازاء التسليم التسليم. فمن تعلق بها فهو من الذين يقيمون الصلاة ، ومن تخلف عنها لم ينتفع بصلاته .

وقوله سبحانه : « ومما رزقناهم ينفقون » الرزق رزقان : طبيعى، ينفق منه على أبناء الجنس من المقلين ليتماسكوا به ، ونفسانى هو العلم والحكمة ينفق على أبناء الجنس ممن تعلق بحبل الولاية ، ودخل فى جملة أهل المبايعة والمشايعة .

وقوله « والذين يؤمنون بما أنزل إليك . وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون » جمع بين المواقيت الثلاثة من حال وما من ومستقبل . « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هو المفلحون » .

ونحن نشفع ذلك بقوله سبحانه : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . المعنى فى ذلك من حيث الظاهر المتعارف منصرف إلى قوم ميئوس من إيمانهم ، مقطوع عليهم الحكم من الله سبحانه ، بكون الإنذار غير راد لهم عن كفرهم وعدوانهم . وموجب ظاهر لفظ الكفر ستر الشيء وكتمانه ، وكتمان الشيء لا يثبت إلا وقد ثبت عرفانه ، يدل على ذلك قول الله سبحانه :

« فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »[1] ، فإذا كانت الصورة هذه كان الخطاب فى معنى الآية منقسما قسمين : ظاهرا وباطنا .

فأما ظاهره فالمراد به الكفار من أهل الكتاب الذين هم شهدوا لمحمد ﷺ من كتابهم أعلامه ، وعرفوا من جهة أنبيائهم عليه السلام منزلته من الله سبحانه ومقامه ، فلما جاءهم جحدوا بفضله بعد المعرفة ، وأنكروا كونه ذلك النبى ﷺ المشهور الاسم عندهم والصفة .

وأما باطنه ، فالمراد به الكفار بولاية وصية أمير المؤمنين عليه السلام من أهل القرآن الجاحدون بها ، وهى عمدة الإيمان ، الذين شهدوا مقامه من النبى ﷺ ثم عندوا ، وأقروا بفضيلته يوم الغدير ، ثم جحدوا ، أسوة بمن درج على مثل كفرهم من أهل الكتاب ، الذين اشتبكوا بعد المعرفة بالنبى ﷺ بعلائق الشك فيه والارتياب ، وجروا فى التأول على نص النبى ﷺ بالوصاية بما يزيله ويفنيه مجرى الكافرين الذين قالوا : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه »[2] وقالوا فى قوله ﷺ : « من كنت مولاه فعلي مولاه » كل مقال ، وجالوا فيه لسلب الفضيلة التى لاسبيل إلى سلبها كل مجال ، تأولا للمولى على معنى الناصر تارة ، وأخرى على ابن العم . فكيفما صرفوا معناه من تأول الحمد فيه ، أو تأول الذم ، فلعلى عليه السلام منه ما للنبى ﷺ وعليه ما عليه فى سائر الأحكام .

---

(١) سورة البقرة : ٨٩ .

(٢) سورة البقرة : ٨٩

فظاهر الآية نعت الكافرين الذين هم على غير الملة ، وباطنها نعت من سار بسيرتهم من أهل القبلة ، كفرا بولاية وليهم ودليلهم ، وحجة الله عليهم بعد رسولهم ، الذين عرفوا سنن الأدوار المتقدمة فى اقتران الرسالة بالوصاية ، وعلموا أن بمجموعها وضوح نهج الهداية ، فبدلوا الله نعمة الله كفراً ، وعرضوا العرف نكرا ، حسداً لأصحاب المنازل على منازلهم ، وانسلاخا منهم عن طاعة شفعائهم إلى سبحانه ووسائلهم . فلما جاءهم ما عرفوا كفرا به ، فلعنة الله على الكافرين ، (١) .

وقوله سبحانه : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، النذير من ينذر بالشيء المهول قبل الوقوع فيه ، ومنه سمى النبى ﷺ نذيرا ، لإنذاره الناس ما غفلوا عنه من العذاب قبل ورود مهاويه . وسمى الشيب نذيرا ، كما قال الله تعالى : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير، قالوا عنى به الشيب ، لإنذاره بالموت الذى هو نازل فى دار الدنيا التى الشائب عنها راحل . فالمتطعم طعم الرياسة ممن آثر الحياة الدنيا ، واشترى دار الطبيعة التى هى السفلى، بدار الصفا التى هى العليا ، لا ينفعه الإنذار ، ولا يرده الإعذار .

---

(١) سورة البقرة . ٨٩ .

ونحن نتبع ما تقدم بما يليه من قول الله سبحانه فى صفة الكفار الذين حقت عليهم كلمة العذاب فى جهنم دار البوار : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم [١] ، فهذه الآية إذا حملت على جهة ظاهرها توسع الكفار عذرا ، وتحط اللائمة عنهم فيما ارتكبوه ضلالا وكفرا .

وعلى أن المنكرين للتأويل والقائلين بمحض ظاهر التنزيل يرجعهم موضع الضرورة فى هذه الآية وأمثالها إلى إثبات ما محوه ، والاعتراف بالتأويل الذى نفوه ، لشهادة العيان بكون قلوب الكفار مثل غيرها من القلوب ليس عليها ختم ، ولا يعرف فيها رسم ولا وسم ، فيجعلون ذلك مجازا لا حقيقة له ، ومثلا لا محصول معه ، والله تعالى منزه عن أن يقول ما لا يقع عليه بالتحقيق اعتبار ، ولا يصح له فى الصدق عيار ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ثم إنه جل جلاله لو ختم على قلوبهم ، فوقفها عن معارفها ، وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة ، فصدها عن التصرف فى مصارفها ، لكانوا فى كفرهم معذورين ، بل كانوا على نقصانهم فى الخلقة مأجورين .

فتقول فى تأويل الآية : إن قلب الشىء لبه وخياره ، وهو من الإنسان أمير جسده الذى لا يورد ولا يصدر الجوارح إلا عن رأيه ، وهو أمره ، وهو بيت حياته الذى منه تنشر الحياة فى جميع أعضائه ، وتنقسم فى سائر جوارحه ومحل القلب من الشخص الادمى الذى يسمى العالم الصغير ، لاجتماع قوى العالم الكبير فيه على صغره محل الشمس من العالم ، لكون العالم متماسكا بها تماسك الجسم

---

(١) سورة البقرة . آية رقم « ٧ »

بقلبه ، منها يستمد بقاءه وحياته استمداد الجسم بقاءه وحياته من القلب . وإذا كانت الحكمة الإلهية أوجبت أن يكون فى العالم الكبير أمير يكون تماسك العالم به ، ويكون قلبه ولبه وخياره ، ويكون العالم يستمد حياته منه ، وأوجبت أن تكون الصورة البشرية التى هى مولوده بالحقيقة متشكلة بشكله ، فى كونها متماسكة بقلبها، وحية بحياته ، وجب أن يكون البساط الشرعى الدينى الذى هو أساس وجود الصور النفسانية الباقية فى الدار الأُخرة ببقاء الأبد ، مقننا على قانونهما ، ومبنيا على أصلهما ، ليتوافق الدين والخلق ، ويصح كلام رب العزة سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق [١] فوجب أن يكون النبى ﷺ فى عصره يحل من البساط الشرعى محل القلب من الجسم ، يحيا الدين بحياته، ويوجد بوجوده ، ويفقد بفقده ، على حسب ما عليه القلب للجسم ، وأن يكون هو بيت حياة أهل الشريعة الحياة الدينية الطبيعية ، ككون القلب بيت حياة الجسم ، وأن يكون من جهته نفوذ معارف الدين والتوحيد فى نفوس أهل الشريعة ، كما من جهة القلب يكون نفوذ الحياة فى جوارح الجسم وعروقه وأعضائه مثلا بمثل ، وكما أن السمع والبصر والحواس الشريفة هى من طلائع القلب وأعماله ، وكل منها موكول بما هو إليه ، وزاد لما يشاهده أو يسمعه إلى القلب ليحيط به فكره وتميزه . وللنبى ﷺ فى وقته ، وللإمام عليه السلام فى وقته كذلك طلائع وعمال هم له بمنزلة الحواس الشريفة ، يرجعون بما يرونه ويسمعونه إلى الإمام عليه السلام فيفعل فيه بما يريه الله تعالى .

---

(١) سورة فصلت ٥٣

وإذا كانت الحال ما شرحناه في صحة الموازنة بين الخلق والدين بما أقمناه من البراهين التي تخرق حجب الأشكال واللبس ، وتنير من آفاق العقل إنارة الشمس كان آئمة الضلال الذين قال الله سبحانه فيهم : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون »[1] ، ضد من أشرنا إليهم ، وعكس من دللنا عليهم ، فهم أيضا قلوب لمن يقول برأيهم ، ويدين بولائهم ، لكن الله سبحانه ختم عليها وسلبها خاصية لإمامة ، وعراها من لباس الفضيلة كما قال الله عز وجل : « ختم الله على قلوبهم » . والقلب من الله مخصوص بفضيلة التفكر الذي به تتضح معالم التوحيد، ومقامات الرسل والملائكة ، كما قال الله سبحانه : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »[2] . قال النبي ﷺ « تفكر ساعة خير من عبادة سنة »[3] . فإذا كان القلب مختوما عليه ، فقد زالت فضيلته ، وبطل تفكره في خلق السموات والأرض وتصرفه ، فيصير حكمه حكم قلوب البهائم .

وقوله سبحانه : « وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فالسمع والأبصار حدودهم وطلائعهم المتشبهون بحدود أئمة الحق وطلائعهم . والأسماع والأبصار بنور القلب تستنير ، وفي أفلاك تنبيهه ورشده تدور ، فإذا حصل على القلب الغشاء كانت هي أولى بأن تعمى عليها الأنباء ، فهم إذا أولى أن يختبطوا في الظلام ، باستنادهم إلى أئمة الضلال الممثلين بالقلوب المختوم عليها بالختام .

(١) سورة القصص : ٤١

(٢) سورة آل عمران : ١٩١

(٣) ورد في سنن ابن ماجه .

ونحن نتبع ما تقدم بمعنى قوله جل وعز وعظم : « ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين (١) » . هذه صفة المنافقين الذين يسرون غير ما يعلنون ، ويظهرون نقيض ما يبطنون . وقوله : آمنا بالله واليوم الآخر ، الذى سياقة الأعمال كلها إليه ، ومحصول الثواب والعقاب عنده ولديه ، فكذبهم الله سبحانه بقوله : « وما هم بمؤمنين » أى غير مصدقين ؛ وذلك لأن معرفة توحيد الله سبحانه غير مركوزة فى الطبائع ، كما ادعى قوم أنهم يقومون بمعرفة التوحيد من تلقاء نفوسهم ، من دون استظهار برسول ولا كتاب ، وأنه لو لم يبعث الأنبياء لاستغنوا عنهم فى هذا الباب ، إذا كان معقولهم يؤديهم إذا رأوا مصنوعا إلى العلم بأن له صانعا ، أو مخلوقا بأن له خالقا . وهذه جرأة منهم على الله سبحانه فى رفع الوسائط والأدلة ، التى لا غنى عنها ، ولابد فى كل حال من الأحوال منها ، والعيان يكذب ما يزعمونه ، ويبطل ما يدعونه . فمعلوم أن النطق فى الإنسان أمكن وجوداً من معرفة توحيد رب العالمين ، بكون الصور الإنسانية مهيأة له ومعدة للاستخلاص منه ومزاحة (٢) العلة فى الالات الجيدة من اللهات واللسان والفكوك والأسنان والشفتين والفاصلتين للكلام التى بمجموعها كلها يستقيم اللفظ ، وبسقم بعضها يسقم اللفظ ، ومع حصول هذه الأدوات والالات كلها لا يكاد النطق يقوم من غريزة الإنسان ، إلا بمستنطق ينطقه ، ومكلم بكلمه الكلام ويفهمه ، فيأخذ عنه إن كان عربيا فعربيا ، وإن كان أعجميا فأعجميا . وإذا كان الكلام المغروز فى جبلة الإنسان لا يصح ظهوره إلا بمعلم ومفهم ، فكيف تصح معرفة توحيد رب

(١) سورة البقرة : ٨

(٢) بمعنى زوال . من زاح عن المكان زوحا وزواحاً أى زال .

العالمين سبحانه منه بلا تعليم من نبى أو إمام . هذا المستحيل الذى لا يكون أبداً .
وأما احتجاجه بكون نظره إلى المصنوع يوجب صانعا فذلك من حيث استمر فى عينه وسمعه أن لابد للمبيت من بان ، وللصنع من صانع . ولو جاز أن ينشأ رجل فى موضع لم ير فيه بيتا قط ، ولم يسمع بذكره ، من أين كان يؤديه عقله إذا رآه إلى أن له بانياً ؟ .

وإذا كانت الصورة هذه فى استحالة ثبوت معرفة الله إلا بالوسائط دللنا على أن القوم الذين قالوا : « آمنا بالله وباليوم الآخر ، أنكروا الوسائط الذين هم وصى رسول الله ﷺ والأئمة من ذريته عليه السلام ، الذين لا تصح معرفة االتوحيد إلا منهم ومن جهتهم ، فلم يصح إيمانهم ، إذا كان الذى أتى به النبى ﷺ منها مجملا غير مفصل من حيث المعنى ، فهم أهل تفصيل الكتاب . ولو كان الكتاب قائما بنفسه ، غنيا عمن يحل مشكلة ويعرب معجمه ، لكان أهل الاستنباط المأمور بالرجوع إليهم فضلا ، يقول الله عز وجل :

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه (١) منهم، وأهل الاستنباط هم الأئمة من آل رسول الله ﷺ لا محالة ، وهم أحق العلماء بكتاب الله عز وجل وأولى بسنة رسول الله ﷺ .

وأما قوله : « وباليوم الآخر »، واليوم الآخر الذى هو القيامة يوم الختام، واليوم الذى أعطاه الله سبحانه كمال الأيام ، فهو فى معنى التأويل على خاتم الأئمة عليه

---

(١) النساء : ٨٣.

السلام ، الذى يقوم به قيام الدين ، وبعده تكون قيامة الدنيا ، « يوم يقوم الناس لرب العالمين [1] » .

(١) المطففين : ٦

واعلموا أن الله سبحانه ضرب الأمثال للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ، وشحن كتابه الحكيم بها ، والجماهلون عن تدبرها عمون . قال الله سبحانه : « إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (١) . وقال رسول الله ﷺ مثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق» . فيا للناس ، أما من متفكر يتفكر ، ومتدبر يتدبر حقيقة ما يدل عليه هذا الخبر . إن النبى ﷺ لم يشبه أهل بيته بالسفينة إلا وقد أثبت وجود الطوفان ، لكون ذلك من الأشياء المتلازمة فى ميزان العقل والبرهان ؛ إذا وجود السفينة ولا ماء محال ، ومع وقوع التفريق بينهما لا يصح مقال . وإذا أنعمتم أيها المؤمنون نظرا ، وجود ثم فكرا وجدتم طوفان البدع والخدع من الجوانب مستعليا ، والشيطان على أهل الآراء والمذاهب مستوليا ، ثم أن تجدوا غير دعوة أئمتكم سفينة النجاة ، ولا دونكم فيها ركابا ؛ وذلك لأنكم لم تشركوا بربكم أحداً ، وقد اتخذوا من دون الله أربابا .

وقد كان قرىء عليكم من شرح سورة البقرة إلى حيث انتهى فى ذكر المنافقين ، ما نحن نشفعه بمعنى قوله سبحانه نسقاً على ما تقدم : « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢) » . المعلوم من المخادعة إنها إظهار ضد ما فى النفس ، فقول : إن موضوع الفروع على الأصول ، فمهما دخل النقص على الأصول بطلت الفروع ، وإن الدين كذلك له أصل وفروع : وأصله

(١) الحاقة : ١١ – ١٢

(٢) سورة البقرة : ٩

معرفة توحيد الله سبحانه من حيث نفى التشبيه ، وذلك أن ينفى عن البارى سبحانه جميع ما يليق بمبدعاته التى هى الأعيان الروحانية المعراة من الطين ، ومخلوقاته التى هى الصور الجسمانية ذوات الطين من الأسماء والصفات والحدود والإشارة ، ويتصور أنه ما يكاد ينقدح لأحد فكر فيه جلاله ، إلا وذلك الفكر مثل المفكر مصنوع ، ككونه مصنوعاً ، ومحدث ككونه محدثا . وإن الله سبحانه صانعهما ومحدثهما ، ولا يناسب منهما ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم نقول : إن هذا الأصل الذق بثبوته يثبت الدين ، وبزواله يزول ، متعلق بوصى رسول الله ﷺ من ذريتهما . فمن اقتدى وتعلق بأذيالهم وضحت له معالم التوحيد ، سليمة من التشبيه والتعطيل ، ومن تخلف عنهم غرق فى طوفان الضلال والتضليل ، فإذا من سقط عن ولايتهم سقط عن توحيد ربه ، وكان ممن ران الشيطان على قلبه . فمقامات الوصى والأئمة الأشهاد مصحة للتوحيد ، وعدة للمعاد ، ولو كان يقع الغنى عنهم فى هذا العلم الذى هو المنتهى والقطب الذى تدور عليه الرحى ، لكان الغنى عنهم فى الفروع التى هى محمولة عليه أكثر وأوفى وأوفر . فأهل النفاق الذين لم يلوذوا بالوصى والأئمة فى اقتباس أنوار التوحيد منهم، ولم يعتصموا بعلائق اليقين فى الأخذ عنهم ، يخادعون الله والذين آمنوا تحلية لظاهر أجسامهم بحلية الدين ، وتخلية لباطن نفوسهم عن أن يردوا بها عين اليقين، فهم من حيث ظاهر إسلامهم مشهورون ، ومن جهة الإيمان منكورون يخادعون الله والذين آمنوا ، بطلوعهم عن مطالع الأئمة وهم مأمومون ، ويتبرجهم بزينة البصراء وهم عمون .

وقوله : « وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » المعنى فيه أنهم عراة من حيث نفوسهم اللطيفه من صور الإيمان ، لا نقوش عليها من معرفة الرحمن ، فسبيلهم سبيل من يظهر الغنى وهو فقير ، وسلامة البصر كلما قدمنا وهو ضرير ومخادع نفسه بدعوى فضيلة ليست لها ، وهى خالية الصفة منها . ومثال ذلك قائم فى مشاهدة العيان ، أن الإنسان يقوم له من غريزته مطالبة بالشراب والطعام اللذين بهما يقوم الجسم ويتماسك ، وبعد مهما يردى ويهلك ، وتقوم له مطالبة من جنس آخر ، وهى أن يقف على سرائر المبدأ المعاد وموجب الإعدام والإيجاد ، وكون هذه النفس اللطيفه إذا فارقت الأجسام الكثيفة كيف يكون حالها ؟ وأين يكون قرارها ؟ ويتفكر فى عجائب خلق الأرض والسماء ، وتركيب الشمس والقمر والنجوم وكيف ترصيعها مختلفة الأنوار والأضواء ، وليس يكاد يطرأ على الجسم الهلاك بقصوره عن هذه المعارف كحصوله من تراخى الشراب والطعام دونه على شفا جرف المتالف . والسبب فى ذلك أن الجسم قائم فى دار كماله ومكان سلطانه ، وتراخى ما هو بالحاجة إليه من شرابه وطعامه ، يظهر عاجل ضرره ، فيقضى عليه إذا هو جاوز المحدود من قدره . فأما الوجه الآخر الذى تقوم المطالبة به فلا يقضى بضره عاجلا فقده ، من معرفة المبدأ والمعاد ، وغير ذلك مما شرحناه ، فإن المطالبة بذلك هى من جهة النفس اللطيفة التى تغتذى بالمعارف الإلهية ، كما يغتذى الجسم الأغذية النباتية ، والنفس بمجاورة الجسم فى حد القوة ومحل الغربة ، فلا يخلص إلى الجسد ضرر بإنقطاع غذائها عنها كخلوص الضرر إليه بإنقطاع الطعام والشراب ، ولو خلص إليه من ذلك ضرر عاجل لقام له أشد القيام . إنه ضرر يظهر إذا بلغت التراق ، والتفت الساق بالساق ، فأما فى العاجل فهو ضرر لا يظهر ، والمضرور به لا يشعر ، كما قال الله تعالى : « وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

ونحن نتبعه بمعنى قوله سبحانه : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله من مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (١) » هذه الآية ملائمة لما كان سبق القول به فى معنى قوله سبحانه : « ختم الله على قلوبهم » سوى أن التباين بينهما أن ذلك ختم ، وهذا مرض . والختم منسوب إلى الله تعالى ، وإلى فعله ، بقوله : « ختم اللّ على قلوبهم » والمرض غير منسوب إليه ، فكأنه قائم من ذوات نفوسهم . وأكثر رأى العامة أن الحياة والموت والمرض والشفاء والرى والشبع جميع ذلك من فعل الله سبحانه لاغير ، وأن القاتل لايقدر على غير فصل العضو الذى يفصله قطعا بسيفه أو سيكنه ، وأن حاول الموت بالمقتول هو من فعل الله سبحانه لا من فعل القاتل ، الآكل والشارب أيضا ليس له قدرة على الشبع والرى ، لكون الشبع والرى من فعل الله سبحانه فيه ، وأن الشفاء والمرض من فعل الله ونص القرآن يدحض حجتهم فى شأن المرض وكونه من فعله ، كما قال اللهّ تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : « الذى خلقنى فهو يهدين * والذى يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين (٢) » فأبان أنه خلقه وأنه يهديه ، وأنه يطعمه ويسقيه ، ولم يقل : وإذا أمرضنى فهو يشفين ، وكان يجعل المرض نسقا على فعله ، ويخرجه مخرج غيره من الأمور التى ينسبها إليه خلقا وهداية وإطعاما وسقيا وشفاء . هذه الآية تهد ركن مذهب من يعتقد أنه إذا أثبت ممرضا غير الله سبحانه فسد أصل دينه ، واختل قانون اعتقاده .

(١) سورة البقرة : ١٠ .

(٢) سورة الشعراء : ٧٨ – ٨٠ .

وقول إبراهيم عليه السلام : « وإذا مرضت فهو يشفين » لا يخلو من أحد ثلاثة أقسام : إما أن يكون المرض من عند الله تعالى ، على عادة الأجسام الطارئة عليها عوارض العلل والاسقام ، من دون أن يكون الأعلاء يشتهونها . فعدو له بالكلام عن سياقته ينسب المرض - خصوصا - إلى نفسه من دون باقى الأمور ، كالخلق والهداية وتوابعهما ، لأى عذر ؟

وإما أن يكون المرض من عند نفسه ، وهذه حاله خارجة عن العرف والعادة ، لا عذر لمتكلم فيها ، إذ كان معلوما أن المرض ليس من المريض ، وكذلك الصحة ليست من فعل الصحيح .

وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام تحاشى من أن ينسب إلى ربه سبحانه أنه أمرضه ، فعلل القول هو تجملا ، فكان ينبغى له أن يتحاشى مما هو أكبر ، وهو قوله : « والذى يميتنى ثم يحيين (١) » والإمانة أكبر من المرض .

وإذا بطلت هذه الأقسام الثلاثة على رأيهم وجب أن يكون المعنى فيه غير ما يذهبون إليه من مرض الأجسام . وقد كثر اختباط الراكنين إلى آرائهم ، والراكبين مركب أهوائهم فى التأليف بين العقل والكتاب ، وذلك مما يقطع بهم الأسباب ، فليس يكاد يجتمع لهم الأمران ، ويلتئم الحالان . على أن كليهما إذا فاتا المرء فاته رشده ، وخانه قصده ، إذ كان العقل حجة الله سبحانه على خلقه الذى به يصح التكليف ومعه يجب الثواب والعقاب ، وهو صنع الله سبحانه فى باطن الإنسان ،

---

(١) سورة الشعراء : ٨١ .

كصنيعه بتركيب العين فى ظاهره . فمن دفع ما تؤديه إليه بصيرته بعقله ، كان كالدافع لما يؤديه إليه بصره بعينه ، ومن استجاز ذلك دفع فى وجه الإنسانية ، وآوى إلى حكم البهيمية . والكتاب هو قول ربه العالمين ، وطريق الحق المبين ، ومن رده ضل عن الصواب ، ويئس من حسن المآب ، لكن الله سبحانه أراد أن يدخر الفضيلة فى الجمع بين الأمرين للأئمة من آل رسول الله ﷺ ، ويحوج الناس إليهم ، ويفقرهم إلى ما عندهم ولديهم ، وأعلم الناس أن الحق يسلك فى شعبهم أينما سلكوا ، ويدور معهم أينما داروا ، كما قال رسول الله ﷺ . « على مع الحق ، والحق معه . أينما دار على فالحق يدور معه » .

وإذا تكامل هذا الفصل فنعود إلى ذكر الختم على القلوب ، المنسوب إلى الله تعالى فى فعله ، والمرض غير المنسوب إليه ، والفرق بينهما ، فنقول : إنه عنى بالمرض المرض النفسانى بالشبهات التى تقوم من النفوس اللطيفة مقام الأمراض من الأجسام الكثيفة ، فتحل قواها ، كما تحل الأمراض قوى الأجسام ، وتصدها عن الانتفاع بما يلقى إليها من العلوم التى هى غذاؤها صد المرض عن الانتفاع بالشراب والطعام . وهذا الجنس مستحيل أن يكون منسوباً إلى الله سبحانه ، فمن هذه الجهه لم ينسه الله تعالى إلى نفسه ، كما لم ينسبه إبراهيم عليه السلام فى سياقة كلامه إلى ربه حين قال : « وإذا مرضت فهو يشفين » .

وأما الختم على القلوب ، وجواز كونه منسوبا إلى فعل الله عز وجل فهو كما قال فى كتابه : « فلما زاغوا أزاغ اللهّ قلوبهم [1] » . وذلك أنه لما دفع المنكرون

(١) سورة الصف : ٥ .

مقامات أولياء اللهّ الذين هم الوسائط بينه وبين خلقه ، ختم اللّه على قلوبهم ، أى منع أن تصل إليها المعارف الدينية التى بها نجاة الأبدية ، كما قال بعض الأئمة ! لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . وأولياء اللّه سبحانه زراع الحكمة فى القلوب ، فلا يزرعونها فى مزارع السوء ، كما منع اللّه تعالى فى الظاهر المشركين أن يدخلوا مساجد اللّه ، فقال تعالى : « إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا [١] » ، وكما قال فى صفة كتابه « لايمسه إلا المطهرون » [٢] .

(١) سورة التوبة : ٢٨ .

(٢) سورة الواقعة : ٧٩ .

وبين لكم أن المخالفين للتأويل فى مثل هذا المقام محرجون ، وإلى الاقرار بما جحدوه منه محجوجون ، باعترافهم أن مرض القلوب ههنا غير المرض الطبيعى المتعارف ، وفى إيجاب ذلك صحة غير المتعارف ، وإيجاب حياة غير المتعارف . يدل على ذلك قوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . ومعلوم أن النبى ﷺ لم يكن يدعو الموتى من حيث الأجسام . وبإيجاب حياة غير المتعارف إيجاب موت غير المتعارف . ويدل عليه قوله . « أموات غير أحياء » [1] ، ومعلوم أن القوم كانوا من حيث الأجسام أحياء . فهذا موت غير المتعارف ، وحياة غير المتعارف .

وإذا ثبت ما شرحناه . مرض غير المتعارف ، وصحة غير المتعارف ، وحياة غير المتعارف ، وموت غيير المتعارف ، ثبت بثبوت ذلك كله ولادة غير المتعارف . قال بعض الصادقين عليه السلام من لم يولد الولادتين لم ينل ملكوت السماء ، وثبتت تربية وإنشاء غير المتعارف ووالد غير المتعارف . يدل على ذلك قوله سبحانه . « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » . وإذا ثبت أن أزواج النبى ﷺ أمهاتهم ، ثبت أن النبى أبوهم . وإذا ثبت جميع ذلك ثبت سماء غير المتعارف وأرض غير المتعارف وجبال غير المتعارف ، وهى السموات والأرض والجبال التى عرض الله الأمانة عليها بقوله سبحانه . « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال [2] » . وفى معرفتها غنى عن هجنة مقالات

---

(١) سورة النحل : ٢١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٧٢ .

الحشوية . إن الله سبحانه عرض الأمانة على الجمادات التى لاتعقل ولا تعلم ، وألزمها بتكليفها مالا تطبق كل ما يلزم ، وعن مقالات عصبة أهل الرأى التى هى أسمج ، وإلى غسل درنها أحوج . إنه على بكل جنس أسماه من السماء والأرض والجهال أهله ، حتى ركبت – فى إثبات أهل الجبال ليسوا من الناس – عماها وجهلها . وجميع ذلك صاف لكم أيها المؤمنون مشاربه ، فسيح بأئمتكم مسارحه ومسار به .

إلا أننا نعود إلى ذكر ما قدمناه من قول الله سبحانه . « فى قلوبهم مرض » مما ليس دون كشف مطاويه فى العاجل غرض ، فنقول . إن المرض مرضان طبيعى على ما كنا قدمنا ذكره ، يستولى على الأجسام . ونفسانى يعرض للنفوس ، لا ثالث لهما من الأقسام . وإن الطبيعى يحل قوى الجسم ، ويقف به عن المطاعم والمشارب ، فأن تناولها المريض صارت قوة لعلته ، ونقصا من صحه . وإن المرض النفسانى بازاء ذلك يحل قوى النفس ، ويقف بها عن تصور معارف دينها الواقعة منها موقع الطعام والشراب من الجسم فان سمعت منها شيئاً صار موكدا لعلتها، مضعفا لقوتها ، على حسب وقوع الطعام والشراب من جسم المريض . وإن المريض مرض الجسم ينبغى له أن يأوى إلى طبيب فاره ، له بأنواع الأمراض خبرة ، وبأجناس الأدوية والعقاقير التى بعضها شرقى وبعضها غربى معرفة ، وكذلك المريض مرض نفسه يأوى إلى عالم فاره ، له بأنواع الاعتقادات الفاسدة الممرضة للنفوس خبرة ، وبأنواع العلوم التى بعضها تنزيلى ، وبعضها تأويلى معرفة . ومن شرط المريض مرض الجسم إذا حضر الطبيب أن لا يكاتمه شيئا من سر مرضه وكذلك من شرط المريض مرض نفسه أن لا يكاتم عالمه المقصود

بشفائه شيئا من سر شبهته ، ومن شرط طبيب الجسم أن يتسدل بمجس المريض إذا أخذه وبمائه إذا أبصره على كوامن علته . ومن شرط طبيب النفس الذى هو العالم الفاره أن يستدل بكلام مريضه الذى هو كالمجس للمريض ، وبما يلوح له من فضلات ما ألقى إليه . التى هى بمنزلة الماء من المريض ، الذى هو دفع طبيعته فضلاتها – على كون دخول المرض عليه من أى جنس . ومن شرط طبيب الجسم أن يكون ثقة مأمونا فى نفسه ، إذا كانت إمانة المريض فى رقبته ، فلا يتهجم عليه بما لا يعرفه دون ما أحكمه علما ، فيكون تغريرا به . كذلك من شرط العالم الذى هو طبيب النفس أن يكون ثقة مأمونا . إذ كانت إمانة النفس فى رقبته ، فهو يميتها بتضيعه ، ويحييها بعلمه وتثبته فلا حق تقاته ، ومن شرط طبيب الجسم أن يكون سالما فى جسمه ، لا اضطراب فيه من وعك ومرض ، لأنه إذا كان فى جسمه وعك أو مرض لم تصح بصيرته ، ولم يخلص رأيه ، واختلت عليه معرفته بمجس المريض وبمائه ، كذلك من شرط طبيب النفس أن يكون سالما فى نفسه ، لا اضطراب فيه من شبهة وحيرة ، لأنه إذا كانت به حيرة وشبهة ، لم تصح له فى استصحاح غيره بصيرة ، ولم يخلص له رأى فى استيعاب كلام شاك فى دينه ، مرتاب ، يقوم منه مقام المجس من المريض ، إذ كان الذى به من الاضطراب فى نفسه يمنع .

فإذا حصلت هذه الشرئط مستوفاة على المريض من الجسم وطبيبه . تعين عليه أن يجمع أدوية وعقاقير كما قدمناه ذكرها شرقية وغربية ، فيناولها إياه سقيا ، لتحل عنه بإذن اللّه الأعلال المؤذية ، وترجع إليه الصحة المطلوبة ، وبإزاء ذلك إذا حصلت هذه الشرائط مستوفاة على المريض من حيث نفسه ، وعالمه الذى هو

طبيبه ، تعين عليه أن يلقاه بأدوية وعقاقير من العلوم التنزيلية والتأويلية ، معقولة ومحسوسة ، لتحل عن نفسه الشبهات المردية القائمة منها مقام الأهلال من الجسم ، وتقضى لها بالسلامة المؤذنة بسلامة الأبد ، فهذه هى الإبانة الصحيحة ، تقابل بها الدين والخلق ، كما قال سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1] » .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

ونحن نشد ما تقدم ببيان قوله جل وعظم فى شأن المنافقين: « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا أنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون[١] » والفساد فى الأرض أجناس كثيرة، فمنها قتل النفس المحرمة بغير حق، ومنها إخافة السبيل، ومنها أكل أموال اليتامى ظلما، إلى غير ذلك مما نهى اللّه سبحانه عنه، وحذر فى كتابه وسنة رسوله ﷺ منه، ولكل من ذلك فى وجه الحكمة الباطنة نظائر محرمة ، كما حرمت الظواهر ، إذ كان باطن ما حرم اللّه حراما كظاهره، وباطن ما حلله حلالا كظاهره، فلما كان قتل النفس بغير حق كبيرة من الكبائر، وعظيمة من الجرائر، كان باطنه كمثله كبيرة من الذنوب، وموبقات الخطوب. وقد أورد اللّه سبحانه فى شأن القتل ما إذا وقع له اعتبار بظاهرلفظه لم يتزن فى ميزان ، ولم يرجع إلى تحقيق فى خبر ولا عيان ، وإذا رجع به إلى تحقيق المعنى كان موطد الأساس والمبنى ، وهو قوله عز وجل : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحى الناس جميعا [٢] » .

متى العهد فى الظاهر المتعارف بنفس تقوم الناس جميعاً ، فقتلتها كقتل الناس جميعاً ، وإحياؤها كإحياء الناس جميعاً ، إلا ما توجبه الحكمة التأويلية من نفس نبى أو وصى أو إمام ، وذلك لكون نفوس الخلائق منوطة بها ، ومستمدة لأسباب حياتها ونجاتها الأبدية منها ، فإذا قتلت تلك النفس الزكية التى هى لنفوس الناس حاملة ، ولها بفضلها وعلمها ممسكة بمنعها عن مقام شرفها فى الوصاية

(١) سورة البقرة : ١١ ، ١٢

(٢) سورة المائدة : ٣٢ .

والإمامة ، قتل الناس جميعاً ، بقطعهم من مكان استمداد الحياة ، واقتباس أنوار النجاة . وإذا كانت الصورة هذه في شأن القتل مما لا مساغ له في جهة الظاهر، وهو واضح البرهان في وجه الباطن ، كان المنافقون الذين قدمنا ذكرهم أصحاب هذه الغفلة - التي هي أكبر وجود الفساد في الأرض - باطنا ، وإن تحرجوا عن قتل النفس المحرمة ظاهراً .

وههنا نكتة يجب اعتبارها في ميزان العقلي ، وهو أن الله سبحانه قال في شأن القتل . « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً» (١) . ولم يقل : من قتل إنسانا ، فكأنما قتل الناس جميعا ، وكان هكذا لو قاله - أكثر تناسبا للجمع بين إنسان واحد وبين الناس ، ولم يقل أيضا : من قتل نفسا فكأنما قتل النفوس جميعا ، للجمع بين نفس واحدة وبين نفوس ، فيكون أبلغ نظاما وتقاربا . وإذا كانت الصورة هذه ، وجب أن تكون هذه النفوس المشار إليها على غاية من الشرف ، يمتنع أن تقاس إلى الناس الذين هم عيال عليها في قتلها وإحيائها ، فإن قتلت قتلوا ، وإن أحييت أحيوا . وهذا يدل على ما ذكرناه من حد الوصاية والإمامة الذي به حياة الخلق ، لكون الوصي في وقته ، والإمام في وقته ، والإمام في وقته نفس الخلق بالإطلاق من جهة كون نفوس الناس بها تقوم وتتقوم ، وعنها تأخذ صورة معادها فتنجو من العقاب وتسلم .

فإذا ارتكب المنافقون من هذه الخطة شر مرتكب ، واحتقبوا سوء محتقب ، وعموا على الناس الأنباء ، ومدوا على عقولهم من الجهل والحيرة الغطاء . قال الله

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

سبحانه : « والفتنة أشد من القتل [1] ، المعنى فيه أن الذى فتنوا به الناس من الخلف فى دينهم والنزاع ، وصدوا عن الإذعان لمستحق الطاعة والاتباع ، وركوب كل طائفة هواها ما بين محلل برأيه ومحرم ، ومؤخر فى دينه ومقدم ، أكبر من القتل الذى هو على ما قدمنا ذكره سلب مقامات الإمامة أهلها ، وإن كان الله سبحانه لا يسلب مستحقها فضلها . فهذه جملة من القول فى معنى قتل النفس من جهة التأويل .

(١) سورة البقرة : ٢١٧ .

واعتبروا سخف عقول من يعتقد أن موضوع الدين على غير أساس عقلى[١]، ومقياس برهان جلى ، عرفه النبى ﷺ الذى هو الآتى بالشرع والكتاب ، وعرفه من يليه ويلى مقامه من بعده من وصيه والأئمة من ذريته ، الذين هم قدوة أولى الألباب . إن أحدا من الناس لو أتى بكتاب يمليه أو حديث يرويه ، فذكر أن فى مطاويهما مالا سبيل له عليه أن يحيط به علما ، ولا لأخذ سواه إن نقصاه فهما لاسترك [٢] فى العقل ، بل قامت الشهادة عليه بالجهل . كيف يجوز أن يأتى النبى ﷺ عن الله بكتاب ، يكون فيه ما تستغلق عليه وجوهه ومعانيه ، فإذا سئل عنه قال: متشابه ، مالى عليه من اطلاع ، ، وثقل ما عندى من اضطلاع ، ؟ وما وجه المصلحة فى إنزال الله تعالى ما حجب عنه علمه ، ومنعه وجميع الأمة نفعه إذ منعهم فهمه ؟ وهل يبقى مما هذه سبيله إلا جرس لا يحمل نطقا ، فبعدا لمن تأول ذلك فى شىء من تنزيل رب العالمين ، وسحقا ، إنه إزراء بالمنزل سبحانه الذى هو رب العالمين ، والمنزل الذى هو القرآن المبين ، والمنزل عليه الذى هو خاتم النبين ﷺ .

وقد كان قرىء عليكم من معنى قول الله سبحانه : وإذا قيل لهم : لاتفسدوا فى الأرض ، ما فصلت لكم فيه تقاسيم الفساد ، وعين على ما ينجو إليه وجه التأويل فيها من المراد ، وأورد من جملتها ذكر قتل النفس الذى هو معظمه بما فصل مجمله ، وأعرب معجمه ، وقلنا : إن المنافقين وإن قعدوا عما يقع من ذلك

---

(١) سبق حديثه فى هذا الموضوع فى المجلس الأول .

(٢) أى صار ركيكا .

تحت الحس ، فلقد قاموا لما يقع ضرره منه على النفس ، فهم كما قال المسيح عليه السلام لحوارييه : لا تخافوا ممن يقتلون الأجساد ، ولكن خافوا ممن يقتل الأرواح ، وإذا كان قتل النفس المحرمة فى جهة معنى التأويل مداولا به على ما قدمنا شرحه مشفوعاً بالبيان والدليل كان قطع السبيل على ما سنبينه لكم بإذن اللّه ، وعلى اللّه قصد السبيل ومعلوم أن أهل الدنيا هم رفاق على مدرجة سفر ، وأن المسافر من نفسه وماله لعلى غرر ، كما قال النبى ﷺ : « إن المسافر وماله لعلى تلف إلا ما وقى اللّه » . وغرر المسافر يكون من وجهين : فقد الدليل وقطع السبيل . فدليل المسافر سفر الآخرة إمام هاد ، من أهل النبى ﷺ يرحل فى المراحل العلمية ، ويدرجه فى المدارج الدينية ، حتى يبلغه مأمنه من دار الثواب ، ويخطيه بحسن المآب . وأذواده علومه التى هم أئمة الضلال الذين يقطعون على الناس طريق الآخرة ، صدا عن معرفة التوحيد ، ومنعا عن اتباع الوسائط والحدود ، فيسوقونهم إلى النار ويقدمون بهم إلى جهنم دار البوار .

وكذلك ، فهم بأعيانهم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، ما هو أحد أقسام الفساد ، والتعرض لسخط اللّه سبحانه بظلم العباد . واليتامى فى معنى الحكمة والتأويل هم الأئمة من آل النبى ﷺ شق ذلك من الدرة اليتيمة التى لا شكل لها ، وكل منهم فى وقته وزمانه لا شكل له . وقد سمى اللّه جدهم محمداً اليتيم بقوله : «ألم يجدك يتيما فآوى » ، وأكل مال اليتيم فى التأويل دعوى مكانهم فى الإمامة ، ولبس ما لا يليق بغيرهم من ملبس الخلافة . فهذه من أبواب الفساد التى شرطنا القيام بتفصيلها ، والموازنة بين محسوسها ومعقولها ، فى مضمون قوله جل جلاله : « وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض » الفساد الذى تتفرع منه هذه الفروع ،

ويبطلى شرح الإسلام الموضوع . وقولهم « إنما نحن مصلحون » ، احتجاجا – من المنافقين – بكونهم إلى الإسلام داعين (١) ، وفى مصلحته بتكثير العدة ساعين ، كما يؤثر عن أئمة الضلال أنهم فتحوا البلاد ، وقهروا العباد ، وفعلوا وصنعوا . وإن كلا منهم ، ومن سار سيرتهم بعدهم إجتهدوا فى إعمال الآراء والقياسات التى شحنوا منها بطون الصحف المصنفات . كل ذلك فى نصرة الإسلام بزعمهم ، وتكثير عدته وتقوية شوكته . وقال الله سبحانه تكذيبا لقولهم : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون » .

(١) أى أنهم قالوا ما قالوا احتجاجا بكونهم إلى الإسلام داعين و « من المنافقين » لا ضرورة لها فى الكلام هنا .

إن الأفلاك الدائرة والأنجم السائرة ، وجريان الرياح ، وتعاقب الإغساق والإصباح لدلالة واضحة على صنعة حكيم ، وتقدير عزيز عليم ، جعل ذلك سببا لإنشاء الصور الإنسانية التى وفت بشبه العالم علواً وسفلاً ، وقامت بوزنه الخفيف منه خفة ، والثقيل ثقلا ، وزادت عليه بالقوة المنطقية المترجمة بها عن نفسها ، والعالم عن نفسه لايترجم ، المعربة عن مقاديره وأجزائه فى حركاته وسكناته والعالم لايعرب عنها بل يعجم .

والعاقل إذا تأمل مبنى جسمه فى تأليف العروق والأعضال وتركيب الجواهر والأوصال ، وكيفية الخلق فيه ما بين غليظ من العظم ، وآخر دقيق ، وسفيق من الجلد وآخر رقيق . وكيف هيء لكل مكان منه ما يليق بذلك المكان . وأقيم لشد بنيانه مالا يقوم غيره بشد البنيان . وكيفية استنشاقه من الهواء وانتشار ما يستنشقه فى الأدنى والأقصى من العروق والأعضاء . وكيفية تقسيم معدته فى مقاسمها قوى ما تستمده من مشاربها ومطاعمها وجده بيتا رفع الله بنيانه .

ثم إذا تأمل عظيم قدرة الله تعالى فى إلقاء الروح فيه من أمره غير ذى مستقر معلوم من الجسم فيوقف على مستقره ، وكيف يضرب البشر منه بأعلى سهمه ، ويسود من أجله على سادات جسمه ، وإذا كانت السماء المحيطة والأرض البسيطة سادات الجسم ، ونفس البشر تسود عليهما جميعا ، بإحاطة العلم تقديرا ممن أحسن كل شيء خلقه ، ووفاه من جميع صنعه حقه علم علم اليقين أنه ليس فى حكم من الأحكام أن خلقها بهذا الإحكام يكون قصاراه فناء ونفاذ ، ويتلاشى فلا يصح له معاد .

إن أحد البشر – على نقصه – يغار أن يدخل الفساد على فعله ، فكيف يدخل على فعل اللّه سبحانه الذى قامت السموات والأرض من أجله . قال اللّه عز وجل .: « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » (١) » .

ونحن نتبعه بما نشبع معناه إيضاحاً ، ونفصح بما تقوم حجة اللّه تعالى به على سامعيه افصاحا ، وهو قوله عز ذكره : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون (٢) . القوم المشار إليهم منافقون ، والدليل على نفاقهم ما تقدم من الآيات وما تأخر من قوله جل أسمه حكاية عنهم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا .. الآية » . ومعنى الإيمان التصديق ، وتصديق الشيء لايثبت إلا بعد المعرفة به ، فمن صدق بما لا يعرفه لم يكن مصدقا . قال اللّهّ سبحانه : « إلا من شهد بالحق وهو يعلمون (٣) » واللّه تعالى منزه عن أن يكلف عباده التصديق إلا بما فتح لهم نحو الإحاطة به الطريق ، إما من جهة حسهم ، وإما من جهة عقلهم . وقولنا : الحس ، كلمة جامعة معناها العين التى تبصر ، والأذن التى تسمع ، والأنف الذى يشم ، والفم الذى يذوق ، واليد التى تلمس ، وكل ما وقع تحت شيء من هذه الجملة يدعى محسوسا . وكل ما كان طريق معرفته من جهة العقل يدعى معقولا . وإذا كانت الأشياء عل هذه النسبة فلا

---

(١) سورة الدخان : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٣ .

(٣) سورة الزخرف : ٨٦ .

تخلوا من أحد قسمين : إما محسوسة وإما معقولة . وكان الذى أتى الشرع والكتاب والنبى ﷺ من أجله والدعاء إليه ، والترغيب فيه ، من حديث الآخرة والجنة والنار وذكر العرش والكرسى والملائكة خارجاً عن حكم المحسوسات ، فلا طريق إليه من جهة هذه الأدوات ، وكان المخالفون للدعوة ، والتاركون الاقتداء فى دينهم بالوصى والأئمة غير متمسكين بما أتى الشرع والكتاب به من الأمور التى شرحناها من جهة الحس لارتفاعها من أن تكون محسوسة ، ولا متمسكين بها من جهة العقل لمخالفتهم للوصى والأئمة ، الذين منهم يستفاد الوقوف على حقائق ذلك من جهة العقل فتكون معقولة ، كان تصديقهم بما أتى الشرع والكتاب والنبى ﷺ به من جميع ذلك تصديق مساعدة ، لا تصديق معرفة . والإيمان بغير معرفة ليس بإيمان، كما قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين [1] » .

وأهل الرأى ينكرون فى موجب العقل – أن الله يبعث من فى القبور ، وأنهم يقبلون ذلك تصديقا للرسول ﷺ لا من حيث إيجاب العقول . وكمثل هذا اعتقادهم فى اللوح والقلم والعرش والكرسى والصراط والميزان والملائكة ، يقبلون ذلك تصديقا للرسول ﷺ – بزعمهم – لا على أن شيئا منه يوحد فى مضمار العقل . فهذا هو الإيمان الذى لا يقبله الله تعالى ولا يزكى به أهله . وهو الإيمان الذى ليس بظلم ، كما قال الله تعالى فى كتابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون [2] » . قال المفسرون : عنى بالظلم ههنا

(١) سورة البقرة : ٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٨٢ . وما بين القوسين ساقط من ع .

الشرك [1] . وهو صحيح ، يدل عليه قوله سبحانه : « إن الشرك لظلم عظيم [2] » ، وقال جل اسمه في موضع آخر : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون [3] » .

والشرك ينقسم قسمين : منهما ما هو جلى ، ومنهما ما هو خفى ، والشرك الجلى شرك الثنوية والنصارى الذين يقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن يجرى مجراهم من القائلين بقديمين أو ثلاثة أو خمسة . والشرك الخفى هو الذى قال النبى ﷺ : « الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النملة فى ليلة ظلماء على المسح الأسود » وذلك مما غفل أكثر الناس عنه ، إلا من عصمه الله بفضله ، وهو الشرك بأولياء الله تعالى وحدوده الذين من أشرك بهم أشرك بمعبوده . فمن أشرك بوصى رسول الله ﷺ والأئمة من ذريته فقد احتقب أعظم جرم ، وكان ممن لبس إيمانه بظلم ، فحاق به الردى ، وعدم الأمن والهدى ، خلاف من قال الله تعالى فيه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » الآية .

---

(١) هذا من التفسير المأثور عن النبى ﷺ (الإتقان ٢/١٧٤) .

(٢) سورة لقمان : ١٣ .

(٣) سورة يوسف : ١٠٦ .

وأعلموا أن الله تعالى جعل حدود دينه آلة لكمال صورة البشر لنشأتها الأخرى ، كما جعل السماء والأرض وما بينهما آلة لكمال صورة البشر فى نشأتها الأولى ، فلو طلب طالب أن يبدل من الأدوات التى بها توجد الصورة الجسمية شيئاً بشيء ، فيزيله عن نظام الله سبحانه ، الذى نظمه ، أو يحدث فيها حدثا من رأيه ،فيقدم ما أخره ويؤخر ما قدمه ، أكان يصح لصورة جسمية وجود ، أم يحصل منها شيء مذكور معدود ؟ فإن كان ذلك ممتنع الإمكان مستحيل الكيان ، فكيف تأتلف الصورة الباقية للدار الآخرة ، بتبطيل آلاتها التى هى حدود دين الله وتعطيلها أو تغييرها بما ليس فى أفق شرفها وتبديلها ؟ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، وجعلوا لله أندادا ، ليضلوا عن سبيله . قل تمتعوا ، فإن مصيركم إلى النار ، (١) .

وإذا تكامل هذا الفصل فنحن نعود بكم إلى ما شرطنا إيراده فى معنى قوله سبحانه : ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس .. الآية ، ونقول : إننا أوردنا فى ذكر الإيمان ووجوهه المحمودة والمذمومة ما أشبع وأقنع ، وإن القوم المشار إليهم كانوا من أهل الإيمان المشوب بالشرك على ما قدمنا ذكره ، فندبوا لأن يؤمنوا كما آمن الناس . وكما قلنا أن الإيمان منه ما هو خالص لله سبحانه محمود ، ومنه ما هو مشوب بالشرك مذموم . وكذلك الناس منهم من هو خالص للرحمن، ومنهم من فيه نصب للشيطان، كما قال الله سبحانه: ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم (٢) ،

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٨ – ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء : ٦٢ .

وقوله سبحانه : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس » يوهم أن القوم المدعوين إلى الإيمان ليسوا من الناس ، وهم ناس لا محالة من حيث صورهم ، وأشكالهم الطبيعية ، فإذا ليسوا بناس من حيث مقاديرهم النفسانية ، وإنما قيل لهم آمنوا كما آمن الناس لتصح المناسبة بينهم فى المقادير النفسانية كما صحت بينهم بالأشكال الجسمية . وقد قيل : من أشبه أباه فما ظلم ، يعنى ما وضع الشبه فى غير موضعه .

وإذا كان تشبه المواليد من حيث الأجسام بآبائهم وأمهاتهم واقعا موقع الحمد ، كان تشبه المواليد الدينية بالرسول ووصية اللذين هما أبواهم والإمام وبابه أوقع فى مكانه من الهداية والرشد ، والناس المشار إليهم ، والمدلول عليهم هم الأئمة ، يدل على ذلك قولى الله عز وجل : أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [1]» ، قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام . « نحن الناس المحسودون على ما آتانا الله من فضله » يعنى الخلافة والإمامة دون الناس جميعا « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما [2] » أى جعلنا منهم أئمة، من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله. وهذا هو الملك العظيم فكيف يقرون به فى آل إبراهيم وينكرونه فى آل محمدﷺ. والأنسان المطلق فى كل زمان واحد وهو النبى ﷺ فى وقته والوصى فى وقته وكل من كان أقرب إليه قربة دينه ، وأشبه به من جهه علمه ويقينه كان أحق بميسم الإنسانية، وأبعد من جناسة البهيمة الحيوانية .

---

(١) ، (٢) سورة النساء : ٥٤ .

وقوله جل اسمه حكاية عنهم : « قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » . السفه يوجد في ثلاثة أشياء . في اللسان وفي الرأي وفي المال ، وهو أن يتلفه المرء أو يضيعه قال الله سبحانه : « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ، وأرزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » [1] وإذا اعتبر ذلك في وجه الظاهر المتعارف لم يتطرق على النبي ﷺ ولا على من كان معه شيء من هذه الأقسام إذ كان النبي ﷺ قبل نزول الوحي يدعى الأمين في قومه لثخانه [2] عقله ، واشتهار فضله ، واستكماله للخصال الرضية والأخلاق المحمودة المرضية ، حتى قيل إن الله سبحانه أنزل فيه . « فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون [3] » . وقالوا معناه إنهم لاينكرون مكانك في الأمانة والصدق ، لسابق علمهم بأنك الأمين الذي لايخون ، إنما جحودهم لآيات الله من دونك . وهذا المكان يحتاج فيه إلى فضل نظر ، لأن الله سبحانه قال : « فإنهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ولم يقل « بأيات الله يكذبون » فيكون القول نسقاً على التكذيب ، بل قال « يجحدون » ومعنى الجحود الدفع بعد المعرفة كما قال الله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [4] » . ثم أنه كنى عنهم بالظالمين ، ولم يقل الكافرين ، ولو دفعوا القرآن الذي هو كتاب الله تعالى لكانوا كافرين . وجميع ذلك دليل على

---

(١) سورة النساء : ٥ .

(٢) الثخانة والثخونة الشدة . يقال : أثخن الشيء معرفة أي علمه حق العلم .

(٣) سورة الأنعام : ٣٣.

(٤) سورة النمل : ١٤ .

وجه التأويل الذى أشرنا إليه من حال القوم الذين لبسوا إيمانهم بظلم ، والظلم هو الشرك ، كما قدمنا ذكره . فهؤلاء لا يكذبون النبى ﷺ فى رسالته ، ولم يقعدوا عن أمره ونهيه ، ولكنهم جحدوا بوصية والأئمة من ذريته الذين هم آيات الله وأعلامه، بعد المعرفة بمكانتهم فى الدين والإسلام ، فكنى عنهم بالظالمين من جهة الشرك بهم : « إن الشرك لظلم عظيم » ولم يكن عنهم بالكافرين فيخرجهم من الإسلام .

وأما الكناية عن السفهاء فهى تعريض بدعوة الوصى والأئمة المؤسسة على البراءة قبل الولاء ، على مثال قول الله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى [1] » ، فلم يثبت الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت . وكما قال الله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم [2] » ، فقدم الاستعاذة على القراءة . قال الله سبحانه : « ألا إنهم هم السفهاء » سفه الرأى فى إضاعه حظهم من دين الله ، وحقهم من علوم أولياء الله القائمة النفوس والعقول مقام كنوز المال للأجسام ، وتهاونهم بأقدار نعم الله سبحانه فيهم الجسام ، ولكن لا يشعرون .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة النحل : ٩٨ .

وأنتم تسمعون الآن ما نقرؤه عليكم من شرح ما يلى ما تقدم ما يجزل الله لكم بتصفحه فى دينكم النعم ، قوله سبحانه : « وإذا لقوا الذين آمنوا ... الآية » فهذا نعت المنافقين . والنفاق مشتق فى اللغة من نافقاء اليربوع ، وهى جحر ذات أبواب ، إذا أخذ عليه باب خرج من باب آخر ، فذلك شبه المافقين . وقد كان على عهد رسول الله ﷺ اجتمع قوم من المنافقين الذين وجمت نفوسهم من اتخاذ على عليه السلام وصيا ، والأئمة من ذريته قدوة للناس وأئمة ، فتشكوا فيما بينهم ، وقالوا لنا السن والقدامة [1] والسابقة ، وقد زويت عنا الحظوظ كلها . وتقوسم عليها ما بين العم والصهر وبنى البنت ، وما كنا ممن يصبر على ذلك ، أو يتقلد لرياستهم قلادة ، أو يعطى لطاعتهم مقادة ، وائتمروا على ذلك القول . وكان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه ممن أطلع على هذه السريرة ، فاستحلف على سترها وصونها فتحلى برأيه وقال : « إن الحنث فى طاعة الله سبحانه ورسوله ﷺ بر ، والبر فى معصيتهما حنث وكفر » .

فجاء إلى النبى ﷺ بذلك ، وقص عليه القصص ، فلما سمع النبى ﷺ بذلك منه عاتب قوما منهم عليه ، وقبح إليهم قبيح ما أجروا إليه ، فخلفوا بالأيمان المغلظة أنهم ما قالوا شيئاً من ذلك ، ولا لفظوا به ، ولا مالوا إليه ، ولا تعرضوا له ، حتى أرتاب النبى ﷺ لقول أبى ذر الغفارى رضى الله عنه وقال : « لئن لم تأتنى آية من السماء بصدق ما قلت ، لآخرجن لسانك من قفاك ، فعند ذلك نزلت عليه ﷺ الآية: « يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما

(١) القدامة : القدم .

ينالوا » (١) . ثم قال النبى ﷺ : « ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر » . فهذا ما جرى فى الصدر الأول ومثله مستمر فى عصر الأئمة عليه السلام إذ كان الأمر كما قال الله سبحانه : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين » (٢) .

والذى يجرى منه مجرى العموم إنه إذا خوطب المنكرون لمكانة أهل بيت النبوة على ما أوجب الله من حقهم ، وأكده من فرضهم ، قالوا إنا لهم موالون وبفضلهم معترفون مقرون ، وإذا خلوا إلى شياطينهم الذين أسدوا لهم المرتبة ، وقمصوهم الإمامة والمنزلة العلية قالوا : إنا معكم إنا نحن مستهزئون .

ولم يجر فى معتاد ولا متعارف لمن تقدم أن أميراً من أبناء الأمراء يقع الائتلاف من قومه على طاعته ، والاجتماع على موالاته ومتابعته ، ثم إذا مات تصد عشيرته الأقربون عن تراثه ، ويقصدون بالقتل والنهب والظلم ، ومملكته قائمة ، وسنته فى قومه باقية .

إن ذلك عين الاستهزاء لو كان ، فكيف يجوز اختصاص خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ بهذه القباحه من الظلم الذى ما تطرق مثله على السابقين والمتأخرين أو ليس القوم المدعون أنهم من أهل ملته ، والمنتظرون النجاة بشفاعته ، إذا ارتكبوا

---

(١) سورة التوبة : ٧٤ .

(٢) سورة الفرقان : ٣١ .

هذا المرتكب فى بنيه وبنى بنته وعشيرته عليه السلام هم المستهزئون بهذه الدعوى إن لم يكن قولا ففعلا ، والمظاهرون بلفظ لا يشده المعنى . اللّه يستهزىء بهم بتعكيس فعلهم عليهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون .

وأنتم تسمعون آنفاً ما يتلى عليكم من معنى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » الضلالة مأخوذة من ضلال الطريق ، والهدى من هدايته والإنسان مادام موجوداً فإنه قائم على متن الطريق ، فيما يهديه إلى صلاح معاشه ومعاده ، أو يضله عنهما ، وليس الغرض طريق مسلك يسلكه أو منفذ ينفذ فيه . وقد يقال : اهتدى الطريق لمن أصاب رأيه وأنجح سعيه ، وإن لم يتحرك بجسمه ، كما يقال : ضل عنه لخلاف ذلك وإن لم يتزحزج عن مكانه بحملته .

فأما الكلام ههنا من حيث الحقيقة فإن الإنسان من بدايته إلى نهايته محمول على طريق ، فمنه ما يسلكه جبرا ، ومنه ما يجب عليه سلوكه إختياراً . فهو فى إبتداء موضوع جسمه من صورة النطفة والعلقة مناسب للنبات ، ينمى كما ينمى ، ويربو كما يربو ، إلى أن يحصل فيه الحس فإذا حصل فيه الحس كان مناسبا للحيوان غير أنه إذا وضعته أمه يعجز عما يكون عليه أكثر الحيوانات من كفالتها بنفسها ، ومعاونتها لآبائها وأمهاتها فى تربيتها وإنشائها ، بل يكون محيراً مباداً ، كأنه قطعة لحم ، والحيوانات يكون فيها إستقلال ما ، ونهضة ما ، وهذا مدفوع عن ذلك كله . والحيوانات تولد بكسوتها ولباسها وأنيابها ومخالبها وجميع ما تحتاج إليه ، وهذا على ضد هذه السجية . والحيوان يقنعه النبات الطالع من الأرض ، واللحوم النيئة قوتاً ، وهذا لا يصلح له شيء منها . والحيوانات إلا شواذ إذا رمى بها فى الماء حركها التمييز للعوم وتحريك اليدين والرجلين وتخليص أنفسها إلا القردة ، وهذا بخلافه . وإذا حاول الإنسان دفع شيء منها ليرميه من فوق إلى أسفل تمنع من ذلك علما بخلوص الضرر منه إليه ، وليس كذلك أطفال بنى آدم .

فهذه حالة الحيوان ، وتلك حالة الإنسان ، والسبب فى جميع ذلك ما ذكرنا أن ليس للحيوان غير دار الدنيا شىء ، وهى دار كما لها ، فقد أزيحت علتها فيما تحتاج إليه ، لحفظ صورتها ، وأما الإنسان فإنما هو فى معبر من هذه الدنيا ، ودار كما له الآخرة ، وصورته النفسانية تقوم وتكمل بالعلم ، والدليل عليه أن صورته الجسمية الطبيعية لا نهوض لها ولا قيام إلا بأمور علمية ، ولا يصلح لها من الغذاء إلا ما عملت فيه الصنائع العلمية ، كفعل الفلاحين فى مزروعاتهم إلى أن تنجب ، وهى صناعة علمية على حدة إلى أن ينساق العمل إلى الطحن الذى هو صناعة علمية ثانية ، حتى ينتهى إلى العجن والخبز الذى هو صناعة برأسها علمية ، وإلى أن تحصل اللقمة فى فم الإنسان يحتاج إلى مقدمات لها كثيرة علمية . وكذلك كل ما هو فيه من ملبوسه وطبيخه يحتاج فيه إلى حذق وتدقيق علم ، وكل ما كان تدقيق العلم فيه أكثر وأوفر كانت ملاذه إن كان مأكولا ، أو حسنه إن ملبوسا أكثر وأوفر ، وكل ما كان حظه من إنعام النظر أنقص ، كان أحط درجة وأنقص .

فإذا كانت الصورة هذه . وحصل الإنسان فى هذا المعبر من دار الدنيا ، ولم يبق له غير درجة واحدة ، حتى يحصل فى عالم كما له ، ودار فوزه ونجاته ، وكان العلم هو الذى يريش سهمه ، ويبلغه مأمنه ، والنبى ﷺ مدينته ، والوصى بابها ، والأئمة من ذريته القوام عليه ، فجاء هذا ينازع أهله ويوليهم ظهره ، أتراه يهتدى لقصده من دار الكمال . أم يأخذ بحقه من التيه والضلال ؟ فقد خلصت زبدة قوله سبحانه : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » .

وأما قوله : « فما ربحت تجارتهم ... الآية » الدنيا متجر الناس ، وعلى قدر

التجارات تكون الأرباح ، ويمقتضى التوجه فيها والخلف عنها يقع الفساد والصلاح ، فجميع ما ندب الله سبحانه إليه من فعل الخير ، واعتماد التقوى والبر ، فهو من المتاجر الرابحة المؤدية إلى العقبى الحميدة الصالحة ، والمقصود بمعنى الربح النمو والزيادة ، والإنسان يقبل من النمو والزيادة بلطيفه الذى هو نفسه ما لا ترتقى إليه الأوهام ، وليس تكاد تنال شيئا من هذه المثالة [1] الكثائف التى هى الأعراض والأجسام ، إذ كان النبى ﷺ فى عصره ، والإمام فى عصره يحمل نفوس العالمين بقوة علمه ، ويضبطها بروابط عزمه وحزمه . وكذلك العلماء على أقدارهم يحمل كل عالم منهم نفوس عالم ، والحمال الجلد الجليد إذا حمل مثل وزنه أو مثليه ، فقد قضى قصوى ما كان عليه .

وقد استفاض فى الروايات التى يرويها قصاص العوام عن النبى ﷺ أن العبد المثاب الذى آمن واتقى ، سيكون له فى الجنة قصر عرضه كعرض السماء أضعافا مضاعفة ، وإنما خوطبوا على شىء خفى عليهم محصوله ، وبقى لهم قشوره ، وذلك لأنهم فزعوا إلى الأهواء والآراء ، وتخلوا عن الهداة والأدلاء ، فغرب عنهم علم الروحانيات التى تقبل التضعيف ، واعتمدوا فى الجسمانيات هذا الركيك من القول الضعيف ، وإن كان القصر على عظمه وكبره مذخورا لهذا الجسم على صغره ، فحقيق أن يستوحش منه أكثر من أن يستأنس ، إذ أخرجوا المقادير النفسانية على الأشكال الطبيعية الجسمانية ، لما غلبتهم الآراء ، وعليهم عميت الأبناء ، وكانوا ممن قال الله سبحانه فيهم : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم

---

(١) المثالة الفضل من مثل الرجل بضم الثاء أى فضل فهو مثل .

انظر : لسان العرب لابن منظور

عن الآخر هم غافلون (١) » . والإنسان مادام فى دار الدنيا وهو فى قرار الدعوة ، وحضن الأئمة فإنه كالجنين المستجن فى المشيمة ، ولذلك قال النبى ﷺ : « السعيد من سعد فى بطن أمه ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، ولولا صواب التأويل لكان هذا الخبر لظاهره مصروفا عن الصواب ، ولولا المشار اليه من ذكر الأم الدينية وحضنها لكان محيراً للألباب . فإذا انشقت عنه المشيمة صار فى فضاء عالم العقل والنفس الذى فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيكون ما انتقل إليه منه بالقياس إلى عالم الجسم الذى انتقل عنه كقياس دار الدنيا على فسحتها إلى المشيمة على ضيقها . وهى لعمر الله التجارة الرابحة والفضيلة الواضحة . فإذا تخلى عن حضن أولى الأمر الذين بهم يتصور صورة النجاة ، وبالانضمام اليهم يوصل إلى دائم الحياة ، تنكس عليه فى كما له قصدة وتعكس فى خلقه فخانه رشده، وخسر رأس المال المال من عمره الطبيعى، وعدم الربح الذى كان معرضا له لو أطاع، بالفوز الأبدى «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين(٢)» .

---

(١) سورة الروم : ٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٦ .

أعلموا أن أجسام البشر منشأة من طبائع مختلفة ، وأمزجة غير مؤتلفة ، منها عجنة البهائم بعينها ، وطينتها بعيانها ، فأن الرذائل التى هى الغيظ والغضب والحسد والطمع وما يناسب ذلك مركوزة لها فى الطباع ، وحاصلة معها فى أصول الأوضاع فكل جنس ممن هو بصورة الإنسان يتطبع بطبع ما يناسبه من الحيوان . فقوم يتشبهون فى الاستكلاب على الناس بذوى الأنياب والمخالب ، المعرضين لفريستهم فى شق بطونها وأكل لحومها للمعاطب ، وقوم يستنون فى اللدغ واللسع بسنة الحيات والعقارب ، وقوم يتطبعون بتطبع الحمر والبقر ، يجرون مجراها بالسير، حت ينقسم سائر أجناس الناس بمختلفات طباعها إلى أجناس الحيوان ، كل يسعى لعاجلته ، بل كل يعمل على شاكلته ، وان العقل من الصورة الإنسانية نازل بدار غربة ، ومحل وحشة وكربة ، قد مالت الطباع عليه ميلة واحدة ، وصارت على مضادته مساعدة .

وعلى هذه القضية ، فإن محل أولياء الله الطاهرين من العالم الكبير محل العقلى من صورة الإنسان الذى هو العالم الصغير ، قد مال عليهم أعداء الله من كل جهة وقصد وهم من كل جهة على مثال ميل الطباع التى هى أس الرذائل على العقل الذى هو بيت الفضائل ، فلا يستغرب ما يصدر من دهر هذا موضوعه من أمر لا يحسن مرآه ، ولا يطيب مسموعه .

وقد كان قرىء عليكم فى معنى قوله الله سبحانه . ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، ما دللتم به على المتجر الرابح بالقول الجلى الواضح ، وأورد عليكم أن طالب هذه الأرباح فى الجسمانيات خائب ، وفى الروحانيات مصيب رأيه

صائب ، وضرب المثل فى ذلك بعالم يحمل نفوس عالم من الخلق ربطا بعلمه ، وشدا لفهمه ، وأن الحمال الجلد القوى اذا حمل وزنه أو مثليه فقد قضى ما عليه ، وبقى فى ذلك كلام يورد عليكم ، وتنساق فائدته اليكم ، وهو أن المتجر الرابح لمن كانت مع الله سبحانه تجارته ، والى طاعته وطاعة أوليائه لخلاص روحه مهاجرته ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوارة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم [١] » .

ومعلوم أن نص هذه الآية وحكمها لايكاد يطرد إلا على أهل دعوة الأئمة من آل محمد ﷺ المعطين لهم صفقة المبايعة ، فأما من تعدى الدعوة وأهلها فلا بيع ولا شراء هناك . والتجارة الرابحة ما نضرب به مثلا يسهل معه عويص الكلام . ونسوق دقيق معناه إلى الأفهام ، فنقول . إن النطفة التى صادفت قرارا مكينا لاتزال بقبول أشعة الشمس والقمر والكواكب ، والاستعداد من قوى الطعام والشراب – تنال من النمو والزيادة يوما فيوما ، وحالا فحالا ما تبلغ به كمال الصورة جسما ماثلا ، ويدا باطشة ، ورجلا ساعية ، وعينا مبصرة ، وإذنا سامعة . فإذا اعتبر المعتبر حال النطفة من حد كيانها إلى منتهى حد كما لها وجدها قد كسبت من أرباح النمو والزيادة مالا يذكره لسان ذاكر ، ولا يحصره وصف حاصر .

---

(١) سورة التوبة : ١١١ .

وعلى هذه القضية ، فإن النفس الناطقة لصورة الدار الأخرى بمنزلة النطقة لصورة دار الدنيا ، فإذا اتصلت بها أشعة شمسها وقمرها ونجومها المشرفة من عالم العقل ، واستمدت من قوى الطعام والشراب من ذلك القبيل - نالت من النمو والزيادة ما تبلغ به كما لها . وكما لها هو الحد الذى تضيق عنه أرجاء الفكر ، فضلا أن يدور به لسان الذكر . قال النبى ﷺ فى صفة الجنة : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وما كانت هذه صورته ، فقل فى ربحه ما شئت ، فقد اتسع لك فى القول الميدان ، وحل من عقدة اللكن اللسان .

قد سمعتم ما قرىء عليكم من باطن العلوم ، ما وقعت الإشارة به إلى السر المكتوم ، وإن له صاحبا لا يجليه لوقته غيره ، وإن القدر المتعجل نفعه وخيره ، مما يخرج إليكم ، ويجود به أئمتكم عليكم هو الذى قال الله تعالى : « إلا قليلا مما تأكلون [(١)] » من كثير ترك فى سنبله ، واستبقى على جمله . وإنما القصد به استنشاء صوركم لدار البقاء ، إذا توجهت صوركم الجسيمة للفناء فى دار الفناء ، ثم إقامة الحجة عليكم للوقت الذى أخبر الله سبحانه عنه فى كتابه : « هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل [(٢)] » وغمطوا حق أوليائهم فيه إذ غلبهم الهوى والجهل . فتلقوا بإقبال من هممكم عليه ، ومد لأسماعكم إليه ، فإنه يشيد لكم مجدا من حيث لاتشعرون ، ويعقد لنفوسكم صورة كصورة الأجنة فى الأرحام ، وأنتم لاتبصرون ، قال الله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما

---

(١) سورة يوسف : ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٣ .

أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون [١] ، وقال بعض أهل التفسير إنه عنى بالنار غير النار المألوفة ، وإنما هى سلطان الشريعة [٢]، فلما قوى واستفاض فأضاءت ما حوله بتشعبه إلى كل جانب ، وأخذه كل مأخذ قريب وبعيد ، ذهب الله بنورهم ، أى سبيلهم حظهم منه ، ونزع لهم نصبهم عنه ، وهذا محض التأويل ، ساقهم الله بنواصيهم إليه ، وأخذ بخنافهم إلى الوفود عليه . وكذلك فقد أجمعوا أن النار هى السلطان لمن يراها فى منامه . والعجب أنهم يعترفون بهذا كله ، فإذا جيء بهم إلى قصة موسى عليه السلام إذ « آنس من جانب الطور نارا » [٣] نسوا ذلك كله ، وتركوا جميعه ، وحملوا الأمر فيه على الظاهر المحض أن النار كانت هذه النار المعروفة بعينها وأنه لا شيء غيرها ، والنار عنصر شريف ، جعلها الله سبحانه سببا لإنضاج كل شيء نيء ، وهى قريبة من حيث كمونها فى كل شيء ، بعيدة من حيث ليس لها عين موجودة كوجود التراب والماء ، وتسخير الله لها للشكل الآدمى من دون باق الحيوان أعجب وأعجب باستخلاصه لها من بين الأعواد والحجر والحديد ، وإعداده لها خرقا محرقة بعض الإحراق ، مختنقة بالنار متهيئة لقبول آثارها وإذا وردت عليها ، وتعديل الكبريت عند وقودها فى تلك الخرق لتكون المنار تخطفه بما فيه من النارية ، والمناسبة القوية ، ولولاه وما هو من جنسه لم تعلق النار التى هى فى الخرق بضعفها بالحطب

---

(١) سورة البقرة : ١٧ .

(٢) انظر تفسير الطبرى . الآية ١٧ من سورة البقرة ١/٣١٨ .

(٣) سورة القصص : ٢٩ .

والأخشاب على صلابتها ، ثم إذا علقت بالكبريت الذى هو على طرف الحلفاء وما يناسبها من النباتات الجافة ، وتعدت منه إليها أدنى منها الأساس من الضرام ، ثم إذا علم بأنها قويت طرح عليها ما تأكله ، ولربما انتهت إلى حيث لايملك ولا يقدر عليها بفضل إستعلائها وغلبتها وسطوتها .

وهذا التدرج إذا استقرىء فى الترتيب الدينى ، وتتبع فى الشخص الإنسانى، وكمون الإنسانية فيه ككمون النار فى الزناد ، وكونها إذا عدمت القادح لها والمدرج بها إلى غايتها من أولياء الله سبحانه وحدود دينه ، انتفضت عليه خلقته ، وبطلت إنسانيته – علم أفتقار الناس إلى النزول بفنائهم والاستضاءة بضيائهم ، وأن المفلح من قبلوه ، والخاسر من أهملوه ، وسوى هذا ، فكما أن النار موجودة فى كل شيء من الحجر والمدر والشوك والشجر ، وليس لها قادح غير شكل الآدمى بتدبيره النفسانى وتمييزه العقلى ، فههنا نار ثانية ، وهى التى آنس موسى عليه السلام من جانب الطور ، وهى روح القدس ، أعنى تأييد الرسالة والوصاية والإمامة التى هى حقيقة السلطان من الله سبحانه على الأرواح والأجساد وأمتلاك صفحة الدين التى تنشأ عليها صور المعاد فه – آعنى تلك النار – من حيث الفيض الإلهى قريبة ، ومن حيث عدم القادح لها بعيدة ، فلا يكاد يستخلصها ويسخرها إلا الأولياء الذين هم خاصة أناسى ذلك العالم ، كما لايستخلص هذه النار الطبيعية ولا يستخرجها إلا الأشكال الآدمية الذين هم أناسى هذا العالم ، مثلا بمثل .

قال اللهّ سبحانه يصف من انتظم بفى سلك طلاب الآخرة انتظاماً : « والذين لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما [١] ، شهادة الزور معلومة ، وطريقة المتحرز فيها مذمومة . والزور فى وجه من وجوه المعانى دار الدنيا ، وهى دار الكذب التى وعدها مكذوب وخيرها مسلوب ، والذين لايشهدون الزور هم خلص المؤمنين ، لايشهدونها بنفوسهم وعقولهم اختيارا ، وإن شهدوا بجسومهم وأبدانهم إجبارا . وجاء فى بعض التفاسير فى قوله سبحانه . « واجتنبوا قول الزور [٢] ، أن الزور هو الغناء ، وهو صوت ، وجرس مستطاب يملأ الحس . فإذا سكت لم يبق منه محصول ، وتلك صفة الدنيا ، يحسب ذو النصيب منها أن يديه علقتا بشىء ، فإذا سكت خطيبها كان ذلك زورا ، والمحصول منه هباء منثورا ، ثم قال الله تعالى تلو ذلك . وإذا مروا باللغو مروا كراما [٣] ، (اللغو ما يلغى ويلفظ ، ولابد من المرور باللغو) ولكن من شرط المارين به أن يمشوا كراما . وأحوال الدنيا كلها اللغو لايصحب المرء شىء ، منها إلى الآخرة ، فحكم العاقل أن يتجافى عن اللغو ومر عنه كريما ، ولم يمسه قذره ، ولم يعلق بلباسه وضره [٤] .

وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم فى تأويل قوله عز وجل . « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً [٥] ، أى علق بحبل الرسول المؤيد ، صاحب السلطان – من عند الله

---

(١) سورة الفرقان : ٧٢ .

(٢) سورة الحج : ٣٠ .

(٣) سورة الفرقان : ٧٢ .

(٤،٥) سور البقرة ١٧ .

سبحانه – المؤيد والمجد المشيد . « فلما أضاءت ما حوله » يعنى استفاضت أنوار النبوة يمينا وشمالا ، وتفرعت بوصاية الوصى ، وإمامة الأئمة من ذريته « ذهب الله بنورهم »[1] يعنى بحظهم من تلك الأنوار ، لما تداخلهم من الحسد والاستكبار، وقد ورد فى التفسير فى أن النور هو القرآن ، يدل عليه قوله سبحانه فى شأن النبى ﷺ « فالذين آمنوا وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه »[2] . وهذا تأويل محض ، فإذا اعتبر ذلك فى ظاهره لم يصح نور إلا النار والأجرام السماوية . قول الله سبحانه . ذهب الله بنورهم ، غير مقتض أن القوم سلبوا أنوار الأعين بنفاقهم ، ولا أنهم سلبوا القرآن أيضا ، فكثير من أهل الشرك والكفر يحفظون القرآن وبعضه ، وليس يكاد يحول بينهم وبينه[3] ، فإذا لا اعتبار ههنا بلفظ القرآن[4] ، ولا بظاهر تفسيره ، إنما الاعتبار بتحقيق معناه ، وهو الذى ذهب الله به . وحرمهم فضله .

وقوله سبحانه : « وتركهم فى ظلمات لايبصرون »[5] ، الظلمة فى العين

---

(١) سورة البقرة : ١٧ .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧ .

(٣) أى بينهم وبين الكفر .

(٤) هذه جرأة من المؤيد على القرآن الكريم .

(٥) سورة البقرة : ١٧ .

استغلاق باب النظر عليها ، إذا قامت للنظر والظلمة فى القلب إستغلاق باب المعارف عليه إذا نهض للتفكر ، والظلمات الأجسام لا أرواح فيها ، والألفاظ لا معانى فيها ، والعبادات من غير معرفة المقصود بها ، وتلك الظلمات الحقيقية المؤدية إلى الظلمات الأبدية ، والظلمات التى هى « المتعارف [(١)] » مجازية لكونها متناهية بتناهى الأجسام ، وكون تلك باقية على الدوام . قال الله تعالى ، « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور [(٢)] » عنى به من ضيق الأمثال إلى سعة – المعانى ، المؤدية إلى العالم الباقى من العالم الزائل الفانى ، فأشركوا بالمعبود « والذين كفروا أوليائهم الطاغوت [(٣)] » الطاغوت فى اللغة فاعول من طغى وهو الذى قال اللّهه سبحانه : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به [(٤)] » . وإن حمل الأمر فى الطاغوت على ظاهره لم يوجد قط من قال ، ولا يوجد من يقول : ولى الطاغوت ، ولا من قال : أريد التحاكم إلى الطاغوت ، والكذب من الله سبحانه ممنه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فإذا الحكم لله سبحانه ولرسوله ﷺ ووصيه والأئمة من بعده . وكل من تحوكم إليه من غيرهم ، أو من قام بغير أمرهم فهو الطاغوت ، وإن سماه الناس إماماً .

---

(١) يقصد بالمتعارف هنا الظلمات بمعناها اللفظى الظاهر .

(٣،٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٤) سورة النساء : ٦٠ .

« يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أى يصدونهم عن أهل النور وحفظته وخزنته ، والثقل الأكبر من أهل بيت رسول الله ﷺ الذين يسرحون فى فضاء عالم العقل والنفس والإخبار عنه والترغيب فيه والدعوة إليه . إلى الظلمات ، أى الألفاظ بال معنى ، المناسبة للأجسام الضيقة الحرجة المظلمة الترابية ، والدر الدنيا المظلمة ، إذ كانوا من خطابها وطلابها ، ومتطلبى زخرفها وزبرجها [1] وعنها يستنسخون ثواب الله فى داره التى فيها ملا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ليس كما يظنون أكلا كأكل ، وشبا كشرب .

« صم بكم عمى فهم لايرجعون ، قد تقدم ذكر الصمم والعمى والبكم أنه من حيث النفوس اللطيفة ، لا الأجسام الكثفة ، فإنه لو كان من حيث الأجسام لكانوا معذورين ، بل على فقه الحواس مأجورين ، فلا رجوع لمن هذه حاله ، ومتقطعة من النجاة آماله .

---

(١) الزبرج - الزينة والحلية من وشى أو جوهر أو نحو ذلك .

فمعلوم أن للمرء من جسمه طالبا ، لا ينى فى طلب ما يغتذيه من حلو المأكولات ومرها ، وقضاء أربه فيما يشتهيه تحصيلا من خير الوجوه وشرها ، وأن له سوى ذلك من نفسه – إلا أن تكون بهيمة عجماء معنى طالبا للوقوف على حقائق الأمور من مقتضى الولادة إلى حين الحلول فى القبور ، ينتصب للبحث عما أوجب إبادته بعد الإنشاء وإماتته عقيب الإحياء ، ويتفكر فى عجيب خلق الأرض والسماء .

هذه الحالة أيها المؤمنون للنفوس بمنزلة الجوع للاجساد ، وكلاهما يجوع فيجد فى طلب الزاد ، فلا المأكولات الشهية تسد مسداً تنفع حيث حلت المجاعة النفسية ، ولا المعارف الألهية تنفع حيث أرهقت المجاعة الجسمانية ، بل كلاهما يطلب غذاءه من جنسه ، ويستجر ما يلائمه إلى نفسه . فمن قعد بنفسه عن التغذية فى مجاعتها فقد جنى عليها ، وسعى فى إضاعتها . كيف وهو يخوض لغذاء جسمه التيار ، ويركب فى إزاحة علته فى مشتهياته الأخطار والعلة فى وقوع الاشتداد والسعى للاجسام ، فى سوق مشتهياتها إليها من الشراب والطعام ، والقعود بالنفوس الشريفة التى هى أحق لها والقيام أن الأجسام قائمة بحد الفعل فى دارها من عالم الأجسام ، والنفوس فى حد القوة ومحل الغربة ، غير واصلة إلى كمالها فى دار الكمال والتمام . وسنمثل لكم أيها المؤمنون فيه من الأمثال ما يقرب متناوله من القلوب والأفهام . معلوم أن هذه الجوارح التى يقع الانتفاع بها فى دار الدنيا لجذب المنافع ودفع المضار ، كمثل الأيدى والأرجل والأسماع والأبصار ، موهوبة من اللّه سبحانه للأجنة فى بطون أمهاتها فى مكان لا يكون بها انتفاع ، ولا لها استعمال ، ولا يوجد بوجودها نهضة لها ولا استقلال ، وإنما ذلك يفضى مجاز المنفعة فيها إلى

التحقيق . وكمثل ذلك فإن الأعمال الشرعية والعلوم الربانية التى بها تكتسب النفوس صورها الشريفة الأبدية ينتفع بها فى دار الدنيا على حسب إنتفاع الجنين بجوارحه فى بطن أمه ، فإذا ما هناك طائل من الانتفاع ، إنما هى مشاق فى العاجل من التكاليف والأوضاع ، ولكن عند الصباح يحمد القوم السرى ، إذا بان اللطيف عن الكثيف ، وهو الكثيف فى الثرى ، فهنالك إن كان اللطيف مستكملا لصورته ، مستوفيا لما يقوم منه مقام الجوارح للجسم من آلته ينعم أبد الآبدين فى نعيم آخرته ، وإن كان به نقص وزمانة من حيث الوقوف عن عبادة معبودة ، والاشراك بحدودة، فهنالك يظهر الضرر ، و « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » كما قال الله تعالى : « ولتعلن نبأه بعد حين » وهو الداء العضال ، والمرض الذى ليس منه — نعوذ بالله — إبلال ، فالجوع النفسانى مستكن كالزمانة النفسانية فى الغطاء ، ومن أجله يقع التربص من صاحبه يطلب الغذاء . ولو كانت له فورة كفورة الجوع الطبيعى لكان يبذل فيه المهج كمثله فى طلب القوت الجسمى ، ثم لم يكن بالنسى المنسى .

وإذ قد قدمت هذه المقدمة فيعاد إلى حيث إنتهت التلاوة والشرح إليه ، وتوقفون بإذن الله عليه . قال الله سبحانه . « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين [(١)] » . الصيب من السماء هو المطر الذى به حياة التراب والمزارع بالنباتات المتنوعة المؤدية إلى إتساع الأغذية التى بها نشأة الحيوانات المختلفة . وقد كنى الله سبحانه عنه بالرحمة بقوله تعالى . « ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى

(١) سورة البقرة : ١٩ .

رحمته [1] » . وقد يكون فيه إذا كثر أو جاء فى غير وقته الخسوف والهدات والصواعق – نعوذ بالله – والهلكات .

وكمثل ذلك الوحى الموحى إلى الأنبياء ﷺ الذى هو الرحمة التى بها تخصب مزارع الحكمة ، ومنها يستفاد سوابغ النعمة ، وعنها تنشأ الصور الدينية والأعيان الملكوتية ، وهو أولى أن يسمى رحمة ، وأبلغ لكونه للبقاء ، وكون المطر للغذاء . وقد قال بمثل هذا التفسير المخالفون من أهل التفسير ، وأوردوا ما لا عدول بهم عنه عند التقرير ، فقالوا فى قوله سبحانه : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها [2] » : إن ذلك هو الوحى إلى الأنبياء « فسالت أودية بقدرها » يعنى احتمل الأنبياء الذين شبهوهم بالأودية كل على قدر حظه من الفيض الإلهى . فهذا هو التأويل بعينه .

---

(1) سورة النمل : ٦٣ .

(2) سورة الرعد : ١٧ .

وأنتم تسمعون ما نورده عليكم من شرح تمام الآية بالتفصيل ، وإيضاحه فى معنى الحكمة والتأويل ما يرفع اللهّ به قابليه ، وينبههم للاعتراف بفضيلة قائليه .

قوله جل اسمه : « فه ظلمات » كناية عن المطر ظاهراً وعن الوحى كما قدمنا ذكره باطنا. فالظلمات التى فى المطر معروفة، والتى فى الوحى فانها الأمثال المضروبة التى لا يوقف على معانيها على ما تقدم الشرح به فى ذكر الطاغوت الذى يخرج من النور إلى الظلمات ، وأما قوله تعالى : « ورعد وبرق » فالرعد صوت هائل خلص من اصطكاك الريح والسحاب . وقد يقال إنه تسبيح ملك ، وهو ما يتضمن الشرائع من الاعذار والانذار والتخويفات والتقريعات . ومنه يقال للمهدد : أرعد وأبرق . وقال سبحانه : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » والبرق لمع هائل من النار على عجل . وكنا شرحنا ذكر النار فيما تقدم مشبعا . والبرق يغلب الأبصار ، ويكاد يخطفها بضوئه وسرعته ، وفى الخطاب الباطن ما يلمع لصاحب الشريعة من آثار الحدود العلوية الى لاقبل للبصائر باحتمالها والثبات عليها ، كما لا قبل للأبصار بالثبات حيال البرق . وقد سمى مركوب النبى ﷺ فى ليلة المعراج براقا من أجل ذلك . ومركوب الانسان هو ما يتوطأ عليه ، فيقطع به الشقة إلى مقاصده ، قريبة كانت أم بعيدة . وقد قيل إنه كان يتشكل بسائر الأشكال من الحيوانات ، فهو من حيث الوجه يشبه الإنسان ، ومن حيث الجناحان يشبه الطير ، إلى أن جعلت أشكال الحيوانات كلها مستوفاة فيه ، والإنسان مسخر الحيوانات كلها ، فمنها ما يأكله ، ومنها ما يركبه وما ينتفع مجلده أو شعره أو وبره ، ومنها ما ينتفع بنابه أو مخلبه أو بمرارته ، حتى لا يفوته منها شيء ، كل ذلك بقوته الناطقة والعاقلة . والانسان المطلق الذى هو الرسول ﷺ ومن يقوم مقامه من بعده ، وهو إنسان ذلك العالم ، يسخر أجناس البشر بقوة التأييد الذى له من ذلك العالم ، كمثل تسخير البشر أجناس

الحيوان ، فيتخذونهم آلة لنفوسهم كاتخاذ البشر الحيوان آلة له ، وهو مع ذلك متشكل بشكل الملائكة من حيث التجوهر بلطيفه ، وإن كان بشرا بكثيفه ، فاستحق النبى ﷺ بهذه الفضائل المجتمعة له أن يركب البراق ، وهو النور البارق له من عالم العقل والنفس فأشبه الملائكة من حيث الجناح الذى هو اللحاق بمقاصده بأسرع من لمح البصر ، قال الله سبحانه . « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع[1] ، وأشبه البشر من حيث الوجه الذى هو الشكل الآدمى . وقال ﷺ « أنا وجه أمتى ، ثم لم يغادر شيئاً من الحيوان إلا وأخذ منه بمثال فى مركبه ، أى لم يغادر جنساً من أجناس البشر إلا وقد استفاد قوته ، وملك زمامه ، وغلب على أمره بقوة تأييده وحظه الالهى ، كغلبة البشر لجميع الحيوانات بحظه المنطقى .

---

(١) سورة فاطر : ١ .

فنقول أن الصلاة قيام وركوع وسجود ، فهذه الأقسام الثلاثة استوعبت أشكال كل شخص موجود فى العالم ، وذلك لأنه لا يخلو من شيء يشبه القائم ، وآخر يشبه الراكع ، وآخر يشبه الساجد ، فقد دل ظاهر هذا الوضع على أن صاحبه أشرف مواليد العالم ، وأنه حائز فضيلة جميع ما هو فى صورة القائم والراكع والساجد ، نباتا وحيوانا .

والصلاة مشتقة اللفظ من السابق والمصلى وله شرح ، ومن قولهم : صليت العود . وتصلية العود هى أن يقرب العود اليابس من النار ، فيأخذ منها بحظ من الحرارة يلينه ، فيقومه المقوم أو يعوجه كما يريد . فشبه المصلى بذلك العود اليابس، لأنه إذا أسبغ وضوءه ، وتقدم إلى موضع صلاته ، وأعتقد أنه واقف بين يدى ربه تعالى لمناجاته ، يجرى فيه من ماء خشية الله تعالى ما يلين صليبته ، ويسلس قيادة . فكيف يجوز التهاون بما هذا تأثيره فى النفوس الإنسانية فى كل يوم وليلة خمسة أوقات ؟

وأما موقع الفائدة فى الزكاة فهو أن تصير فضلات مال الأغنياء إلى الفقراء ، فتلم شعثهم ، وتصلح حالهم . ووجه الحكمة فى ذلك وضىء ، لا ترهقه قترة ، وسوى هذا مما هو محجوب عن أكثر الناس أن الأنبياء والأوصياء والأئمة هم ملوك الديانات ، وهم لها ممنزلة الشمس والقمر والنجوم لدار الدنيا . وكما أن الموجودات الجسمية القائمة فى دار الدنيا لا وجود لها إلا بها ، فلا وجود لموجودات الديانات التى تصيب الآخرة إلا بهم . فالناس مطوقون بطوق رياستهم ، ومأخوذن إلى الإذعان لهم ، وتقلد قلادة طاعتهم وتأدية زكاة رءوسهم ، وزكاة أموالهم إليهم

اعترافاً بفضلهم ، وعرضا لنفوسهم بأعدادهم وأموالهم بكمياتها عليهم . فمعلوم ما يجب من الفطرة عن رأس كل إنسان ، فإذا قام الرجل الفطرة عن عشرة أناس فى جهته ، فقد أبان عن عدة منهم فى عياله . وإذا أخرج خمسة دراهم زكاة ، فقد أعلم أن مائتى درهم جميع ماله . وفى هذا من الحكمة مالا ينكره ذو عقل إلا من طبع اللّه على قلبه .

وأما موقع الفائدة فى الزكاة فهو أن تصير فضلات مال الأغنياء إلى الفقراء ، فتلم شعثهم ، وتصلح حالهم . ووجه الحكمة فى ذلك وضىء ، لا ترهقه فترة ، وسوى هذا مما هو محجوب عن أكثر الناس أن الأنبياء والأوصياء والأئمة هم ملوك الديانات ، وهم لها بمنزلة الشمس والقمر والنجوم لدار الدنيا . وكما أن الموجودات الجسمية القائمة فى دار الدنيا لا وجود لها إلا بها ، فلا وجود لموجودات الديانات التى هى نصيب الاخرة الا بهم . فالناس مطوقون بطوق رياستهم ، ومأخوذون الى الاذعان لهم ،. وتقاد قلادة طاعتهم وتأدية زكاة روءسهم ، وزكاة اموالهم اليهم اعترافا بفضلهم ، وعرضا لنفوسهم باعدادهم واموالهم بكمياتها عليهم . فمعلوم ما يجب من الفطرة عن راس كل انسان فاذا قام الرجل باداء الفطرة عن عشرة اناس فى جهته ، فقد ابان عن عدة منهم فى عاله . واذا اخرج خمسة دراهم زكاة ، فقد ان مائتى درهم جميع ماله . وفى هذا من الحكمة ما لا ينكره ذو عقل الا من طبع الله على قلبه .

وأ ما الصوم فالحكمة فيه تميز الشكل الانسانى عن الأشكال البهيمية بتحريم الاكل والشرب عليه شهراً واحداً من السنة ، وأن يقع الفرقان بينه وبينها فى مهاجرة

الاكل والشرب بالنهار . وفيه من الحكم التاويلية المختصة بشهر رمضان ، ووقوعه فى التاسع من شهور السنه ، واختصاصه بالله تعالى ، وإن كانت الشهور كلها لله ، ما هو علم العلماء

اما موقع الفائدة فى الحج الى مكة ، فقد قيل إن تلك البقعة وسط الدنيا ، وهى بمحل النقطة من البركار . والنقطة أول الخط . وبه يدور الدور . وهذا كلام يعضده الشرع . وهو قول الله سبحانه : « إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين (١) » . والأواخر تهش وتنحاش الى أوائلها ، وتحرص على الوقوع فى آفاقها ، وإن الكمال فى التقاء طرفى الدائرة ، وقد جعلت مكة دليلا محسوسا على أمر شريف معقول ، وجعل الوصول إليها بشق الانفس ، كا قال النبى: « حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره » ، ووضع فيه من أوضاع الإحرام والتلبية ، ما هو أدلة على الغاية التى هى مطلب الخلق أجمعين ، فالحكمة فى ذلك ناطقة اللسان ، نبرة البرهان . « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٢) .

---

(١) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٢) سورة : ق : ٣٧ .

فاما قولهم فى الخمر والزنا والفواحش : إن الإشارة واقعة بها إلى الاضداد ، فاذا عرفوا من هم ، ووقع البراءة منهم ، كان باب ارتكاب هذه المناكيرمفتوحا ، ومسرح فضاء الشهوات فيها فسيحا، فقد سبق منا الجواب أنهم فى قولهم هذا آفكون، ولطريق الرشاد تاركون ، وفى ملك الغى سالكون . ونحن نقيم البرهان المبين على أن تحريم الخمر التى كانت محللة فى جميع الشرائع كان فضلا للنبى ﷺ مذخورا ، وشرفا عليه من دون الأنبياء عليه السلام موفوراً .

زعم الزاعمون أن قضية تحريم الخمر كانت بادرة من حمزة بن عبد المطلب بدرت فى سكره ، وفعلا اقتضى تحريم حلالها لنكره . وهذا قول بالغ فى التنقص لله تعالى ولرسوله ﷺ . وينبغى أن يتأمل المتأمل ما أجله الله سبحانه وما حرمه من الأشياء كلها ، فإن كان شىء منها بعلة فعل من فاعل ، وجب أن يكون تحريم الخمر بعلة ما فعله حمزة ، وإلا كان قولهم فى ذلك محالا مستحيلا ، يؤدى إلى الأراء بفعل الله سبحانه ورسوله ﷺ . فليت شعرى ، أكان خافيا على الله سبحانه علم ما فى الخمر من إثارة الخصومة والشر ، وعلم ما فيها من الخسر والقبح ، حتى ظهر من حمزة ما ظهر ، فصار الحجة فى تحريمها ، فإذا كان ذلك من الأسباب الممتنعة فنقول : إن الخمر كانت محللة فى الشرائع المتقدمة من حيث إنها لم تكن مستوفية حد الكمال ، بل كانت معرضة للنسخ والزوال ، فلما نسخ الله بشريعة محمد ﷺ جميعها ، وقتل قانونها ، ووضع موضوعها ، وأمكن عليها من التغيير والاستحالة وفاها بكمالها أقسام الشرف والجلالة ، كما قال الله تعالى . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا [1] » .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

فكان تحريم الخمر من كمالها ، ومنافاة الشرائع المتقدمة فى تحريمها من جمالها ، وذلك أن الله (عزوجل) فطر السموات بأفلاكها ونجومها وبروجها ، والأرض ببرها وبحرها ، وجبالها وسهولها ، لإنشاء الصور الآدمية ، والهياكل البشرية . وهذا قول متفق عليه من أهل الشريعة ، وبعض القائلين بالحكمة والفلسفة، وأهل الشريعة يوقولون . إنه خلق الدنيا وما فيها لمحمد ﷺ . والقولان متفقان فى اللفظ والمعنى ، لكون النبى ﷺ ذلك البشر المخلوقة من أجله السموات والأرض ، فإذا صفوة السماء والأرض هى الصورة الإنسانية ، وصفوة الصور الإنسانية النطق الذى من أجله خلقت وهيئت وعدلت ، وجعل لها لسان شفتان . والنطق يخلص من حيث لا أصل له يعرف ، فيعزى إليه ، ومن أجله قال الله تعالى فى شأن وعده ووعيده : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون [1] » المعنى فيه أن جميع ما قال الله تعالى حق ، مثل النطق الذى لا يعلم الإنسان أين مستقره من صورته ، ومن أن يقوم ، وليس جهلة بمستقرة وحيث نشأ منه بمانع من كونه حقا ، كما أن الذى قال الله تعالى من حيث الآخرة والثواب والعقاب ، وإن كان لا يدرى أين مستقرها غير مانع أن يكون حقا وصدقا .

فإذا ثبت أن الصور الإنسانية صفوة السموات والأرض ، وأن النطق صفوة تلك الصورة والقصد فيها ، فكذلك صفوة النطق العقل ، وهو الغاية لا خلاف فيه عند كا عاقل ، والعقل هو الذى به تصح معرفة توحيد الله تعالى ، والاستنارة بنور توحيده ، ومعرفة ملائكته ورسله ، والاقتداء بهم ، والاهتداء بهداهم . وكان من شأن الخمر أن تصادم العقل الذى هو ثمرة الكل ، فتطفىء أنواره ، وتهدم مناره ،

---

(١) سورة الذاريات : ٢٣ .

حتى كمأنها تّبطل الحكمة فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، وتعطل صنع اللّه تعالى فى إنشائها وفطرتها ، وتبلغ اللعين إبليس مراد فى قول اللّه تعالى حكاية عنه : « ولآمرنهم فليغيرن خلق اللّه [١] » ، وتقف عند حده ومثاله .

ولما كانت الصورة هذه وجب أن يكون تحريمها وتمحيق شأنها وتقويض بنيانها فى خير الشرائع وأتمها وأكملها ، وهى شريعة النبى ﷺ وكفى بهذا ردا على الفئة الطاغية التى اتخذت إلهها هواها ، فباعت دينها بدنياها . وباقى الأفعال المنكرة التى زعموا أن القصد فيها باطنها ، وأنهم إذا تجنبوه حل لهم ظاهرها جار فى هذا المضمار ومعير فى القباحة بهذا العيار . والأفعال البهيمية كلها قبيحة مع لمعان أنوار العقول وتعلق الهمم بالمبادىء والأصول .

ولما علم أصحاب الشرائع المؤيدون من عند اللّه سبحانه أن الشخص الجسمى المعجون من الأرض وطينتهالا يستغنى عن الأكل والشرب والنكاح ودواعى النفس الشهوانية ، فأرادوا الفرقان بين الإنسان الذى يعقل ، والبهائم التى لاتعقل ، ضربوا على المأكولات والمشروبات والمنكوحات سرادقات من الشرع بالأمر والنهى ، ليخرجوها من حد العادات ، فأوجبوا الأكل من حله ، والشرب من حله ، والنكاح من حله ، وجعلوا لذلك قواعد وقوانين لاتتعدى لئلا يكون الناس ممرجين ، يأكلون من حيث يرون ، ويشربون من حيث يرون ، ويفعلون من حيث يرون ، فيكونون للبهائم أشباها ، فإذا هم لزموا فى أكلهم وشربهم ونكاحهم قانون الشرع كان أكلهم

---

(١) سورة النساء : ١١٩ .

وشربهم عبادة لله تعالى وطاعة ، وكانوا مأجورين على حركاتهم وسكناتهم محمودين من جميع جهاتهم .

وجانبوا من هجن إسم دعوة أئمتكم بشين الراحة والإباحة ، وأدخل عليها برفض الأعمال والكلف الشرعية كل القباحة ، وقال إن الجنة المشار إليها حاضرة فى الدنيا . فمن كان مزاح العلة فى الدنيا فى المأكل الهنى والمشرب والمركب الوطى (١) فهو من أهل الجنة ، ومن كان بالضد من ذلك من أهل النار . وقالوا : وهم طبقات : فمنهم المقلون المعسرون، ومنهم الزمنى، النقص الجوارح المحيرون ، ومنهم المسوخ والرسوخ والفسوخ ، الذين هم فى جلود البهائم والحشرات يحشرون . فويل لهم من هذا الاعتقاد الفاسد الأصول والفروع ، المؤسس بنياته على شفا جرف هار من الموضوع . وأين وجود اللذة التى يذكرونها فى دار الدنيا « إنما لذاتها هى دفع البوائق ، وطيباتها كف العوائق ، فما التذاذ الطاعم بما يطعمه ، لولا دفع بليه السغب ، وما التذاذ الشارب بما يشربه لولا تسكين فورة الظمأ الملتهب . وهل ذلك وما هو مثله لمن يتقصاه إلا كمجهود بالضرب رفعت عنه عصاه . والإنسان مادام فى قيد حياه مريض بأمراض مختلفة ، يقضى زمانه بمداواة كل جنس فتاره يداوى الجوع ، وأخرى يداوى الظمأ ، وتارة يميط الأذى عن نفسه ، بما يحيط به آكل الطعام وشارب الشراب ، وتارة يداوى نفسه بنومه ، وتارة يداوى بمعالجة شهواته، فهو على هذه الوتيرة يؤديه داء إلى داء ، وبلاء إلى بلاء ، فقبحا لجنة يكون هذا موضوعها ، وتكون موجودة فيه هذه الآفات جميعها .

وأما قولهم إن الأرواح المعذبة تردد بالمسوخية فى الكلاب والذئاب والحمر والبقر . فإن كان الأمر على ما يقولون فى الثواب والعقاب ، فقد خسر الثواب وهان

(١) الوطى مخفف الوطىء أى السهل اللين .

العقاب . أما الثواب فبحجة ما قلناه أن لذات الدنيا هي دفع المضار فلو كفينا الجوع لبطلت لذة الآكل ، ولو كفينا الظمأ لبطلت لذة الشرب . وعلى هذا القياس جميع لذات الدنيا .

وأما العقاب فقالوا ترديد الأرواح المعذبة في جلود الكلاب والقردة والخنازير ، قالوا وذلك يسمى مسخا . أو في الحيات أوفي العقارب ، وذلك يسمى – بزعمهم – فسخا ، أو تجعل حجراً وصخوراً ، وذلك يسمى رسخا . وجميع هذه الأصناف المذكورة التي هي معذبة بزعمهم أطيب عيشاً من الذي يعتقدونه من الجنه ، بكونه مزاخ العلة من الدنيا بالمأكل والشرب والملبس والمنكح ، وذلك أن هذه الأصناف عادمة للعقول المميزة المقسمة الموردة للغم ، المشفقة من الموت وما بعد الموت . فلو أن جزاراً قصد قطيعا من الغنم ، فأخذ منها واحداً فذبحة بين ظهرانيها، وهم قيام ينظرون لما أهم الباقين أمرهم ، ولا ثناهم عن رعيهم وما هم فيه ، جهلاً بما صار إليه رفيقهم ، والإنسان المترف المنعم المتمتع بحاله ونعمته ، كلما فكر في عقبى حاله وأنه يترك ما جمعه ، ويرحل عما ذخره ، ويوتم ولده ، ويفرق جمعه ، تكدر عليه صفوة أيامه ، وتخبط في سدف الأسف وظلامه . فقد انقلبت عليهم (١) القصة في الثواب والعقاب ، وفارقوا في اعتقادهم فيها نهج الصواب .

وأنتم الآن تسمعون من معنى قوله سبحانه . ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق (٢) ﴾ ما يجلو صدأ القلوب، وينبيء عن سر الحكمة المحجوب . قوله .

(١) يقصد القائلون بوجود الثواب والعقاب والجنة والنار في الدنيا .

(٢) سورة البقرة : ١٩ .

، يجعلون أصابعهم فى آذانـهم ، الآذان لها فى الباطن حد شريف ، وهو أن كلمات الله سبحانه منها تخلص إلى النفس . فالأذن للنفس بمنزلة الثدى الجسم ، إذ كان اغتذاء الجسم فى مبدأ وجوده من جهة الثدى ، واغتذاء النفس من جهة السمع . ولما كان الأمر على هذا قال الله سبحانه . ، وتعيها أذن واعية [1] ، . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام . ، أنا الأذن الواعية ، فأبان أن حلوله من الدين محل الأذن من الجسم ، فلولا الأذن لم تصل إلى النفس الألفاظ المنطقية التى بها ومن قبلها صار الإنسان إنسانا . ولولا مكانة الوصى لم تصل إلى النفوس المادة الروحانية التى بها ومن قبلها يصير إنسان ذلك العالم إنسانا . وقد قال الله تعالى فى الجاحدين بحقه الدافعين لحظه . ، إنهم عن السمع لمعزولون [2] ، وقـال . ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا [3] ، فنفى الإنسانية حيث لايكون سمع ولا عقل . وقوله . ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم، أى يسدون دون نفوسهم أبواب الحكمة والرحمة بسدهم مقامات الوصى والأئمة الذين هم الأذن الواعية ، بأدون من عندهم قدراً ، وأقلهم خيرا ، واشتعارهم شعار الملك والخلافة ، كما قال أمير المؤنين عليه السلام فى مذمة الدنيا . تسد بالأراذل مكان الأفاضل ، وبالعجزة مكان الحزمة .

---

(١) سورة الحاقة : ١٢ .

(٢) سورة الشعراء : ٢١٢ .

(٣) سورة الفرقان : ٤٤ .

وقوله : « من الصواعق حذر الموت والله يحيط بالكافرين » الصعق خروج الأرواح عن الأجساد . فالوصى فى عصره والإمام فى عصره يدعو إلى إماتة القوة الشهوانية البهيمية ، ويهجنها وينزع بتابعته عنها كما يفعل الآباء والأمهات بأطفالهم فى نزع الأخلاق البهيمية عنهم ، وتعويضهم عنها الحياء والشمائل الإنسانية يوما فيوماً وشيئا فشيئا حتى يلحقوهم بخيار الناس ، تأدبا بآدابهم وأخذا لمناهجهم ، ولولا هذه الرياضة لكانوا لا يرشدون سعيا ، ولا يغادرون من التطبع بطباع البقر والحمير شيئا . وعالى هذه القضية فإن الناس البلغاء من حيث الأجسان فإنما هم أطفال الإمام من حيث النفوس ، فهو يأخذهم فى رياضة أخرى ، نزاعا بهم عن الأخلاق الجسمانية ، وتأدبا بالآداب الروحانية ليتشبهوا بالملائكة الذين يصيرون إليهم عند الانتقال ، ليلحقوا بهم سيرة كسيرة وحالاً كحال ، ولولاهم لضلوا مع الأنعام . وما حلوا دار السلام . وهذا أول حد الموت وخروج الروح الذى يحذره الكافرون ، فإنما هممهم بالدنيا وزخرفها ، وتصورهم فى نعيم الآخرة مثل تصورهم فى نعيم الدنيا . وقد روى كثر من العامة فى قوله سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون [١] » أن هذه الآية نزلت فى على عليه السلام . وذلك أن كثيرا من صناديد الكفار كانوا يتمنون مقارعته ، ويشتهون منازلته ، ولما كشف لهم عنه الهيجاء ، وأمكنهم من مشاهدته اللقاء ، ظهرت مساويهم ، فصاروا نادمين على أمانيهم ، فصح وقوع الكناية عنه بالموت .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٣ .

وأعلموا أن أولياء الله عليه السلام من طينة الأرض معجونون ، وللكون والفساد من حيث أجسامهم مضمونون ، يمسكهم الشراب والطعام ، وتلحقهم الأمراض والآلام ، ويقضى عليهم عند استيفاء أيامهم الحمام لا كما زعم الزعمون من الجهلة – الذين نسبوا باعتقادهم السخيف إلى الراحة واطراح التكاليف – أنهم مرتدون برداء الإلهية ، ومحتجون عن النظر إليهم بالعيون الجسيمة . وفى قولهم هذا من الخلل مالا يعلق بقلب ، ولا ينطوى على ذى لب ، إذ كان القائل بإبطال العيان داخلاً فى حكم الهذر والهذيان ، وذلك أن عليا عليه السلام أو غيره ممن يقال فيه بالربوبية – وقد رئى مولده ومنشؤه وأكله وشربه وصحته وسقمه وتزويجه وولادته – إذا قال القائل : إن العيون التى رأته على هذه الصيغة كذبت وأبطلت ، فقد ركب الأبلق فى المكابرة ، وأبطل صحة المعاينة فى الأمور كلها ، وحكم يكون المشاهدات لا حقيقة لها . فأما القول إنه رأوه بالمجاز ، وما رأوه بالحقيقة فصحيح ، لكنه من حيث رؤية العلم ، لا من حيث رؤيج الجسم . وقد قال الله تعالى مخاطبا لرسوله : « وتراهم ينظرون إليك وهو لايبصرون [1] » ولم يعن بهم أنهم لم يبصروا أنه طويل أو قصير ، شاب أو شيخ ، إذ كانوا يبصرون ذلك كله كهيئته وعلى حقيقته ، وإنما حجبوا عن رؤية العلم به من حيث نفسه الشريفة المتقدسة المتحدة بنور ربها سبحانه .

وإذا كانت الصورة هذه فقد بينا أن لا فرق بينهم عليه السلام وبين غيرهم فى الجسمية . فأما الفرق بينهم بما أعطاهم الله من المنزلة وبين أتباعهم الذين قال

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٨ .

الله تعالى فيهم حكاية عن إبراهيم خليله : « فمن تبعنى فإنه منى [1] » فكالفرق ما بين البلغاء والأطفال ، إذ كانوا هم بلغاء الدار الآخرة على كونهم فى دار الدنيا ، وتابعوهم بمنزلة أطفالهم . ومن شأن الأطفال إذا تخلى البلغاء عن تربيتهم وكفالتهم أن يهلكوا ويضيعوا ، ولا تقوم لهم قائمة فى دار الدنيا أبدا ، وكذلك من شأن تابعى أولياء الله الأئمة عليه السلام الذين هو بمنزلة الأطفال من البلغاء ، إذا تخلوا عن تربيهم وكفالتهم للدار الآخرة أن يهلكوا ويضيعوا ، ولا تقوم لهم قائمة فى معادهم أبداً . فهذا موضوع أمرهم مع أوليائهم ، فمن عرفهم على هذه السبيل نجا، ومن تجاوز بهم حدهم إلى اعتقاد الربوبية ضل وغوى .

وأما قول من ينتحل هذه الوسوسة إن الجنة ههنا والنار ههنا ، فالمثاب من درت عليه دنياه بمعرفة ربه – وعلى آرائهم – أخلاف نعمها ، والمعاقب من رمته بأفكاره بدائها وسقمها إلى غير ذلك من تجريده – بزعمهم – من قميص الإنسانية ، وترديده فى جلود المسوخية ، فقد كان صدور الجواب عن هذا الكلام فما تقدم بما أشعبناه ، واتقنا لفظه ومعناه . ونحن نورد من الزيادة فيه ما ينفع الله به مستمعيه فنقول : إن الاستدلال على الأمور الروحانية الغائبة عن الحس لا يقع إلا من الأمور المشاهدة الواقعة تحت الحس . ولما رأينا الصورة الإنسانية مبدؤها نطفة وعلقة ومضغة ، كما قال الله تعالى [2] فإنها متقدمة إلى قدام غير راجعة إلى وراء ، وعلمنا ضرورة أن صورة المولود الذى خرج من بطن الأم لا يتقهقر فيرجع إلى

(١) سورة إبراهيم : ٣٦ .

(٢) يشير إلى الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون .

بطن الأم ، والجنين المستقر فى بطن الأم لا يرجع إلى صلب الأب ، علمنا أن الصورة الألفية القائمة إنسانا فى الدر الدنيا متوجهة إلى قدام كذلك ، تبتغى رتبة هى أشرف من رتبتها ، وهى رتبة الملائكة والتجوهر بجوهرهم بحكم المناسبة فى النطق والعقل ، وعلمنا أن سلمه إليها هو تصفية النفس بالعبادين العلمية والعملية المأخوذتين عن أنبياء الله وأوليائه ، واعتقاد ولائهم ، وتجنب الاشراك بهم . فإذا هو طلب هذه الرتبة من وجهها الذى ذكرنها ، وأتى البيت من بابه فى قصد نيلها الحق بدار السلام ، وقام فى مقام الملائكة الكرام . وإن هو فرط فى جنبه ، وصار إلى الشيطان وحزبه ، مسخ عن استكمال الصورة الانسانية المفضية به - لو عمل وعلم - إلى الملكوتية مسخا من حيث نفسه ، لا مسخا من حيث جسمه على ما يظنون بسخف العقول وقلة التحصيل ، وحسب ما يقولون : إن قوما مسخوا كلابا وقردة وخنازير ، وإن بعضهم رأى فى منامه كما يرى النائم أن جملاً كان يدور فى طاحونة كلمه فقال : إنى أبوك وبإدارة هذه الطاحونة مكدود ك وبالجوع مع اتصال الكد مجهود وأمثال ذلك مما ينفق على ذوى العقول السخيفة والآراء الضعيفة .

وأنتم تسمعون الآن ما يتلى عليكم من قوله جل إسمه : « يكاد البرق يخطف أبصارهم ، وشرحه فى باطن العلوم سر دين الله سبحانه وأوليائه ما تتقبله القلوب السليمة من النفاق البرئية من عاهة المذق [١] والشقاق : إذ كان النفاق فى القلوب الصور النفسانية كالعلة فى الرحم للصور الجسمانية منعا عن إجتماعها واشتمالها ك ودفعا عن تألفها واستكمالها .

قوله تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا » كان تقدم القول فى حيث البرق أنه التأييد البارق من الحدود العلوية لصاحب الشريعة فى سرعة . والوحى مأخوذ من السرعة أيضا . يقال له : الوحى . الوحى العجل العجل . ويقال . سير وحى أى عجل . وكل ما يكون من المواد الروحانية فمن شأنه العجل وما كان من جهة التعليم فمن شأنه الريث وإنما تتصل المادة الروحانية بنفس شريفة قد هيأها الله سبحانه للقبول تهيؤ الضرام لقبول آثار النار ، فأما ما لم تكن مهيأة للقبول فإنها إذا ورد عليها شيء من لمع ذلك النور ضعفت وتزلزلت تزلزل البصر إذا شخص للبرق فمنه قوله سبحانه . «يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » فنقول : إن الشريعة نتيجة الوحى الموحى إلى النبى ﷺ وهى تنقسم إلى قسمين : قسم منها ظاهر يقع بمقابلة الجسم وعالمه ، وقسم منها باطن يقع بمقابلة النفس وعالمها . فالظاهر هو الذى لامنعة دونه ، ولا حجاب عنه ، والباطن هو المقصور على أهله ، والممنوع عنه غير مستحقه . ونقول فى قول النبى ﷺ أنا مدينة العلم

---

(١) أى الخلط والكذب . انظر : المعجم الوسيط.

وعلى بابها » إنه لو كان المشار إليه معرفة كيفية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لبطلت فائدة الخبر ، فإن ذلك مما قد استوت فيه الأقدام ، واشترك في سماعه ومعرفته الخاص والعام ، فإذا هذا العلم غير ظاهر الشريعة ، وهو علم التأويل الذي أخبر الله عنه في كتابه فقال : ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم (١) » فأشار بقوله سبحانه : « كلما أضاء لهم مشوا فيه » أي أخذوا بما أضاء لهم لمعارفهم من قسم الظاهر الذي عرفوه واستقلوا له ، وتمكنوا من التبسط في تشعيبه وتفريعه ، وهو معنى مشوا فيه ، فكانوا كما قال الله تعالى في محكم كتابه : يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هو غافلون (٢) » .

« وإذا أظلم عليهم قاموا » يعني أنه إذا جاءت عقود المشكلات المحتاج لها إلى مفاتيح الحكمة والمصابيح الروحانية قاموا أي وقفوا حيرة وتبلدا منه ، يقال عين قائمة واقفة عن النظر ، قد ذهب نورها .

---

(١) سورة النساء : ٨٣ .

(٢) سورة الروم : ٧ .

روى أن ذا القرنين لما شق الظلمات بمن معه أحسوا تحت أرجلهم بمثل الحصباء، فلم يعرفوا ما هى، وهم يخبطون فى حندس الظلماء، فسألوا ذا القرنين : ما هذه الحصباء التى بها نعبر، ويذيولنا فيها نعثر؟ فقال: هى التى من أمتار منها ندم، ومن تركها ندم، فحار القوم من شىء يكون قصارى أخذه وتركه الندم ، وتقسمت بهم بين الأخذ والترك الهمم. وقيل: فلما خلصوا من الظلمات رأى الحامل درا وجوهرا يحمل فندم كيف قنع بالقليل ولم يأخذ الكثير، ورأى التارك سوء عمله بما ضيع من حزمه، فدعا بالويل والثبور. وهذا مثل مضروب وله معنى من قبيل الحكمة مطلوب .

قيل . وسمى ذا القرنين لأنه ملك – على ما يؤثر – الدنيا من مطلع الشمس إلى مغربها . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلى بن أبى طالب : « أنت ربانى هذه الأمة وذو قرنيها [1] » ، وعلى بن أبى طالب عليه السلام سائغ أن يكون ربانى هذه الأمة لمكانه من العلم والحكمة والزهد ، كما قال أن تعالى حكاية . « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » . فأما كونه ذا القرنين فما يصح من حيث المشاهدة، لأنه ما ملك من القرن إلى القرن ، فأيام ولايته معدودة، وهى بكل رنق من العيش مشوبة ، فمن أين يتوجه كونه ذا القرنين إلا من سر الحكمة التى هى متوارية بالحجاب، ولا يوجف عليه من مخالفى أهل الدعوة بخيل ولا ركاب ؟ فنقول . إن النبى ﷺ ما سماه بهذا الأسم عابثا ، ولا فى طريق الحكمة عابثا . وذلك أن عليا يلى عصرين . أحدهما عصر النبى ﷺ يحل منه محل الباب من المدينة، ومعلوم أنه لا وصول إلى النبى إلا من جهته كما لا وصول إلى المدينة إلا من بابها ، فهذا قرن. والقرن الآخر أن القائم الذى يقوم بآيات القيامة ،

(١) ورد فى صحيح مسلم .

ويكون خاتم النبوة والوصاية والإمامة يقوم من نسله ، ولا يصل إليه إلا من كان متمسكا بحبله ، فهو ذو القرنين على هذه السبيل . وهذه الملكة أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا من إمتلاك الأرض من القرن إلى القرن المنعوت به ذو القرنين .

ووجه آخر . إن إخلاص توحيد الله تعالى من حيث نفي التشبيه والتعطيل ممتنع الوجود والتحصيل إلا استملاء عما أودعه النبي ﷺ من علم التأويل ومقابلة المجسوس بالمعقول . وهذا هو الأصل ، والأول لكل شيء ، وبهذه المعرفة تحصل الصور المخلوقة لنعيم دار الآخرة ، وهي آخر كل شيء ، وعلي عليه السلام آخر طرفيها ، فهو ذو القرنين حقا . قال الله تعالى الصادق النجوى . « والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى [1] » .

وسوى هذا ، فقد قيل إن ذا القرنين هو صاحب السد المضروب في وجوه يأجوج ومأجوج قالوا . وهم خلق قصار القامات ، لهم ألسن كالمبارد، فهم يلحسون بها السد ليلهم ونهارهم ، ويكشطونه بها ، حتى يكادوا يخرقونه ويخرجون على الناس ، فإذا أذن المؤذنون بالصلاة عاد صحيحا . ومعنى هذا القول من وجه الحكمة أن السد المضروب هو الحاجز المانع للجهلة الذين لا يتعدى علمهم الأمور الطبيعية أن يطلعوا على العلوم الحقيقية والأنوار الملكوتية . وقد يكون العهد والميثاق الموضوعان بعض ذلك الحاجز ، ويأجوج ومأجوج طائفتان لا خير فيهما ، ولا يكنى عنهما . وأما قصر القامات فمن حيث لا إشراف لهم إلى عالم النفس والعقل ، وهم ضد المؤذنين الذين قال النبي ﷺ فيهم « يحشر المؤذنون أطول الناس أعناقاً ،

---

(١) سورة النجم : ١ – ٤ .

لاستشرافهم إلى رحمة الله . ويأجوج ومأجوج بالضد منهم . وأما ألسنتهم المشبهة بالمبادر إذا عملت في السد فهي طعنهم وثلبهم لدين الحق ، كما قال الله تعالى « سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير ... الآية [١] » ، وكما قال الله تعالى: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم [٢] ، حتى إذا كادوا يخرقون السد أذن المؤذنون الذين هم دعاة الحق إلى الله تعالى الموصوفون بكونهم أطول الناس أعناقا ، فيعود السد صحيحا ، كأنه لم يمس بسوء ، ولا يزال يمكث إلى موعد الساعة ، كما قال الله تعالى حكاية : « قال هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا » [٣] . فإذا قامت هذه الأدلة فقد ثبت أن عليا ذوا القرنين لهذه الأمة ، كما قال رسول الله ﷺ فيه .

ثم نرجع إلى ما قدمناه من القول . إنه كان يخرق[٤] الظلمات بأتباعه فأحسوا تحت أرجلهم شبه الحصا ، فسألوه . ما هي ؟ فقال . شيء من أخذ منه ندم ، ومن تركه ندم ، وأن القوم اختلف بهم الآراء ، فمنهم من حمل قليلا على وجه النظر والاعتبار ، ومنهم من لم يحمل لغلبة الشقوة والخسار ، فلما شقوا أعطاف الظلام ندم المقل منهم على إقلاله ، والتارك على غوايته في رأيه وضلاله ، فنقول : إن خرق

(١) سورة الأحزاب : ١٩ .

(٢) سورة الصف : ٨ .

(٣) سورة الكهف : ٩٨ .

(٤) يخرق – يقطع ومنه يخرق الأرض أي يقطعها .

الظلمات منه عليه السلام بأتباعه كونه فى عالم الظلم والطبيعة ، واتخاذه له معبرا إلى دار الصفا واللطافة ، والحصى التى أحسوا بها تحت أرجلهم هى جواهر الكلام التى تشرق بها نفوسكم – أيها المؤمنون – لو تمثلتموها ، وأنتم عنها غافلون . كأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وقوله : من أخذ منها ندم ومن لم يأخذ منها ندم ، حتى ظن الظان أن الآخذ والتارك سيان فى تقمص قميص الندم ، فأمسك ممسك وأخذ آخذ . فأما ندم الآخذ منها أنه جعل الاهتمام بآخرته علاوة على أمر دنياه فكانت آخرته أقل ما أهتم بها ، وسعى لها سعيها ، بل كانت مواد همته منصبة إلى صلاح شأن دنياه ، فحين كشف الغطاء استبان أن معظم سعييه هو الذى مما كان المقصود به دنياه ، وقليله هو الذى كان المقصود به أخراه فندم كيف لم يكثر مما كان منه مقلا ، وكيف لم يقلل مما كان منه مكثرا . وأما ندم التارك فهو ندم الأشقياء الذين خسروا ديناهم والدين ، وقال قائلهم : ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين .

وتولوا الظل الحقيقى ، إن الظل المجازى مقبوض ، واطلبوا الظل الظليل ، وكم من ظل لا يصح مبيت فيه ولا مقيل ، ولربما يكون عليه اللهب سبيل . قال الله تعالى : ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا [١] ، . الظل حجاب دون الشمس يمنع من لفحات وجهها ، وإلا فلا يصح ظل ، والنبات والحيوان لا ينشأ إلا بأن يكون تارة شمس وتارة ظل ليربو بين وسطى التسخين والتبريد ، ذلك تقدير العزيز العليم . وعلى هذه القضية تكون صور مواليد الآخرة ، لاتنشأ إلا بين تنزيل وتأويل ، وشرع ومعقول ، إن فريق بينهما بطلت الصور الدينية الروحانية ، كما أنه لو فرق بين تسخين النهار وتبريد الليل بطلت المواليد الجسمانية . وعدد ذلك قال الله تعالى بنعمته فى إنشاء الصور الروحانية الأبدية : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، بأن بسط بساط المعقولات بإزاء بساط المحسوسات . « ولو شاء لجعله ساكنا ، لا ينتقل ولايتحرك لكنه رأى المصلحة فى تغييره وتنقله ، ليصح منه نشأة النفوس ولحاقها بدار الصفاء . « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، [١] والشمسط آية النهار وقلب العالم وبيت حياته . وبإزائها فى الدين من هو آية نهاره وقلبه وبيت حياته ، وهو دليل هذا الظل المدود ، ومتى لا يمتد الظل إلا بغيبته ، أو حصول حجاب بينه وبينه . قال اللهّ سبحانه بعد ذلك : « ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ، وهو منه سبحانه إنذار بانتزاع العلم بموت العلماء ، كما قال الله فى مثله : « أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها [٢] ، فسر المفسرون أن ذلك بموت علمائها وأخيارها . فأما

---

(١) سورة الفرقان ٤٥ – ٤٦ .

(٢) سورة الرعد : ٤١ .

الظل المذموم فهو الذى قال الله سبحانه فيه « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب [1] ، قال بعض الصادقين عليه السلام إن المركز أثنان ، مركز الملائكة على تقريب اللفظ ، وهو النقطة النورانية الشفافة . ومركز ذوى الأجسام وهو النقطة المظلمة الترابية التى هى الأرض ، مستقر ذوى الأجسام المظلمة وأن الذى ينقطع سببه من المركز الترابى بالموت الطبيعى وهو سعيد باستكماله صورة نفسه وتجوهره بجوهر الملائكة الذين هو من جنسهم وهم من جنسه ، فقد انتقل من مركز الظلمات إلى مركز النور وتعوض الظل عن الحرور. ومن مضى على غير هذه النسبة زلت عن المركز الظلمانى قدمه ، ولم يتصل بعصمة المركز النورانى عصمه ، وصار منعكسا تاره بمقاساة حر العسير ، وتارة ببرد الزمهرير ، وتارة بالخبط فى قعر البحور : « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب » .

---

(١) سورة المرسلات : ٣٠ ، ٣١

وقد سمعتم ما قرىء عليكم من بيان التأويل ، ما يفضى بسامعيه ديانة وإخلاصا إلى النعيم ، ويهدى من يمشى مكبا على وجهه فيمشى سويا على صراط مستقيم ، فاعرفوا المكب على وجهه ، وباينوه فى الإكباب ، وجانبوه حق الاجتناب والمكب على وجهه هو البهيمة التى لاتعرف غير علفها وأكلها وشربها . وخلقتها الظاهرة فى إكبابها نحو الأرض ، تدل على نظرها إلى موضع بدئها ومنتهاها ، للبهائم من جنس البشر أشباه ، وهم وإن خالفوها من حيث انتصابهم بالقامات الألفية ، وإكباب البهيمة (بالصور البهمية) فإنهم آخذون مأخذها وسالكون ، نظراً إلى الدنيا ولذاتها ، وولعا بأكلها وشربها وشهواتها ، فهم من حيث نفوسهم مكبون وإن كانوا بالأجسام انتصبوا ، ومصبون إلى ما إليه انصبوا ، وذاهبون حيث ذهبوا .

وهم ينقسمون قسمين : قسم منهم قد أضلهم المتغلبون على أولياء الله عليه السلام فى مكانتهم من الوصاية والإمامة ، فصدوهم عن المراضع الدينية والمشارب الحكمية ، وأعموا عيونهم عن طلب الحقائق ، وصرفوهم عن البحث عن المعانى والدقائق ، وقصروا بهم عن علم المعاد ، على الأكل والشرب واللهو الذى هو طلبة الأجسام ، فأعينهم شاخصة من دار اللطافة ، إلى مثل ما هو موجود لهم فى دار الكثافة لا يعرفون غيره ، ولايهمهم سواه . وقسم آخر هم أهل التعطيل الذين لايرون بعد دار الدنيا دارا ، ويرون وقوع الإمكان من التلذذ ، فرصا ينتهزونها ، فيقضون من الدنيا أوطاراً .

وأهل الإيمان ينافون القسمين ، ويباينون الفريقين ، انتصابا لعالم العقل الذى هو الصورة السوية والقامة الألفية ، وطلبا للمنافع والفوائد منه ، وعزوفا عن عالم

الطبيعة الذى ترغب البهيمة وأشباهها فى الأخذ عنه والاستمداد منه ، إذ كان تصورهم فى عالم الطبيعة أنه بالقياس إلى عالم العقل كمثل المشيمة بالقياس إلى فضاء الدنيا بفسحتها وبهجتها ولذيذ مطاعمها ومشاربها . وكل من استنشق نسيم الهواء ، وعرف طعم الخبز والماء ، لم تصب نفسه إلى ضيق المشيمة مسكنا ، واغتذاء دم الطمث مأكلا . ومن كانت هذه صفته ، كانت قامته ألفية ، ونفسه مطمئنة ، ترجع إلى ربها راضية مرضية .

وإذ قد أخذ هذا الفصل بحقه مما كان قصدنا لذكره ، فنحن نقرأ عليكم من قوله سبحانه : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير[1] » الذى هو تمام الآية التى وقع الابتداء بها فيما تقدم هذا المجلس ، ما نشفعه بباطن شرحه ، على ما يحتمله الحد الذى أنتم فيه ، فيقول : إن ذلك وأمثاله من قوله: « وما تشاءون إلا أن شاء الله رب العالمين [2] » ، وقوله تعالى: « ولاتقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله [3] » ، وما يجرى مجراه شبه يحتاج فيها إلى توقف وتثبيت وزيادة نظر وتأمل . وقد استمرت عادة أهل الغفلة على أن يمروا بأمثالها مراً ، ولايهزوا لاستقراء الحال فيها فكراً . والمشيئة من عوارض وآرائها ، وإنما تعرض للنفوس العوارض من حيث كونها ناقصة شوقا منها إلى تمامها ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٠ .

(٢) سورة التكوير : ٢٩ .

(٣) سورة الكهف : ٢٣ ، ٢٤ .

وتشوقاً لكمالها ، والله سبحانة المتعالى عن أن يحدث فيه ما حدث فيها . وهذه الخصلة منتقية عن المبدع الأول الذى هو صنع البارىء سبحانه ، فكيف عنه ! ومن أجل الإهمال لمثل هذه الأمور فى توقيتها حق النظر استمر الشرك الخفى ، وظهر فساده على الصور . وإنما خواطب الناس على حسب المعتاد الذى يسهل عليهم أخذه ، ولا ينبو بهم قبوله ، ليدرج بهم حينئذ من المجاز إلى الحقيقة بإرشاد ذوى الإرشاد وهداية أهل الهداية .

وإذ قلنا إن هذا النعت وما يشبهه منتف عن البارىء سبحانه ، فهو ثابت للإسماء الحسنى الأحياء النطقاء (١) الذين إذا دعى بهم أجاب ، ومن صرف وجهه عنهم خسر وخاب . وقوله سبحانه . « ولو شاء الله » فهو إشارة إلى اسمه الذى يقوم فى عالم الطبيعة مقام اسمه الأعظم فى عالمه . وقوله : « لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » يعنى أنه لو شاء أن يطمس أبالسة دوره الذين هم الأسماع والأبصار لأشياعهم لقدر عليه ، كما قال فى غير هذا الموضع : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٢) » ولكن إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم لسر لله فى أمره مكتوم .

---

(١) الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن كل الصفات والأسماء ويرون أن أسماء الله الحسنى هى أسماء العقل الأول (السابق) وهذه الصفات يوصف بها أيضاً فى العالم الجسمانى الإمام الذى هو مثل العقل الأول فى العالم الروحانى (فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٩ . وانظر أيضاً المجلس ٤٤) .

(٢) سورة يس : ٦٦ ، ٦٧ .

اعترض معترض فقال : إنكم تدعون أن القرآن معانى لا يدل عليها اللفظ العربى محطها لديكم ، وهى من بين الناس مقصورة عليكم ، فما دليلكم على صحة الدعوى ؟ فقيل له : إن أهل الرأى والقياس وبعض أهل الحديث غير منكرين أن للقرآن تأويلا ، وهو المفلزع ، وإليه عند عوارض الشبهة يرجع ، مثل قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » وقوله : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » وقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين [١] يوقولون إن ذلك إذا حمل على جهة ظاهره المنصوص كان قدحا فى التوحيد ، ورائداً للتجسيم والتحديد . وللحشوية وللمتصوفة تأويلات يعتقدون تعلقها بالخصوص وخروجها عن العموم ، ويتأولون « فى البر والبحر » أن البر ما تحده العين ، والبحر ما يحده الفكر ، ويتمثلون يالبيت المقول :

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وظاهر القرآن يفصح بذكر التأويل مثل قوله سبحانه «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم»[٢] ثم يقع التنازع عند الوقف : « ومـا علم بأن إلا الله والراسخون فى العلم » . ثم يقع التنازع عند الوقف ، فمن يقول بأن الراسخين فى العلم لا يعلمونه يقف عند قوله « وما يعلم تأويله إلا الله » ، ويجعل ما بعده ابتداء كلام ، وهو قوله سبحانه : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » ، زاعما أن الآية أوجبت لهم الإيمان به ، وسلبتهم العلم الذى لو صح لهم كانوا شركاء لله فيه ، ومن

(١) سورة الصافات : ٩٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٧ .

يقول بأن الراسخين فى العلم يعلمونه (١) ، يصل الكلام ويجعل الوقف بعد قوله : «والراسخون فى العلم » ويحتج فى ذلك بأن الإيمان هو التصديق ، والتصديق بالشيء لا يصح إلا بعد علمه ، فأما من يصدق بما لا يعلمه فليس تصديقه بشيء، ويستشهد بقوله سبحانه : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٢) » ويحتج بحجة أخرى وهى أن النبى ﷺ لم يخل من كونه عالما بتأويل المتشابه أو غير عالم فإن اكان غير فحسبه من النقيصة أن يأتى بشيء إذا سئل عنه قال لا أعلم . وإن كان عالما بالتأويل فالوقف عند قوله سبحانه : « وما يعلم تأويله إلا الله » باطل لشركة النبى ﷺ فيه وفى علمه . وإذا ثبتت شركة النبى ﷺ فيه وفى علمه ثبتت شركة الراسخين فى العلم أيضا أنهم يعلمونه لاسيما وهم من القدر والجلالة عند الله سبحانه بحيث قال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم (٣) » فقرن سبحانه أولى العلم بالملائكة فى سياقة الكلام ، والراسخون فى العلم أعلى طبقة من أولى العلم ، لأن كل راسخ فى العلم ذو علم ، وليس كل ذى علم راسخا فى العلم . وهذه نبذة من القول من حيث التلاوة والظاهر المتعارف ، فأما من حيث الرجوع به إلى موجب العقل والحكمة فنقول بحول الله وقوته: إن الله سبحانه قال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبن أنه الحق (٤) » وقال النبى ﷺ : « إن الله

(١) من القائلين بهذا الرأى المؤيد الشيرازى .

(٢) سورة الزخرف : ٨٦ .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

(٤) سورة فصلت : ٥٣ .

أسس دينه على مثال خلقه ، ليستدل بخلقه على دينه ، وبدينه على وحدانيته ، وإن نص الكتاب ومقتضى الخبر موجبان أن موضوع الدين الذى به الوصول إلى دار الجزاء مستنسخ من موضوع خلق الدنيا التى هى دار العمل . ولما كانت الدنيا أجساما وأجراما شاخصة بمعنى باطن هو المحرك لها والفاعل فيها ، وكذلك الأشخاص البشرية والحيوانية والنباتيية قائمة بمعنى باطن هو محرك لها ، وجب أن يكون موضوع الدين على نسختها ومثالها ، لتقوم الدلالة على أن صدر [1] الدين من حيث صدر عنه خلق السموات والأرض مثلا بمثل وقلما بقلم .

ووجه آخر ، إننا على وجه الأرض متمهدون ، وبما أخرج من بطنها مغتذون ، فلنا تعلق بها من طرفين : أحدهما كونها لنا حاملة ، والآخر كونها لنا غاذية ، ثم إننا بشم الهواء عائشون ، ومن صنائع تأثيره فى مأكلنا ومشربنا متماسكون ، فلنا تعلق به من طرفين ، ثم إننا بالنار التى جوهر حياتنا منها ، ونحن منها بعد ذلك مقتبسون ، وبها مستضيئون ، وعلى إنضاج الأطعمة النيئة مستظهرون ، فلنا تعلق بها من طرفين ، ثم إن الماء مادة حياتنا فمنه ما نشر به على هيئة ما أنزل ، ومنه ما يصير إلى الأرض فيصير مادة لأقواتنا ، وعدة لمعاشنا ، فلنا تعلق به من طرفين . وإذا تكاملت هذه الأوضاع المعروفة جئنا إلى الدين الذى هو الذخر للدار الآخرة ، فمنه ما نستعمله على هيئة ما نزل ، وهو الظاهر من الأعمال والعبادات ، كمثل الماء القراح الذى نشربه ، ومنه ما نجعله مادة للأرواح فى حياتنا الأبدية ، وهو الباطن المرجوع به إلى وجه الحكمة

---

(١) صدر مصدر بمعنى صدور .

والمعقول . وإذا كانت الصورة هذه مما لا يدفعه إلا مـهاهت أو مكابر ، فقد أقمنا البرهان على أن الغرض فى كون الدين ظاهرا وباطنا ، هو أن يتوازن الدين والخلق ، ليصح القول من الله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1] » .

٧٣

وأنتم تسمعون ما يقرأ عليكم الآن من قوله سبحانه : « يأأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [2] » ومعنى ذلك فى وجه البيان ما يخص على عبادة الله سبحانه بواجب طريقها ، ويفضى بمن يعتقدها من مجازى العبادات فيها إلى تحقيقها ، لتكون عبادته مقبولة ، وعن شين الجهل معزولة، وقوله سبحانه : « يأأيها الناس اعبدوا ربكم » دعوة منه إلى عبادته بمباينة حزب الشيطان وأمته . وقوله : « اعبدوا ربكم » قول مجمل ، وإن موضوع الصلاة أتى بالخلف [3] فى معانى الرب ، لأن فى واجب ركوعها يقال . « سبحان ربى العظيم» وفى سجودها . « ربى الأعلى » والركوع باب السجود وفيه سبحان ربى العظيم الذى هو دون سبحان ربى الأعلى والسجود اثنان ، وفيهما « سبحان ربى الأعلى » الذى هو مبالغة فى القول . ولو كانت الإشارة فيهما منصرفة إلى معنى واحد لبطل أن يكنى بكنايتين مختلفتين إحداهما فى حد المبالغة والأخرى دونها . وهذا الذى لا يصح من الوجه الذى يعتبره المخالفون للدعوة، والتاركون للأدلة.

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢١ .

(٣) الخلف – الاختلاف .

وإذا رجع به إلى المعنى الذى ذكرناه فى معنى أسماء الله أنهم حدود أحياء نقطاء ، بهم يوصل إلى توحيده سبحانه ، كما بالاسم يوصل إلى المسمى ، انكشف الشبه الغبار ، وأمن الزلل والعثار ، ووضح هنا؛ التفاوت بين اسم كبير واسم صغير ، اسم يحتمل اشتراك العباد فيه إلى مالا يحتمله .

وقوله : « الذى خلقكم » الخلق هو تقدير الشيء على أحسن هيئة . وفى اعتبار المرء عجيب صنعة الله فى تركيب جسمه ، تأليفا من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والأعضال ، وإخراجه إياه مخرج بسمائه وأرضه وفلكه ونجومه وبره وبحره ، وغامرة آية الأولى الألباب . وفى اعتبار نفخة الروح فيه حتى كأنه بيت مظلم أوقد فيه مصباح ، ما هو أعجب وأعجب ، وذلك من الله عز وجل بتوسط أفلاك ونجوم وأرض وماء ونار وهواء . أنشأ جميعها بقدرته ألة لكمال الصنعة ، وتمام المصلحة والحكمة ، فلو نقص من الآلة شيء لحل النقص بالمصنوع الذى هو الصور البشرية ، كمثل ذلك قد رتب الله سبحانه لصور دار الآخرة التى هى النفوس المنبعثة ، بتوسط الشريعة من الأجسام البشرية أفلاكا ونجوما وأرضا وماء وناراً وهواء، أحياء نطقاء ، وأقام بإزاء كل ركن يقوم به الجسم ركنا تقوم به النفس ، لتكون النسختان واحدة فى الخلق والبعث كما قال الله سبحانه : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة [1] » .

وكما أنه لو جاز أن ينقص من الة الجسم شيء ، حل النقص بالمصنوع ، فكذلك إذا نقص من هذه الآلات التى هى سبب إنشاء النفوس شيء ، حل النقص

---

(١) سورة لقمان : ٢٨ .

بالمصنوع الذى هو الصور النفسانية ، مثلا بمثل . قال الله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1] » ، فمن فرط فى معرفة التوحيد أو حاول تعدى الحدود ، فقد خسر نفسه ، وآثر على سعد منقلبه نحسه .

٧٤

تنازع قوم فى أن معجزة رسول الله ﷺ هو القرآ ن الذى تحدى به العرب الذين هم أهل اللسان ، وقال قائل كيف تكون الحجة بالقرآن على صنوف الأعاجم، وهم الفرس والروم والترك والهند والذين ليست العربية كلامهم ؟ أليس هؤلاء إذا كلفوا الإيمان بشىء لايعرفونه ولايتوجهون فيه ، كان ذلك تكليفاً باطلاً ، كما لو كلفت العرب الإيمان بألفاظ أعجمية ، لا قبل لأحد من العجم أن يأتى بمثلنا، كان باطلاً ، فصدر لهذا السؤال جوابان :

أحدهما أن الفرس والروم وغيرهم إذا سمعوا بأنه نشأ فى العرب ناشياً فأتى بكلام من جنس كلامهم ألجم به الفصحاء ، وأفحم الخطباء . ومعلوم أن كلام آدمى لا ينال هذه المنالة العظيمه من الفضل الذى تخرس الأفواه أن تأتى بمثله ، ويلقى الفصحاء السلم إليه ، شهدت العقول بكون ذلك غير كلام المخلوقين ، وإذ لو كان كلامهم لكان لأحد منهم على مثله سبيل . وإذا كانت الصورة هذه كذلك كان المتكلم به رسولا من عند الله ، أرسله بكلامه . مفترضة طاعته .

والجواب الآخر فى القرآن من أبناء الغيوب والإشارات إلى ما سيكون مما كان، وصح بعد رسول الله ﷺ ما يستحيل صدره إلا ممن أظهره الله تعالى علم

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

الغيب ، كما قال الله سبحانه في كتابه: « عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدا ، إلا من ارتضى من رسول [1] » ، فإذا صح منه ﷺ أنباء الغيوب مثل قوله سبحانه ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون [2]﴾ وعنى به ملوك الفرس ، وصح هذا الإخبار منه ﷺ بعد سنين عدة من موته في عهد عمر بن الخطاب ، وما يجرى هذا المجرى ، فقد صح أنه مخبر بذلك بأنباء الغيوب كان رسولا مفترض الطاعة .

ونحن نقول بتوفيق الله تعالى : إن السؤال لازم والقول في الجوابين غير سديد ، لايأوى إلى ركن شديد ، وذلك أن الفرقتين المتكلتين بالعيرانى والسريانى الذين هم اليهود والنصارى المخالفون للاسلام ، إذا كلفوا الإيمان بمحمد ﷺ بحجة تبريزه بالفصاحة على كافة أهل لسانه ، كان تكليفاً باطلا ، لو كان مستقرا عندهم العلم بإذعان أهل هذا اللسان قاطبة له وإقرارهم بالعجز عن مثل ما أتى به ، كيف وقد علموا أنهم شبهوه بالشعر تارة وبالسحر تارة ، وناصبوه العدواه ، وحاربوه أشد المحاربة ، وأدعى مسيلمة الكذاب لعنة الله الإتيان بمثل ما أتى به وغيره .

ومعلوم أن نبوة موسى عليه السلام متفق عليها من جميع الأمم المخالفة لهم فكيف يلزمهم إذا سمعوا بأن واحداً ظهر في تهامه يصول بلسان الفصاحة

---

(١) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الفتح : ١٦ . وممن استشهد بهذه الآية لذلك الباقلاني في إعجاز القرآن هامش الإتقان ٧٢/١ .

والبراعة . أن يتخلوا عن تحقيقهم من نبوة موسى عليه السلام المشهود بصحتها من مخالفيهم ويتبعوا الشبهة . ولو أن واحداً ممن يدين بدين الإسلام سمع أنه ظهر فى بعض البلاد الشاسعة من يدعى النبوة ، ويظهر إعجازاً يخرق به العادة ، أكان سائغا له أن يتخلى عن تحقيق ما عنده من نبوة محمد ﷺ ويتبع البهة ، وكذلك اليهود ، فكيف يلزم اليهودى أن ينزعج من مهاد يقينه بنبوة موسى عليه السلام المشهود بصدقه من جميع الأمم ، وقد قال لهم : ما دامت السماء من فوق والأرض من تحت فالزموا السبت : وأى شيء يحل عقدة هذا القول من قلب اليهودى ، ويخرجه إلى غيره ، وهو مما يدل على أن شريعة موسى عليه السلام لا تزول ولا تتغير ما دامت السموات والأرض ؟ ومما يزيده تأكيداً لإيمانه وإيضاحا لبرهانه أن عيسى عليه السلام لما جاء قال : ما جئت لأبطل التوراة ، بل جئت لأتممها ، فإن إزالة السموات والأرض أهون من تغيير وصية من هذه الوصايا الصغار التى فى التوراة .
وبهذه الحجة أدعوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام لمناقضة فعله لقوله ، وذلك أنه قال هذا نصرة لموسى وتأكيداً لثبات دينه ، ثم غير السبت إلى الأحد وهذا نقض جواب من قال : إن فى القرآن ما تقوم به الحجة على اليهود والنصارى وغيرهم ، ويجعل ربقة الإسلام فى أعناقهم ، والنصرانى الذى ثبت فى نفسه أن المسيح قال : جئت من عند أبى ، وأنطلق إلى عند أبى ، وأن الله – سبحانه عما يقول – تجسم فى مريم ، وخرج إلى الخلق بالناسوتيه رأفة بهم ورحمة : لتقع المناسبة بينه وبينهم فى الجسيمة ، ويأخذوا عنه ما يخلص أرواحهم . كيف يردهم عن هذا الأمر المستقر فى نفوسهم كلام فصيح جزل تحدى به العرب فعجزوا عن الإتيان بمثله ، هذا مالا يكون أبدا .

والجواب الثانى ممن قال : إن إخبار القرآن بالغيوب مثل قوله : « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمزن » مما جرى بعد موت رسول الله ﷺ بسنين عدة ، وأمثال ذلك مما يقتضى إطلاعه على غيب الله ، وأن الله تعالى لا يطلع على غيبه إلا الأنبياء . فمعلوم أن سطيح الكاهن وغيره فى الأزمنة المتقدمة ، وإلى هذا الزمان من أهل التنجيم يخبرون بما يصح ولا يبعد وجوده ، ولربما كان كأخذ باليد (١) ، ولا يجب تصديقهم فى النبوة لو أدعوها .

فإذا كان الوجهان من الجواب فاسدين ، كان المدخل فى إثبات نبوة النبى ﷺ من غير هذا الطريق ، على من يحكم عقله أو يعصى هواه من اليهود والنصارى . ونحن نورد طرفا منه مشروحا بإذن الله عز وجل فنقول لليهودى : قولك أن موسى عليه السلام أمر بلزوم السبت مادامت السموات فوق والأرض من تحت ، لأنه يوم العيد ، ويوم الراحة والفراغ من خلق السموات والأرض قول فيه سبة قبيحة تبطل الإلهية ، وتوجب النقض ، فمنها أن الراحة تكون بعد التعب ، والتعب لايصح إلا مع العمل ، وقد اتفقتم معنا أن الراحة والتعب منفيان عن الخالق سبحانه لأنهما من صفات خلقه ، وهو منزه عنها ، والله تعالى الذى إذا أراد شيئا أن يقول له لن فيكون ، لم يتعب ، وهذا أصل واه معطل لقدرة الله تعالى ، ومنحل له نحلة العجزة المخلوقين . وإذا لم يستقر الأصل فلا فرع . ومنها أن الأيام غير معلومة ، إلا من تقطيع الشمس الفلك أرباعا ، طلوعاً من شرقها وغروبا فى غربها ،. ولما لم يكن

---

(١) يقصد أنه قريب واضح لايحتاج إلى ادلة .

فلك ولا شمس ، كيف تعقل الأيام وتتصور ؟ هذا ممتنع . ومنها ، إن أمكنه[1] إبداع الشيء بأسرع من لمح البصرفلم يخلقه في مدة ؟ . وهل هو إلا إثبات عجز – سبحان الله وتعالى عن ذلك . وكمثل ذلك يكون الخطاب مع النصارى وغيرهم ، كل أمة تدعي إلى كتابها ، ويضيق عليها خناقها من حسابها .

فأما من حيث إلزامهم النبوة بالفصاحة فلا يدخل عليهم يد [2] ، ولا يغلبهم – وخصومهم شهود صحة أنبيائهم – أحد ، .

فإن احتجوا بكون مثل هذا السؤال لازما لها في الإسلام [3] ، لكون الكتاب ناطقا بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام . قيل لهم : إن لله تعالى ميزانا توزن به جميع هذه الأقوال الواردة في الشرائع يسمى الحكمة ، وهي التي قال الله تعالى : « ويعلمه الكتاب والحكمة [4] » ، وقال موضوع آخر : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه [5] » ، ففي الخلاف حيث يكون البيان . وفي موضع آخر : « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة [6] » . وإن من اقتصر على الكتاب من دون الحكمة كان قصاراه الخبط في الظلمة ، ومن تمسك بهما جميعا فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان سمعياً بصيراً .

---

(١) أي الله سبحانه .

(٢) يقصد بيد قوة هنا .

(٣) لعله يريد أن هذا السؤال يلزمهم بالإسلام .

(٤) سورة آل عمران : ٤٨ .

(٥) سورة الزخرف : ٦٣ .

(٦) سورة النساء : ٥٤ .

وإذا قد مضت هذه النوبة التى ضاق بها على منكرى فضل بيت النبوة خلق الحزام ، وهم مأخوذون فيها بالنواصى والأقدام ، فنحن نشير إلى معنى الخبر المتقدم ذكره بما ينفع ذوو الأحلام بمشيئة الله وعونه . القول فى ما دامت السموات فوقكم والأرض تحتكم فالزموا السبت . الصورة الجسمانية محمولة بين السماء والأرض ، والصورة النفسانية محمولة بين التنزيل والتأويل . والصورة الجسمانية فى مضمار الأيام السبعة ، والصورة النفسانية فى مضمار الأدوار السبعة ، وخاتمة الأيام السبعة السبت ، وهو مشتق من الراحة . قال الله تعالى : « وجعلنا نومكم سباتا [١] » ، أى راحة . وخاتمة الأدوار دور قائم القيامة عليه السلام المنتهية إليه أدوار الإمامة الذى يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ، كما ملئت جوراً وخبطا وظلما ، وهو عيد الأعياد، لمن فضله الله تعالى على كافة العباد ، والمعنى فى الخبر الإشارة إلى القائم عليه السلام والانتظار لظهوره ، فلكم أيها المؤمنون من هذا الخبر لبابه ، ولغيركم القشور، وحظكم منه الظل ، وحظ مخالفيكم الحرور ، « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير [٢] » .

---

(١) سورة النبأ : ٩ .

(٢) سورة فاطر : ١٩ - ٢٣ .

واعلموا أنكم خلاصة الصور الحيوانية التى أخرجت بها الأرض أثقالها ، وأفادتها من حسن الإنشاء وجميل الصنعة كما لها ، صنعة قدير حكيم ، وتقدير عزيز عليم . فمن أجل ذلك ملكتم رق أصناف الحيوان ، واستوليتم عليها بالقوة الناطقة إستيلاء السلطان ، وإستخدمتموها إستخدام الأمير للمأمور وتفردتم بالطيبات من لباب الأطعمة ، وجعلتم حظها من القشور ، فابحثوا من أين حصلت لكم هذه الملكة ، أن يتخذ أحدكم الفيل مركبه ، ويقضى من تسخيره وتذليله أربه ، وإن ذلك لو كان بقوة وحول ، لما كان مثله يستضام ، ولكان ما هو أضعف منه بأسا من الحيوان فى حمى منكم لا يرام .

واعلموا أن العلة فى ذلك أن قيام الحيوانات كلها بالقوى الباطنة الممسكة لها ، والمحركة لشهواتها وغضبها وبأسها وبطشها ، وتلك القوى مستفادة بأمر الله سبحانه العلى الشأن من الأفلاك والأنجم والعناصر والأركان . والقوة الإنسانية مستفادة من عالم العقل والنفس ، المشرف على الأفلاك والأنجم إشراف الملوك على المماليك والخدم ، فالحيوانات وإن عظمت بأجسامها تتصاغر للشخص الإنسانى طبعا ، من حيث إشراف نفسه على نفوسها ، وكون طبقته فى نفسه فوق طبقتها ، ومن أجل ذلك تطول إليها يده ، وينفذ فيها حكمه ، فواحدا يأكله وواحدا يركبه ، وواحدا يحمل عليه ، وواحدا ينتفع بجلده أو شعره أو وبره أو ينتفع بنابه ومخالبه وواحدا ينتفع بمرارته على قدر أجناس المنافع . يقول الله سبحانه فى كتابه الكريم : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم [1] ، فأى تقويم أحسن من هذا ؟ وإنه ليستنزل الطير من

(١) سورة التين : ٤ .

الهواء ، ويستخرج الحوت من قعر الماء ، ويقيم الدواليب والنواعير الدائرة مستسقيا بها الماء من القرار، ومجريا لها في السواقي والأنهار، ومنشئا به صنوف الزروع والأشجار، التي هي مادة لإنشاء الحيوانات المختلفة، وعلة لوجودها وتماسكها ، وتوافر الحرث والنسل منها . أليس ذلك تشبها بفعل الله سبحانه في الأفلاك الدائرات، واتخاذها علة لوجود الموجودات؟ فأي تقويم أحسن من هذا التقويم ؟ وسبحان المقوم من عزيز حكيم. وإذا صح بشهادة العيان أن الإنسان قد استنسخ من صنائع الله سبحانه في صنعته التي قدمنا ذكرها في الأستيلاء على مادب ودرج في هذا العالم، وإنشاء فلك صغير ، وإحياء أرض ميتة يخرج منها ما يكون سببا لوجود حيوانات عدة مختلفة، بمادة يسرت له من عالم النفس، قام به الحكيم بخلقه في أحسن تقويم، وكان من لوازم حق ما أنعم به عليه أن يعنى بتلك المادة الشريفة التي أعطته تلك القدرة والبسطة وجعلته كما قال الله تعالى: « ومن أصدق من الله قيلا [1] » ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [2] » ، فيكسبها صورة من جنسها، ويجعل لها رباطا إلى معادها. ونحن نطلق الكلام في ذلك بإذن الله تعالى بلوغا للمرام في إيصاله إلى الأفهام، فنحكي قول الله سبحانه : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [3] » ، فنقول إن الروح معنى لا تعلق له

---

(١) سورة النساء : ١٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٣) سورة الإسراء : ٨٥ .

بالوالدين ووساطتهما ، وإن ذلك من أمر الله سبحانه يحدثه فى الصور ، ثم نقول ما جاء فى نص القرآن من قول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا [(١)] ، فالروح الذى قدمنا ذكره مما قال الله سبحانه فيه : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » مفتقر إلى اكتساب صورة نجاته من الروح الذى قال الله تعالى فيه مخاطبا لنبيه : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » فإذا هو اكتسب منه الصورة الشريفة التى يفضى بها إلى حد كمالها ، إفضاء النطفة إلى كمال الصورة ، لحق بعالم الصفاء ومنبع النور والضياء ، وفاز بمجاورة الملائكة ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وإن هو اتخذه آلة لبلوغ آرابه من الدنيا ، ولم يصبغه صبغة الله الحسنة : فيتجوهر بجوهر كلماته العليا ، حق عليه قول أصدق القائلين : « ثم رددناه أسفل سافلين [(٢)] ، بسقوطه عن رتبة التمام ، وانتكاسه فى الخلق زيغا عن محجة النظام .

---

(١) سورة الشورى : ٥٢ .

(٢) سورة التين : ٥ .

لئن غابت عنكم مشاهدة الجنة والنار ، فضرب على آذانكم بالغفلة عن الإعذار والإنذار . أتشكون فى عيانكم أنكم عن الدنيا راحلون ، وفى بطن الثرى حاصلون ؟ أما تستظهرون لما به توعدون استظهارا ، وما تتعدون به إشفاقا وحذارا، فإن كان حقا فلقد ربحتم ما خسرتم ، وإن كان باطلا فلا ضير إن استظهرتم، كما قال مولاكم الصادق جعفر بن محمد ﷺ لبعض الملحدين ، إن كان الأمر على ماتقولون – وهو ليس على ما تقولون – فقد نجونا ونجوتم وإن كان الأمر على ما تقول – وهو على ما نقول – فقد نجونا وهلكتم ، وكذلك أنتم فافعلوا ، ولمثاله أولياء الله تمثلوا ، ولنصحهم فأقبلوا ومن رواء مشارب علومهم علوا وانهلوا. قال النبى ﷺ: « الدنيا ملعونة ، وملعون كل ما فيها إلا ما أريد به وجه الله » فما ترجيكم الخير من ملعونة ، وما تكالبكم على اكتساب أعراض منها دنية مهينة ، وللفناء والنفاد مضمونة . ولم لا تعهدون العهد الذى لا يتعقبه النكث ، ولا تدخرون الذحر الذى لا يأكله العث .

فأما قول رسول الله ﷺ : « إن الدنيا ملعونة ، ملعون كل ما فيها إلا ما أريد به وجه الله » فهو وفق ما تقدم فى بعض المجالس التى قرئت عليكم أن الأمور البهيمية كلها مذمومة ، ممن تبرح من الإنسانية بزينة الفضل ، ولمعت منه أنوار العقل ، وأن الأنبياء ﷺ لما رأوا أن البشر المناسب للحيوان من حيث الطينة والعجينة والفاقة إلى الأكل والشرب والآراب الشهوانية ، لا يستغنى عن التلبس بهذه القاذورات، من أن جسمه منها نابت وبها ما ثبت ثابت ، ضربوا على جميع ذلك سرادقا من الشرع ، ليكون قضاء الشهوات على قضاياه ، من دون وجب الطبع ، والإنسان إذا أكل وشرب ووطىء من حيث يستملى فيه من رخصة الشريعة كان

مأجوراً على أكله وشربه وحركاته وسكناته ، بائنا عن جملة من قال اللّه تعالى مقبحا فى الأخذ بحكم العادات فعلهم « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم (١) » .

« فالدنيا ملعونة ملعون كل ما فيها » ما لم يكن له مناط بالشرع ، بل مأخوذ فيه مأخذ البهائم بالطبع ، ويعضد ذلك أيضاً قول اللّه تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه (٢) » .

ثم إن الكلام يتصرف على ذكر وجه اللّه سبحانه فينقسم قسمين : بين قائل يقول : إن الوجه ليس من حيث إيجاب وجه الجارحة كما تكون الوجوه ، فإنه كمثل ما يقول القائل : فعلت الشيء الفلانى لوجه فلان ، وليس يعنى به الوجه الذى هو وجه الجارحة ، وإنما المعنى فيه حشمة من جاهه وقدره ، وقائل يقول : إن الوجه الذى أثبته اللّه تعالى لنفسه ، واليد التى أثبتها لنفسه ، لا يتخلل القول فيها تعليل ، ولا يقوم بإبطاله تأويل . وإن من لجأ فيه إلى تأويله ، فقد سقط من حكم القرآن ، ودخل فى زمرة أهل الكفر والطغيان ، وإنه لو كانت كناية اللّه عن نفسه بالوجه واليد مما يدخل نقصا على ربو بيته بالتجسيد والتجسيم لكان هو سبحانه أولى أن يتحفظ من سياقته فى ذكره الحكيم ، ولكان غنيا عن استدراك المتكلم بالرأى عليه بعقله السقيم .

---

(١) سورة محمد : ١٢ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

وهذان الوجهان يعتلان عند التحصيل ، ويؤديان إلى الضلال والتضليل عن السبيل .

أما قول القائل : إن الوجه ما عنى به وجه الجارحة إذ كان الوجه لا يصح وجوده إلا فى رأس ، والرأس لا يكون إلا مركبا على الجسم ، وفى إثبات ذلك إثبات الأشكال البشرية ، ونفى الإلهية والربوبية ، فالأمر على ما قاسه برأيه وعقله لو وجد من نص الكتاب وأخبار النبى ﷺ مساعدة عليه (١) ، لأنه قال : « إن الله تعالى خلق آدم على صورته ، ونفخ فيه من روحه » . وإذا كانت صورة آدم على صورة الله ، وروحه من روحه ، فالمشابهة حاصلة ، ولا قبل لأهل الرأى بالخروج منها إلا بإبطال التنزيل والتشبث بمزخرف ما عندهم من التأويل . وإنما الحاجة كلها أن يكون الناس تابعين لنص القرآن ، متحفظين فيه من الزيادة فيه والنقصان .

فأما من سولت له نفسه – إذا ورد عليه ما يضيق منه خناقه ، ويقصر دونه فهمه – أن يتركه ويلجأ إلى رأيه ، فيكون من جملة من يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً . يأخذون ما يعرفون بمنصوصه ، ويحرفون الكلم فيما لا يعرفون عن مواضعه فقد انقطعت من الدين عصمته (٢) ، وبرئت منه ذمته ، وكان أتباعه للقائلين بالفلسفة وحكم العقول ، النافين للشرع أولى به .

---

(١) يعنى بهذه العبارة أن الأمر يكون على ما قاسه برأيه وعقله لو وجد من نص الكتاب وأخبار النبى ﷺ مساعدة عليه ، ولكنه لم يجد . ثم يسوق خبراً ينفى به قول القائل برأيه وعقله .

(٢) يقصد من سولت له نفسه .

وإذا كانت القضيتان فاسدتين بحكم تصورهم : فهذه موجهة للتجسيم والتجسيد والتحديد ، وتلك مبطلة لتنزيل الحكيم الحميد وجب أن يكون فى الأمر قسم ثالث يدع حكم القرآن على ما هو به ، ويكون سبب العقل موصولا بسببه ، فنقول بحول الله وقوته : إن وجه الإنسان هو المعنى الذى يعرف به ، ويميز معه عن غيره ، والناس يتعارفون بوجوههم ، هذا مستفيض مستقر فى العقول . ولما كان باب معرفة الله سبحانه مغلقا إلا من جهة رسله وأولياء دينه ، وجب أن يكونوا وجه الله من حيث لا تصح معرفته إلا بهم ، وبإرشادهم وبهدايتهم . ومن ذلك قال أمير المؤمنين أنا وجه الله ، أنا يد الله الباسطة على الأرض ، أنا جنب الله الذى يقول فيه القائلون: ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين.

ثم نرقى فى هذا القول من الحد الجسمانى إلى الحد الروحانى فنقول : إن وجه الله على التحقيق هو المبدع الأول الذى منه ومن قبله صحت المعارف ، واتصلت المادة إلى من دونه من الحدود الروحانية التى نزلت إلى الأنبياء والأوصياء والأئمة وعلماء الديانة ، فهو وجه الله تعالى فى الحد الأعلى المشير إليه من ينفى الجارحة وهو لايعرفه ، ولا يعقل ما يقوله ، فيسقط عن حكم التنزيل بما لا يعلمه من التأويل . والأنبياء والأوصياء والأئمة عليه السلام هم وجه الله تعالى فى الحد الأدنى المشير إليه من يثبت وجه الجارحة ، وهو لا يعقل ما يقوله ، وكل فى طغيانهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون . ومتى أخذ ذلك على الوجه الذى ذكرناه كان نظام العقل محفوظا ، ونظام الشرع محفوظا ، وكان أحدهما يثبت الآخر ويؤيده ويحكمه ويشيده .

وعند ذلك نرجع إلى اقتصاص [1] قول اللهّ تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه [2] ، وقول النبي ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون كل ما فيها ، إلا ما أُريد به وجه الله ، فنستفيد منه العلم بكون كل شيء هالكا ، ما لم يكن له بالمبدع الحق الذى هو وجه الله سبب متصل ، وبالأنبياء والأوصياء والأئمة الذين هم وجه الله فى الحد الأدنى شمل مجتمع .

---

(١) أى تتبع .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

واسمعوا سياقة قول بعض الصادقين ، ووعظة لأوليائه الخالصين من الريب ، قال : أما بعد ، فإنه لما كانت الصورة الألفية آخذة بحظها نائل الإباء ومستملئة من جوهر الصفاء ، متميزة عما عداها من الصورة العجماء الخرساء ، مشرفه على الدوارة والسيارة ، وفيه بأحكام العبارة عن ذواتها والإشارة ، وجب أن تكون بيوتا بدائم البقاء معمورة ، وأن تكون أيدى الفناء عن نقض بنيانها مقصورة ، فأكرم بها من صور ، عليها من الحق وسمه ورسمه ، وأعظم بها من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها أسمه . عناصرها أشرف العناصر ، ومفاخرها أسنى المفاخر ، ومنابر مجدها أعلى المنابر ، مختلف الأملاك ، ومخزن سر الأفلاك وعصمة من تحرم بحرمها عن الهلاك ، وعروة الله الوثقى لذوى الاستمساك . أولياء الله الملتفون فى أطمار الفقراء ، وصفوته الصابرون على عضنة نواجز البلاء . الممارسون كدر العيش لرفع الدرج فى دار الصفاء ، المحقورون فى الأعين وهم عند الله معظمون ، المهانون بين الناس وهم فى الكرام الكاتبين قد اتحدت بأنوار توحيد الله سبحانه نفوسهم ، فطلعت من فوق السموات العلى رءوسهم . غائبون فى الملكوت وإن كانوا حاضرين بأبدانهم . محيطون بالأفلاك المحيطة والأرض البسيطة بأفكارهم وأذهانهم . إذا نطقوا تفجرت ينابيع العلم من بين أشداقهم ، وإذا أطرقوا كان الإذكار والافتكار نتيجة إطراقهم . الدنيا عندهم عقيلة مطلقة ، (وألسنتهم بالنهى عن الاغترار بزخارفها مطلقة) . لا جرم ، أنها ترميهم بقوارعها . وتقمعهم بمقامعها ، وتجلب عليهم بخيلها ورجلها ، وتحول بينهم وبين جنتى الأمنة وظلها ، فحبذا من هذه نعوتهم . فهم الأقلون عددا ، وهم على القلة الأكثرون . الأصغرون قدراً ، وهم على الصغر الأكبرون ، قال النبى ﷺ : « طوبى لعالم ينسب إلى الجهالة ، وهاد يوصف بالضلالة . مجهول فى الدنيا ، معروف فى الملأ الأعلى » .

فعليكم أيها الطالبون بإذكاء الأعين طلبا لمن هذه حاله ، ممن تزدريهم الأعين ، والتوصل إلى قدح زناد الفطن ، بعلوم من قدح فيهم الألسن من أولياء الله سبحانه . حملوا لدينه سراً ، فأسبلوا على وجوههم من التقية سترا . جانبوا غرورا فولوا ما عند الناس ظهورا ، وكانوا كما قال الله تعالى : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » (١) .

أيها الناس ، كثر الداعون ، فكل يقول : لملىَّ إلىَّ ، وكثر المدعون كل يقول ، المطلوب لدى لدى ، ووجه الليل قتير ، والمسلك بلا هاد مرشد مبير ، فلا تستجيبوا لداعيهم ، على لبس ولا تتبعوا إلا من أتاكم من البرهان بشهاب قبس ، وأحذروا أن تغولكم الغيلان ، ويستحوذ عليكم فينسيكم ذكر اللهَ الشيطان .

واعلموا أن الشيطان يتشكل بغير أشكاله ، ويتمثل لعيونك بمثال غير مثاله قال النبى ﷺ . إن إبليس ليتراءى للناس بصورة العلماء ، وذلك أنه لو ظهر لهم بخلقه المغير ، وصورته المشوهة بالسماحة والعور لكان فى مشاهدة منظرة ما يمنع عن اقتفاء أثره ، لكنه – لعنة الله – ليستعير حلبة غيره للاضلال ، فيستوطىء بها مركب الاستغواء والاستذلال ، فلا يغرنكم بتدسيسه ، ولا يتسفزنكم بتدليسه .

وأعلموا أن على قدر قوة صاحب كل دور قوة إبليسه ، ودوركم هذا من معنى الشرع خاتم الأدوار ، إبليسه على قدره خاتم الأبالسة الأشرار . قال الله جل

---

(١) سورة الإسراء : ٤٥ ، ٤٦ .

مخبرا وعز خبيرا . ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ (١) .

فإياكم أن تتبعوا خطوات الشيطان ، وتزلقوا فى مزالق الكفر والطغيان ، فتهدو بنزع اللباس عنكم سوءة العيريان ، القاصرة منكم بد المكنه أن يخصف عليها من ورق الجنة . ومن أين للمسكين أن يستجن بتلك الجنة ؟ أعاذكم الله من شر شياطين الإنس والجنة .

وإذ قد تكامل هذا الفصل فنقول : إن صاحب كل شرع آدم دوره من حيث إنشاء النفوس بالعلم ، لا من حيث ولادة الجسم ، يصدق ذلك قول الله تعالى : «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأواجه أمهاتهم (٢) ، (وإذا ثبت أن أواجه أمهاتهم) ثبت أن النبى أبوهم .

ومعلوم أن هذا الكلام لا يصدر عن الله سبحانه على جهة الاستحسان ومجاز اللفظ كما يزعمون . فإنه إن كان مستحسنا كان كذبا ، ولا تكاد تفى تحاسين هذا السبب بنقيصة الكذب . وقد قال النبى ﷺ فيما هو موافق للآية : « أنا وأنت يا على أبوا المؤمنين » .

---

(١) سورة الفرقان : ٣١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٦ .

وقد علمنا أن سبب النبوة الذى يصل الابن بالأب هو فاضل قوة فى الذكور، يستحيل نطفة ، فتحركها الشهوة ، فندعها فى قرار مكين ، فتستفيد صورة منسوبة إلى ذلك الأب . فيدعى ذلك ابنا وهذا أبا . وإذا كانت فضالة قوة شهوانية تسمى نطفة ، تصل بسبب سببا ، وتجعل واحداً لبنا وواحداً أباً ، كانت فضالة قوة النبى ﷺ التى يفيضها على النفوس من كلمات الله تعالى التى تستنير بها جواهرها أحق وأولى أن تصل بسبب سببا ، وتجعل المؤمنين المقتبسين من أنوار النبوة بوساطة الأم البرة أبناء ، والنبى أبا . وإذا كان الصورة هذه ، فقد ذهب طريق الاستحسان ، وحقت حقيقة القول بواضح البرهان .

وإذا ثبت آدم ثبت إبليس الدور الذى أظهر له صفة العنود [1] ونبا جبينه عن السجود ، ورضى الاستكبار دينا فقال : « أ أسجد لمن خلقت طينا [2] » ، وثبت كون ذيل عمره بإنظاره إلى يوم يبعثون طويلا ، (وثبت تكاثر أعوانه بقوله . «لأحتنكن ذريته إلا قليلا » [3] .

والأمر فى جميع هذه الأقسام عيان للعقول لا خبر ، وفيه لذوى الاعتبار معتبر، فياويل إبليس، لقد أتسع نطاق قدرته ، وامتد رواق سحره على ذويه وأسرته، فهو عندهم من حيث الاسم ملعون مشئوم ، ومن حيث المعنى مطاع مخدوم .

---

(١) العنود من عند أى تباعد وانصراف .

(٢) سورة الإسراء : ٦١ .

(٣) سورة الإسراء : ٦٢ أى لأملكن مقادتهم كما تملك الدابة بوضع اللجام فى حنكهما .

وأنم تسمعون مما تقرؤه عليكم مما يليه ما ينتفع باستماعه المفلح السعيد ، ويفوز بتصفحه من ألقى السمع وهو شهيد ، وقال الله سبحانه . « الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون [(١)] » . الأرض محسوسة مشاهدة وهى فراش كما أخبر الله سبحانه عنها ، والحيوانات بها وعلى ظهرها ، ومتقلبهم ومثواهم فيها ، وقد قال رسول الله ﷺ « الأرض أمكم وهى بك برة » فقد أوجب أما غير المتعارف من حيز الحبل والولادة ، وأوجب برا ، والبر لا يصدر إلا عن حى قادر قاصد ، وهذه أشراط لا تكاد توجد للأرض الظاهرة . وقد بينا فيما تقدم أن كلام الله سبحانه خاص وعام ، فكل ما وقع تحت الحواس الخمس من الأشياء التى يشير سبحانه إليها ، ويدل عليها ، فهو عام لجميع الناس مثل الأرض التى يجرى الكلام فيها والعبارة عنها ، والسماء وما يجرى مجراها ، لأنه إذا قيل : الأرض ، عرفها كل واحد ، وكذلك السماء ، وإذا قيل : الجسد ، عرفه كل أحد وإنما يلقع الاشتباه فى معرفة الأشياء الغير الواقعة تحت الحواس . فإذا قيل . النفس التى هى واقعة تحت الحواس ضاق عن معرفتها براح العامة ، وصارت موقوفة على الخاصة . وإذا قيل : الأرض من قبيل النفوس والسماء من جنسها ، وقع ههنا من المنكرين الإنكار ، واستبان من الناقصين العوار .

فمن أجل ذلك عميت عليهم الأنباء ، فلم يميزوا محسوسا ، فيما يتضمنه الكتاب من معقول ، ولم يفرقوا بين مثل منه وممثول ، وذلك مثل أختباطهم فى

---

(١) سورة البقرة : ٢٢ .

قوله سبحانه حكاية عن أهل الجنة : « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين (١) ، فإن كان القوم المحكى عنهم هذا القول فى الأرض فما هم فى الجنة ، وإن كانوا فى الجنة فما هم فى الأرض ، والسموع فى الجنة أنها فى السماء السابعة التى هى بالبعد الأبعد من الأرض ، فلما لم يعلموا أين يطلعون رءوسهم قالوا . عنى بالأرض أرض الجنة ، فجعلوا ذلك أثنين جنة وأرضها ، وهذا خلف من القول . ولو أنهم تنبهوا لأرض غير المشاهد المتعارف ، وسماء غير المتعارف لكفوا الخبط فى العشواء ، وكفوا عن خوض الظلماء .

والأرض المحسوسة هى التى تنسب إليها هذه الجملة الكثيفة التى هى الجسم، فهو مأخوذ منها ، ومفترش لها ، ومتمهد على ظهرها ، وإذا مات ينحل إليها ، فيصير هو وهى شيئا واحدا وجنسا واحدا ، وههنا أرض أخرى من جهة الشريعة هى فراش النفوس ووطاؤها ، ومنها اكتسابها لصورها الباقية فى معادها ، إذا كان قول القائل كلمة الشهادة التى هى لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ مبدأ لصورة النفس ككون النطفة مبدأ لصورة الجسم ، فكما أن النطفة التى من أجل قلتها وصفائها سميت نطفة ، وهى على قلتها وخفة وزنها محتوية على الأشكال كلها ، كالعين ، والسمع والأنف واليد والرجل وغيرها ، التى باستكمالها يصير الإنسان إنسانا ، فكلمة لا إله إلا الله التى هى كلمة الإخلاص على قلتها ، تحتوى على جميع المعارف الروحانية والجسمانية الى باستيسفائها يصير إنسان ذلك العالم إنسانا .

---

(١) سورة الزمر : ٧٤ .

فالإنسان بنفسه مولود حجة صاحب الشرع والدين ، وهى الأرض المعقولة ، والأم البرة التى عناها النبى ﷺ كماه أنه مولود الأرض المحسوسة بجسمه ، فقد وضح معنى قوله ﷺ . الأرض أمكم وهى بكم برة ، ووافق قول الله تعالى : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأواجه أمهاتهم (١) ، وقول النبى ﷺ ، أنا وأنت يا على أبوا المؤمنين ، والهدى مع الدليل ، وعلى الله قصد السبيل .

---

(١) سورة الأحزاب : ٦ .

قال الله تعالى : يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا [١] » .

قال المفسرون : النفس الواحدة التى خلق الناس منها آدم ، وزوجها المخلوقة منه حواء ، وبث رجالا كثيرا ونساء ... الآية . ونحن نقول . إنه فى ضمن الآية من معنى الحكمة التنبيه على منازل النبى والوصى والأئمة عليه السلام وافتتاح الآية بأمره بالتقية ، فالتقية شعار أهل الإيمان ولباس أهل الدعوة ، وبهذا الأسم من الاختصاص بهم ما ليس به لأحد غيرهم . قال الصادق جعفر بن محمد . التقية دينى ودين آبائى ، ولا دين لمن لا تقية له » .

وقوله : « خلقكم من نفس واحدة » النفس الواحدة التى خلقنا منها خلق الدين هو النبى ﷺ إذ كانت النفوس المتصورة صورة الدار الآخرة منه نشأت ، ومن فضلات ما أنزل عليه قامت وانبعث ، والزوج المخلوقة منه ضلعاً من أضلاعه ككون حواء ضلعا من أضلاع آدم عليه السلام هو وصيه عليه السلام الذى كان أحد حججه ، فصار زوجا له ، حاملا لعلمه ، وخازنا لسره ، ومستودعا لعلمه وحكمته .

« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » الرجال العلماء المفيدون ، والنساء المتعلمون المستفيدون . قال الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم

---

(١) سورة النساء : ١ .

على بعض [1] ، يعنى أن العلماء قوامون على المتعلمين قد أظهر الله فضيلتهم عليهم ، وجعل المتعلمين متعلقين بهم تعلق المرأة بزوجها . وقال رسول الله ﷺ لو جاز أن يسجد أحد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها فهذا حكم مفروض فى ظاهره ، على كون الخلل داخلا عليه من بعض الوجوه ، وكم من مرأة تكون خيرا من زوجها ، واتقى لله وأشد محافظة على حدود الله . وإذا أخذ الكلام على وجه الحكمة أمن اختلاله واعتلاله ، لكون العالم أفضل من المتعلم فى جميع الوجود . قال النبى ﷺ ، كاد العلماء يكونو أربابا ، ثم قال الله سبحانه فى سياقة الآية . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، فرجع إلى ذكرها التقية إظهاراً لتخصيص الآية بالمعانى التى سبق ذكرها ، ثم أتبعه بقوله جل جلاله . ، والأرحام ، يعنى صلوا الأرحام ظاهرة . والمعنى صلوا هذه المراتب بعضها ببعض ، ولا تكونوا من الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، فإن فى الجمع بينها وصلة بعضها ببعض صلة الرحم الدينى ، وفى قطع بعضها من بعض الزيغ عن صراط الله السوى . روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : قاطع الرحم ملعون . وحكمه فى ظاهره ثابت ، لكنه فى باطنه أثبت وألزم وآكد ، فإنه ﷺ وإن كان ذا تعطف على رحم الناس أن تقطع، وهو يعلم أن كم من رحم قطعه أولى من وصله ، فهو رحم الدين ، ووصله أكثر تعطفا لكونه مبعوثاً لما يعمر طريق الآخرة . فأما ما يتعلق بالدنيا فالناس حرصا عليه غير محتاجين إلى معلمين فيه ومفهمين .

---

(١) سورة النساء : ٣٤ .

وقد كان قرىء عليكم من قول الله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشا » ما ترج عنه فى لسان التأويل ، مما أخرج به من حد المحسوس إلى المعقول عند العقلاء ، ومن حكم المعروف إلى المجهول لدى الجهلاء فقيل : إن ههنا أرضا ثانية يراها البصراء دون العميان ، والبلغاء غير الأعزاب والصبيان ، الذين هم مصيدة الغيلان ، كما قال النبى ﷺ : « لا تغول الغيلان غير الأعزاب والصبيان » . فواعجبا من متعجب من هذا الموقع . يقول : لقد جئتم بسحر مبين ، أثبتم غير الأرض ترونها أنتم ، وجعلتم الناس عنها عمين ، ويا غفلة عن تدبر فحوى كلام رب العالمين إذ يقول « وهو أصدق القائلين » : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسسهم ومما لايعلمون [1] » . وفى موضع آخر . « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون [2] » .

وعند ذلك نقول كما قال الله عز وجل مخاطبا لرسوله ﷺ : « فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر [3] » . نقول : إن من ذلك الشىء النكر الأرض غير المتعارف على ما قدمنا شرحه بإذن الله عز وجل فنقول فى معنى قوله : « والسماء بناء » إن السماء للأرض بمنزلة الذكر للانثى محسوساً ومعقولا ، لأن منها الإفادة ومن الأرض القبول والاستفادة ، والسماء المعروفة الطبيعية على رفعتها وعلوها

(١) سورة يس : ٣٦ .

(٢) سورة الذاريات : ٤٩ .

(٣) سورة القمر : ٦ .

عمياء صماء من حيث إنها جماد ، وهى محيطة بأجسام البشر الكثيفة لابنفوسهم اللطيفة والنفس البشرية محيطة بها من جهة المعرفة والعلم ، والسماء محيطة من وجه ، محاط بها من وجه ، وعدم فضائها هو بالنسبة إلى الأجسام لا إلى النفوس البشرية ، فالنفس البشرية أعظم فضاء منها ، إذ كانت تحتوى عليهما وتستغرقها وتحصرها فى دائر فكرها فإذا كانت هذه صورة السماء المحسوسة المعروفة بالنسبة إلى النفوس البشرية ، فكيف بها عند النسبة إلى من يحل من جميع النفوس البشرية محل السماء ، وذلك هو صاحب الشرع الذى هو مستخلصها من حد القوة إلى الفعل، ومكملها ومبلغها غايتها من دار الكمال وعالم العقل ، فهو ﷺ السماء النفسانية التى هى سماء النفوس ، ككون السماء الطبيعية سماء الأجسام ، وهو البناء المحكم الذى أنشأه الله للخلود والبقاء ، والسماء الطبيعية مخلوقة للزوال والفناء .

قال قائل ممن عميت عليه الأنباء ، وشضيته من الجهل الظلماء : ما عهدنا من كر راجعا بعد موته إلى دنياه ، فنبأ من حال آخرته مارآه ، فنرجو أن نلقى إذا متنا مثل ما لا قاه ، فقيل له . إن الغائب غيبة الممات ، والغارب مغرب الإنحلال إلى العظام والرفات ، يموت منقادا بزمام الإجبار ، ومغلوبا على حكم الإختيار ، وإن مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان صائراً إلى ما هو خير له من الدنيا فمحال أن يرجع إلى دار البلاء ، ويستبدل بالذى هو خير ما هو الأدنى ، وأن كان صائراً إلى ما هو شر منها فما لأن يرجع معنى . وإذا كانت النسبة هذه علم أن هذا الأعتراض فاسد الوضع والمبنى .

وسوى هذا فإن الله سبحانه جعل المشاهدات على المغيبات دليلا . وهدى بما يعرف إلى ما نكر سبيلا ، وهو مثل جواب النبى ﷺ لسائل حين سأله عن معرفة ربه فقال . ، من عرف نفسه عرف ربه ، فعكس السؤال ، وضيق فى المقال إلا عن ذات نفسه المجال ، وكمثل ذلك نقول فى هذه المسألة : الذى تستبهم معرفته من قدام لم نصل إليه لنستقرىء علمه من وراء ، جاوزناه وعبرنا عليه . فلما علمنا علم اليقين بحال الجنين وكونه فى ضيقة المشيمة مسكنا ، واغتذاء دم الطمث مأكلا، وكونه فى ذلك المركز بشكل الكرة فى استدرائه مشكلا ، وعن سمعه وبصره وجوارحه – على وجودها معه – معطلا . فحين خلص من ذلك المركز إلى دار الدنيا اعتاض عن ضيقته بعظيم الفضاء ، وعن حصاره بشم الهواء ، وكشف عن سمعه وبصره ممدود الغطاء . ونقل من اغتذاء دم الطمث بسرته إلى الاغتذاء بفمه من لطيف الغذاء ، وقع العلم من هذه العقبات التى اقتحمناها ، والقناطر التى عبرناها بكون الدر الآخرة التى هى قدامنا بالنسبة إلى دار الدنيا التى نحن اليوم

فيها كمثل دار الدنيا بالنسبة إلى ضيقة الأمكنة التى خلفناها وراءنا وبقى أن تكون صور النفوس التى تخلص إليها عند الفراق ، التفاف الساق بالساق سليمة من عاهات الكفر والنفاق . فطوبى لمن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، والفوز لمن أسلم وجهه اللّه فى طاعة أوليائه وهو محسن .

وقد كان قرئ عليكم من قول اللّه سبحانه : « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ما كشف عنه لسان التأويل غطاء ، فأفاد المؤمنين هدى وشفاء . وأنتم تسمعون ما يلقى عليكم من قوله جلت قدرته . « فأخرج من الثمرات رزقا لكم[1] » . ومعناه بما يطيب به النفوس جناه ، وينير جواهر العقول سناه .

قوله جلت قدرته . « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » كان تقدم القول فى حديث الماء المنزل من السماء ، وعدول أهل التفسير به عن وجهه المتعارف بقوله : « أنزل من السماء ماء » أنه الوحى الموحى إلى الأنبياء عليه السلام حتى كأنهم شموا نسيم الحقيقة من إنكارهم لها ، وجحودهم بها . والماء من هذا الوجه هو الذى قال اللّه تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى[2] » ، وقال فى موضع آخر : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ... الآية [3] » . فقد علم فى الماء الظاهر أنه طهرة للنجاسات ، ثم أردفه بقوله :

---

(١) سورة البقرة : ٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣ .

(٣) سورة الأنفال : ١١ .

« ويذهب عنكم رجز الشيطان » وأكده بقوله : « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » فتسلسل الكلام وانتظم بما لا يوجد للماء عليه ولا على فعله سبيل ، وقد يوجد كله للعلم . فإن الطهرة التى تعلقها بالعلم لاينفع فيها الماء للعلم ، فإن الطهرةالتى تعلقها لا ينفع فيها الماء ، كما أن الطهرة التى تعلقها بالماء لا ينفع فيها العلم ، لأن المشرك الذى نجاسته من جهة نفسه لو أستعمل عليه جميع مياه الأرض لم يزده إلا نجاسة ، وطهرته بكلمة الشهادة التى هى فاتحة العلم وترجمته ، والنجس بالنجاسات الطبيعية لو فوتح بعلوم الملكوت كلها لم يغنه عن الماء الذى يزيل عنه الدرن والنجاسه ، فكذلك فإن الربط على القلوب اختصاصه بالعلم الذى ينشىء اليقين ، وينفى عوارض الشبه والظنون عنها . والماء بمعزل عن هذه الصفة ، وكذلك ثبات الأقدام الذى هو تابع للربط على القلوب ، وسكون الجأش هو من موجبات العلم دون الماء . وقد أجاز أهل الخلاف للحق التطهر بالخل والمرقة والمائعات احتجاجا بكونها الماء الطاهر ، حتى جوز بعضهم التطهر بنبيذ الثمر ، واستدل عليه بقوله أثره : « تمرة طيبة وماؤها طهور » . والأئمة من أهل بيت النبوة يأبون ذلك أشد الإباء ، ويمنعون عنه أعظم المنع ، ولا يرون الطهارة بماء الورد فضلا عما زعموا – إلا بالماء القراح الباقى على هيئة ما خلق دون ما شابه علاج آدمى ، فغيره وأحاله عن حاله .

والمعنى فى ذلك أن أصل الماء هو الذى أنزله الله سبحانه من خالص دينه ووحيه ، ولا تقع طهارة النفوس إلا به ، من غير قول فيه بالرأى ، ومهما خالطه شىء من ابتداع المبتدعين وأختراع أولى الأهواء المضلين ، بطلت الطهارة به ، وهم يرون خلاف ذلك من الأخذ برأيهم وقياسهم فى الشريعة ، ذلك مما يعلل العلم

إذا خالطه غيره . الذى هو من طريق الوحى ويسقمه ، مثل الماء .

والماء المنزل من السماء ينقسم قسمين . أحدهما مشروب كهيئة ما نزل مسكن للظمأ ، منتفع به فى ترطيب الأمعاء والأحشاء ، والآخر ما تكنزه الأرض فيكون مادة لإخراج النباتات المختلفة والثمرات الحلوة والمرة ، فيكون بها وجود الصور الجسمية وحياتها ، ومعها ثباتها وبقاؤها . وكذلك الوحى المنزل الذى هو كالماء المنزل ، منه ما يستملى على هيئته وجهته ، فتطرى به النفوس وتزهى به العقول ، كالقرآن الذى يتلى ، فلا يعدم جدة وبهجة وطراوة ولذة ، يجد المؤمن شعاع ذلك على قلبه وروحه فى نفسه ، وكالأوامر والنواهى الشرعية التى هى نص ما أمر به صاحب الشريعة ﷺ عن الوحى النازل إليه ، ومنه ما يخلص إلى الأرض يعنى حجة الناطق وصاحب بيانه ، فيخرج منها أنواع الأزهار والثمار التى منها تقوم الصور النفسانية المنشأة للخلود فى دار القرار، وذلك قوله سبحانه . فأخرج به من الثمرات رزقا لكم .

وقد كنى الله سبحانه عن رسوله ﷺ بالذكر الذى هو صفة القرآن ، لأمر يلتبس تحقيقه إلا على من شام بارق التأويل والبيان ، فقال ومن أحسن منه قيلا : « قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا [1] » فكان قصارى ما قال فيه قائل . إنه إنما سمي به لأنه للقرآن حامل ، وإن العادة جرت أن يسمي الشيء باسم ما صحبه ولاءمه ، واستشهدوا بقوله سبحانه . « وأرسلنا السماء عليهم مدارا » ، وأنه المطر ، عبر عنه بالسماء بكون السماء سببه ، ثم وقفت بهم القدرة بعد ذلك أن يقدموا قولا فيه أو يؤخروا ، أو ينتزعوا له معنى غيره فيما خافتوا به أو جهروا . وإنما سمى الله سبحانه النبى ﷺ ذكرا ، لأنه فصل ما أنزل من القرآن مجملا ، وبين مقادير العبادات ولوازمها آخرا وأولا ، ولولا قيامه بالإبانة عن مقاديرها وحدودها لوقفوا عن موارد الطاعات ، بأن عميت عليهم الأنباء فى كيفية ورودها ، فلم يميزوا أى شيء الصلاة ؟ وكيف تصلى ؟ وما الزكاة ؟ وكم هى ؟ وكيف تزكى ؟ وكان يكون مثل القرآن مثل الدواة والقلم للأمى ، لا يدرى أين يضعهما ، ولا يفطن لموقع الفائدة والانتفاع بهما . فلما كان هو ﷺ المستعمل للقرآن الذى هو الذكر استحق الكناية عنه بالذكر ، إذ كان هو المستخلص لفوائده ، والمفضى به إلى حد العرف من حد النكر .

وإذا ثبت أن النبى ﷺ هو الذكر بكونه على القرآن الذى هو الذكر حاكما ، وبإخراج دفائن علومه ، ودفائن رموزه قائما ، كان أهل الذكر الذين قال الله سبحانه فيهم : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون [2] » هم الأئمة من آل محمد ﷺ فهم

(١) سورة الطلاق : ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة النحل : ٤٣ .

المخرجون بحكمة بيانهم من الشجر الأخضر نارا ، والجاعلون لتابعيهم من زهر العلوم جنات وأنهاراً . وقد فسر المفسرون لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، وقالوا هم أهل القرآن . وقد صدقوا فى قولهم وكذبوا . أما كون حفاظ القرآن من أجناس الناس أهل الذكر المسئولين فهو الكذب ، لكونهم عن هذه الرتبة معزولين ، وأما كون ذلك أمير المؤمنين عليه السلام الذى هو أحق الناس بعد رسول الله ﷺ بالذكر ، ومن يقوم مقامه من ذريته الأئمة الذين هم ولاة الأمر ، فهذا القول الصدق ، الذى ليس عليه غبار ، والجدد الواضح الذى ما عنه عثار .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام : « ما نزلت على النبى ﷺ آية من القرآن إلا وقد علمت كيف أنزلت : وفيم أنزلت ، ومتى أنزلت : وأين أنزلت ، من سهل أو جبل ، وإنى لأعرف الناس بما بين الدفتين (١) ، فأمير المؤننين هو الذكر نفسه ، لكون نفسه مشتقة من نفس النبى ﷺ وهو أيضا أفضل أهل الذكر ،والأئمة من ذريته هم الذكر ، لكون نفوسهم مشتقة من نفسه ، وهم بعد أهل الذكر ، لأن من قام به برهان الذكر فهو الذكر ، ومن قام به برهان الصلاة ، ومن قام به برهان الزكاة فهو الزكاة ، ومن كانت بطاعته المرتقى فى أسباب النجاة فهو النجاة . قال النبى ﷺ تصديقا لهذا المقال ، وتنزيها له عن شين الإفك والافتعال : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

---

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن ١٨٧/٢ .

فنقول : إنه لما أوجبت الحكمة من الله تعالى والرأفة والرحمة أن يجعل الإنسان ثمرة العالم ولبه وصفوته ، أوجب أن يختصه من ثمرات الأرض بصفوتها ولبها وخلاصتها ، ويقصر على الحيوانات التى هى دونه القشور ، على حسب منازلهم فى كونهم القشور . وعلى هذه القضية ، فلما كان مقام أهل الحق وأتباع الأئمة والأدلة من بين أهل الملة والقبلة مقام الإنسان من باقى الحيوان فى كونهم ثمرات أهل الملة وخلاصتها ولبها وصفوتها ، اختصهم الله بزبدة الحكمة ومخها وصفوتها ، وقصر قشور الكلام على ذوى الأهواء والآراء التاركين للدليل ، والناكبين عن قصد السبيل . وهم الذين كنى الله سبحانه عنهم فى كتابه ، فقال : « أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا [1] ، ليلحق كل شبيه بشبيهه ، وكل نظير بنظيره . وهذه الثمرات التى أشرنا إليها من ثمرات الجنة ، لا ينقصها الأخذ عنها ، والإنفاقى منها ، كالسراج الذى يوقد منه ألف سراج ، فلا ينقص من الأصل شيء .

وقوله سبحانه : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » نهى عن الشرك الجلى والشرك الخفى . وقد قال رسول الله ﷺ : « الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على المسح الأسود فى الليلة الظلماء » . والذى يوجب الشرك بالمعبود سبحانه هو وقوع الشرك بالحدود . إذ كان حدود الله سبحانه من الوصى والأئمة من بعده عليه السلام هم القائمين بإظهار معالم التوحيد ، ونفى التشبيه والتحديد ، وتفصيل ما أجمله النبى ﷺ فى ذلك من القول ، والإتيان فيه بالبرهان الواضح ، والشاهد العدل . فمن عدل منهم إلى غيرهم سقط عن معرفة ربه ، والوقوف على حقيقة

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

دينه ومعالم شرعه ، وأفضى إلى الكذابين الذين يصفون زيدا بما ليس فيه ، ويسلبون عمرا صفة هى له ، وهو الذى حد به [1] الكذب أنه إيجاب صفة لمن ليست له ، أو سلبها ممن هى له . فهم بين من يصف الله سبحانه بصفة الطبيعة ، وبين من يصفه بصفة الجسم فى النزول والمجىء والمشاهدة ، ويحليه حلية ذوى الأجسام وجها ويدا وجنبا وكلاما ولسانا ، تيها منهم فى ظاهر القرآن الذى هو أقفال مغلقة ، وأغلاق موثقة ، مفاتيحها بأيدى غيرهم . وقصارى المدقق المجرد المجهتد فى النظر منهم أن يصفه بصفة المبدع الأول ، الذى هو موجود عنه إبداعا ، فلا يفرقون بين العبد والمعبود ، ولا يعرفون المالك من المملوك وليس عجيبا ممن لم يفرق بين إمام الحق وإمام الباطل فى دار الدنيا ، وهما فى الجسمانيات مثلان أن لا يفرق فى دار اللطافة وعالم العقل بين الأعيان الروحانية وبين مبدعها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، « إن الشرك لظلم عظيم » .

---

(١) يقصد وصف الشخص بغير صفته .

قال بعض الصادقين عليه السلام فى التوحيد : المستقر فى قوانين الحكمة أن المحسوسات سلم إلى المعقولات ، به يرتقى إليها ، ومن جهته يقع شبه الاحتواء عليها .

ومعلوم أن المسافر بجسمه لا يزال يتمادى فى سفره مادام يصادف زادا ومحملاو هواء متوسطا معتدلا ، فإذا خرج من حد الاعتدال فى الهواء ، وأعوزه ما يتماسك به من الغذاء وقف به سفره ، وكان الأحوط من متقدمه متأخره لأن جسمه مركب من نقطة الاعتدال وإذا رام أن يتجاوز به حده أشفى على والانحلال . وكذلك المسافر بفكره ، يجب أن يكون له ما يقوم منه مقام الزاد من المسافر ، وأن يجد من آفاق الاعتدال ما يسرح فيه ، فإذا هو جاوزه هلك هلاك المسافر بجسمه إذا جاوز حد الاعتدال . وهذا باب يتعين على المسافر بفكره مراعاته ، كما يتعين على المسافر بجسمه مراعاة مثله . ويعضده من الشرع قول النبى ﷺ : إياكم والتعمق ، فإن من هلك قبلكم هلك بالتعمق .

وإذا كانت النصبة ما ذكرناه ، معا بان فى العقل وضوح برهانه ، فقد علمنا أن المسافر بجسمه وإن أوغل فى السفر لا يكاد يذرع بقدمه من الأرض إلا أقل أجزائها ، لكون جسمه المشقوق من طينة الأرض أقل أجزائها ، ثم إنه إذا جاوز حد الاعتدال هلك . وكذلك المسافر بفكره فى الفضاء الفكرى ، لا يكاد يذرع بقدم فكره من سطح الأرض الفكرية – على تقريب اللفظ بحكم ضيق العبارة – إلا أقل أجزائها، لكون فكره المنبعث من الأرض الفكرية أثرا من آثارها ويمتنع أن يقال أقل أجزائها . ثم إنه إذا جاوز حد الاعتدال هلك هلاك المسافر بجسمه عند تجاوز خط

الاعتدال . فأين يتاه بكم ؟ وأين تذهبون فى البحث عن مبدع العالم الفكرى ، وأنتم عن مساحة بعض الأرض الفكرية بأقدام أفكاركم معقولون ، وعن الحول والقوة عند النفوذ فى أقطارها معزولون . فسياقة القول إلى نفى المعرفة ، فهو حقيقة المعرفة . وسلب الصفة ، فهو نهاية الصفة . اللهم غفرا ، وحمدا لك وشكرا .

وأنتم تسمعون ما نقروه عليكم من مثله آنفاً ، ما يرد إلى الحق صادفا عنه جانفا . قال الله سبحانه : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين [١] » .

أرتاب الكافرون بكون القرآن منزلا من عند الله سبحانه ، فقالوا : « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا [٢] »

وارتاب المنافقون بالقرآن الحى الناطق [٣] القائم من من القرآن الصامت[٤] مقام الفلاح من الأرض والحداد من الحديد ، والنجار من الخشب ، وكونه مختاراً من الله سبحانه للرتبة التى أقيم لها ، والمكانة التى اختص بها . فقيل إن النبى ﷺ

---

(١) سورة البقرة : ٢٣

(٢) سورة الفرقان : ٤

(٣) يقصد بالقرآن الحى الناطق الوصى وهو الإمام على

(٤) ويقصد بالقرآن الصامت القرآن الذى بين دفتى المصحف . وقد أوضح ذلك فى مجالس متعددة .

مال إليه ميل إلى أهله وذوى رحمه ، فقرر الله سبحانه المنكرين للقرآن الصامت على أن يأتوا بسورة من مثله إن كان ذلك مما يأتى بالاختلاق والاختراع . وكمثله قرر المنكرين للقرآن الناطق الذى هو الوصى ﷺ أن يأتوا بحد من الحدود الجارين فى مضماره ، إن كان يمكن من جهة اختراع الرأى والابتداع .

وسميت سورة القرآن سورة لما فيها من الشرف والارتفاع . فكأنه لم تنزل على النبى ﷺ سورة إلا وتجددت بها رفعة . ثم أنها فى اشتمالها على ذكر التوحيد وذكر الرسول ﷺ وواجب الأمر والنهى ، وخير ما كان وما يكون على مثل ما يكون عليه سور المدينة الجامعة لأسباب الخيرات والنعم والبركات وكذلك كل حد جار فى رتبة الوصاية والإمامة فهو على مثل ما يكون عليه السور المبنى على المدينة العامره بالخيرات ، المشتملة على البركات ، فى معرفة حقيقة التوحيد من غير تشبيه ولا تعطيل ، ومعرفة الحدود الروحانية والجسمانية التى بها يقوم صلاح المعاد ، كما بالمدينة العامرة يقوم صلاح المعاش ، فقد وقعت المطالبة عليهم أن يقيموا حداً من هذه الحدود ، ممن يقوم مقام سورة من سور القرآن . والخطاب جامع للجهتين ، والحجة واقعة على الفريقين ظاهراً وباطناً .

وههنا كلام من حيث الظاهر . معلوم أن النبى ﷺ مبعوث إلى العرب والعجم، كما قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » [1] ، وكما قال النبي ﷺ : « بعثت إلى الأبيض والأحمر » . وإن القرآن الذى هو معجزته ﷺ عربى اللفظ ، فله أن يطاول العرب به ، ويطالبهم بمثله ، فأما أن يتخذه معجزة

(١) سورة سبأ : ٢٨

عند العجم الذين لا خبرة لهم بالعربية ولا دراية فلا يجوز .

فإذا هو ذو معجزة عند العرب ، وليس بذى معجزة عند العجم ، إن كان الأمر على ما يعرف أهل الظاهر الذين عبدوا ما نحتوا ، ففرقوا شمل دينهم وشتتوا .

ونحن نقول . إن القرآن معجز للعرب والعجم . فأما المتعارف من إعجازه فهو الفصاحة التى ألجمت الفصحاء ، وأفحمت الخطباء من حيث اللفظ . وهذا هو الحد الذى ينتهى إليه من يصف فيقف . وقد أوضحنا خروج العجم من شرطه ، وخلوهم من قسطه .

فأما الذى يعم من إعجازه الأعجمى والعربى والملى والذمى فسيأتى شرحه فيما يلى هذا المجلس بعد أن سقنا مجلساً مفرداً بذكره فيما تقدم ، بمشيئة الله وعونه .

واستعدوا للوفادة على ربكم بلباس التقوى ، فكأنكم بالموت قد هوى بكم في المهوى ، فيحول بين أحدكم وبين ما يحاول نقضه وإبرامه ، ويحق قوله سبحانه: «بل يريد الإنسان ليفجر أمامه [1] » .

فسر المفسرون قوله تعالى : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، أنه يقدم الذنب ويؤخر التوبة . يقول : إني أتعجل من الشهوات قضاء آرا بي ، ثم أجعل بعده إلى الله سبحانة متابي . وذلك من مخادعة المرء لنفسه ، واغتراره بلباس العمر الذي لا يدرى متى ينزع به عن لبسه .

فإياكم والإقتداء بمن هذه حاله ، فيحل بكم المنذور والمحذور . « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور [2] .

وقال بعض الصادقين عليه السلام : عقول عالم الطبيعية مستمدة من عقول الإبداع إنهم لمتقدم أنوار سمائه مطارح الشعاع . فهم يستندون إليهم استملاء عنهم فيما يضعونه من الأوضاع . ذلك بأنهم مسندون ، وهؤلاء مستندون . وهم مجرمون وهؤلاء مجسدون . وهم مطلقون وهؤلاء مقيدون فريق منفعلون ، وفريق فاعلون . فريق يمدون وفريق قابلون ، وجميعهم في ربقة العبودية للمبدع الحق حاصلون . من اعتصم بهم فقد اعتصم من الحق بأقوى عصمه ، وأصبح والأفلاك موطيء قدمه .

---

(١) سورة القيامة ٥٠ .

(٢) سورة فاطر : ٥٠

فنقول : أن الذى يصح به دعوى من يدعى حقا فى دار أو ضياع أو عقار أن يأتى عليه بشهداء لا يجرح شهادتهم جارح ، ولا يدفعهم عن صدق اللهجة دافع فإذا هو أتى بذلك قامت البينة على صدق دعواه ، فخل بينه وبين حقه ، ومكن منه ليتصرف فيه كما يهواه . وعلى مثل ذلك مبنى الدار الآخرة بقول الله سبحانه : « وجيء بالنبيين والشهداء [1] » ، وفى موضع آخر : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد [2] » وفى غيره : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً [3] » وفى موضع آخر : « ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس [3] » ، وما يشبه ذلك . وشهادة الآفاق والأنفس للدين كما قال الله تعالى : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [5] أقوم الشهادات وأصدقها وأولاها بالقبول وأليقها ، وهى فى ضمن معانى كتاب الله الكريم الذى هو القرآن لا فى ظاهر ألفاظه ، وفى مطاوى سره لا فى مجرد كلماته وحروفه . ولو كانت فى ظاهر ألفاظه ومجرد حروفه وكلماته لاحتوى عليها المتغلبون على دين الله ، المنقمصون قميص الوصاية والإمامة عن غير سلطان من الله ، لكن الله سبحانه إبى أن تتناولها أيدى المنغلبين ، ووفر فضيلتها على الآئمة من آل رسول الله ﷺ وجعل الناس فيها إليهم مفتقرين .

---

(١) سورة الزمر : ٦٩.

(٢) سورة ق : ٢١.

(٣) سورة النساء : ٤١ .

(٤) سورة الحج : ٧٨ .

(٥) سورة فصلت : ٥٣ .

فتأويل الكتاب يبرهن على صحة الدين ، ويدل على كمال المرسلين بخاتم النبيين ﷺ بالبرهان المبين ، من شهادة الآفاق والأنفس التى لا مكذب لها ، ولا منكب عنها إلا من غالط نفسه ، وآثر على سعد منقلبه نحسه ، وكفى بالمرء مصحة لدينه أن يكون شاهده قائما من تركيب جسمه ونفسه ، وتأليف سمواته وأرضه .

ولو أن معتبرا اعتبر قوله سبحانه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون [1] ، لوجده من حيث الفصاحة بليغا ، ومن حيث المعنى الذى يعرفه أهل الظاهر ضعيفا ركيكا ، فإن أحد الكفار ممن مضى لم ير ذلك إن كان المعنى فيه رؤية العين ، ولم يعلم به إن كان المعنى فى الرؤية العلم ، فقد فسروا الرؤية بالعلم ، واحتجوا بقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل [2] ، قالوا : عنى به ألم تعلم ، إذ كان النبى ﷺ ما شهد ذلك الزمان . فإن وردت هذه الآية وما يجرى مجراها على مسامع من لا يتنبه لحقيقة معناها ، أسترك عقل الدائن بها والقائل بصحتها . وإذا جاءت على شرط ما يتأوله الوصى والأئمة عليه السلام فيما تتباصر به الشواهد العقلية ، جاءت فى نهاية الإحكام ، وأخذت من حيث وجوب الحجة فيها بالنواصى والأقدام ، فالوصى والأئمة من ذريته الذين يقوم بهم إعجاز القرآن ، ويقومون له

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠

(٢) سورة الفيل : ١

بمبين البرهان ، وهما الثقلان اللذان أشار النبى ﷺ إليهما ، وذكر أنه تاركهما ، فمن ألف بينهما شاهد الأعجاز القائم ، ومن فوق بينهما صادف العجز اللازم .

قال بعض الصادقين عليه السلام إن الجنين ليربو بالاغتذاء الطبيعي ، في المشيمة الكائنة في وعاء البطن ، إلى الحد الذي لا يسعه المهاد الذي هو متمهد فيه فتدفعه الطبيعة إلى فضاء العالم بالولادة المعروفة ، وإن النفس الصالحة التي في الهيكل الإنساني النازل منزلة المشيمة المحيط به العالم الطبيعي إحاطة البطن ، لتربوا بالاغتذاء العلمي المناسب لها ، حتى تنتهي إلى الحد الذي يضيق عنها العالم الطبيعي ، فيصير سجناً له ، فلا يعدم تبرما به وأنفاً منه ، واستقباحا لجميع ما فيه ، ولوماً لحركاته وسكناته وعطائه وسلبه ووصله وقطعه ، ومن أجل ذلك كنى الله تعالى عن النفس البالغة لهذا الحد بالنفس اللوامة ، وأقسم بها في كتابه الكريم حيث يقول : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة (١) » ، وقال النبي ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، وما آتى الله عبداً علماً فارداد للدنيا حبا إلا إزداد الله عليه غضباً ، وكلما تمادى الزمان بها انقطعت العلائق بينها وبين الدنيا انقطاع ، حتى تصر مفارقه لها ، وهي بعد في رباط الجسم . وفي ذلك قال بعض الصادقين عليه السلام ينبغي أن يكون المؤمن مفارقاً بنفسه وعقله لدار الدنيا ، وإن كان بجسمه في دار الدنيا ، فإذا بلغت النفس الصالحة هذه المنزلة ، حصلت بإزاء الجنين الذي ربا وكبر وضاق عليه وعاؤه ، ودفعته الطبيعة بالولادة إلى فضاء دار الدنيا . وعلى مثال ذلك يجري حال النفس الصالحة إذا علقت بمعادها ، وأقلعت عن دار دنياها ، لا تزال في الضيق والحرج إلى أن تنفك من أسر دار الدنيا إلى فضاء عالمها بالموت الطبيعي ، فقيل لها : « ياأيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي (٢) » .

(١) سورة القيامة : ١,٢ .

(٢) سورة الفجر : ٢٧ – ٣٠ .

وكما أن الجنين يكتسب فى بطن أمه عينا لا يبصر بها ، وأذنا لا يسمع بها ، وأنفا لا يشم به ، ويدا لا يبطش بها ، ورجلا لا يمشى بها ، فإذا كشف الغطاء عنه بالولادة صارت كل بطالة من هذه الأدوات عمالة . وكذلك النفس الصالحة ، لها من الخطر والفكرة والذكر والحفظ ، وغير ذلك ما هو فى حجاب ، ككون السمع والبصر والجوارح التى قدمنا ذكرها من الجنين فى حجاب ، فإذا كشف الحجاب عنها بالموت صارت كل بطالة من هذه الأدوات عمالة ، حسب البصر والجوارح للجنين إذا كشف الغطاء عنه بالولادة ، ذلك تقدير العزيز العليم .

أما النفس الصالحة فإنها تربو فى هيكلها ، كما يربو الجنين فى بطن الأم العديم الآلات : السميع والبصر والجوارح التى بها يقع الانتفاع فى دار الدنيا إلى أن ينشق عنها صدفها بالموت الطبيعى انشقاق المشيمة عن الجنين ، فيخلص إلى حيث لا ينتفع بسمعه وبصره وجوارحه ، ويفضى به غذاؤه الذى كان فى حد القوة ، وهو قليل الاحتفال به إلى حد الفعل الذى يكثر ضرره به ، على حسب الجنين المعدوم السمع والبصر والجوارح وهو لايحس به مادام فى بطن أمه ، فإذا أفضى إلى دار الدنيا بأن ضرره وشقوته ، وغلبت عليه حيرته . نعوذ بالله من ذلك .

وتللى عليكم قوله تعالى : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، فإن ذلك جزل بليغ من حيث لفظه ، معلوم من حيث معلوم العامة فى معناه . وقد قال الله جل جلاله : « أو لم ير الذين كفروا » ومتى رأى الكافرون ذلك ، إن كان المعنى بالرؤية المشاهدة كما ذكروا ؟ أو متى علموا به إن كان المعنى العلم على ما فسروا ؟ وأين كان الكافرون فى الوقت الذى كانت السموات

والأرض رتقا ففتقت ، حتى رأوا تلك الحال ؟ . ثم فسروا الرتق والفتق وجوه ، منها قولهم : إنه كان مرتقا بعضها ببعض ، ومنها أن السموات كانت رتقا لا تمطر ففتقت بالمطر ، والأرض كانت رتقا لا تنبت ، ففتقت بالنبات . وفى شرط من هذه الشروط لا يكاد ثبت أن الكافرين كانوا حاضرى ذلك المقام أو عالمى تلك الأعلام .

ومن مثل هذه المواضع الخارجة بظاهرها عن نظام العقول البعيدة من المحصول ، نفر قوم إلى الزندقة ، وآخرون إلى الفلسفة ، وباينوا أصحاب الشريعة ، وقالوا : إنهم لضعفاء العقول سخروا ، ومنهم سخروا ، لعقد رياسة فى الدنيا ، لا شيء فيها للأخرى . ومن أظهر منهم سلمه وجمل لفظه قال : إن أصحاب النواميس – يعنون الشريعة – ينتفع بمكانهم في حفظ الحريم ، وحقن الدماء ، ومنع الأقوياء عن الضعفاء . وإن مواطأتهم على ما هم بصدده مسعدة ، لما لهم من الحظوظ الفلكية ، ومدابرتهم منحسة ، لأن مدابرة المسعودين من الأفعال المنحسة الردية . فهذا مجهود من تظاهر منهم بالحب ، وتوسل بالقرب . والسبب فى ذلك أن ولى الشريعة من هو فيها غريب ، ولم يكن له من ولايتها نصيب ، فأنكروا أن يكون بين الشريعة والعقل نسبة ، أو يوجد هناك عصمة وقربة . وحظروا الكلام على العقليات ، وكفروا من سأل عن الكيفيات واللميات . ولو قاموا إلى أهل البيان الذين حباهم الله سبحانه بوراثة نبيه فى الكتاب والميزان ، كما قال فى كتابه سبحانه : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان [(١)] ، لحلوا عقدة الإشكال وخلصوا فى مثل هذه الآيات إذا سئلوا عنها من عهدة السؤال خلوص الصادق جعفر

---

(١) سورة الحديد : ٢٥ .

بن محمد ﷺ من قول المنجم حين قال له : يا ابن رسول الله ﷺ إني كلما فكرت في قول جدك محمد ﷺ . إن الأرض على ظهر ثور ، والثور على ظهر سمكة عافت دينكم ، وكرهت إسلامكم ، فقال الصادق عليه السلام رويدك . أما عندكم معشر المنجمين أن الحمل برج صفر لاتتخذونه قاعدة حسابكم ؟ قال : نعم قال : أما تجعلون بنية الحساب من الثور الذى هو البرج الثانى ؟ قال : نعم ، قال : ، أوما عندكم أن آخر البروج هو الحوت ؟ قال : نعم . قال الصادق جعفر بن محمد : فهذا هو الثور والحوت اللذان قالهما جدنا ﷺ ، فما الذى نقتمته منه ؟ . وبمثل ذلك يكون التخلص من معنى قوله سبحانه : أو لم يرد الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناها .

وأشكروا سبحانه الذى حباكم بمن سد مقام نبيكم ﷺ بمقامه ، فهو بين ظهرانيكم ، تصلون بصلاته ، وتصومون بصيامه ، فقد أجمع الصائمون برؤية الهلال ، المستظهرون بما يأثرونه عن النبى ﷺ فيه من المقال . « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته » على أن قضية هذا الخبر أن النبى ﷺ كان يتوجه فى بعض الغزوات ، فقال القاعدون عنه ممن كانوا يتقدون به فى قضاء فروض الطاعات . يارسول الله ، إنا كنا نصوم بصومك ، ونفطر بإفطارك ، فما الذى نفعل الآن ؟ فقال ﷺ . صوموا لرؤية ، وأفطروا لرؤيته ، فقد دل بهذا المقال على أن الصيام بالرؤية إنما يجب بحادث السفر منه ﷺ والارتحال ، وعلى أنه لو حضر لكان به غنية عن الهلال .

وإذا كانت الصورة هذه فقد شهدت الخصوم بالإجماع أن الإحتياط للصوم ليس فى الرؤية ، بل فى الإتباع . وغيبة النبى ﷺ مستحيلة ، وأره بوصيه عليه السلام مشدود ، ونظام الإمامة قائم فى ولده ، فلكل وقت منهم إمام موجود ، يدل على ذلك قول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم (١) » يعنى الأئمة من آل رسوله ﷺ . ولو لم يكن فى تقدير الله عز وجل نظم الإمامة فيهم واحداً بعد واحد ، ومولوداً بعقب والد ، لكان التعيين منه على فرض لم يخلق من يقوم به ذلك الفرض باطلا ، فكان مثله مثل من يدعو إلى طعام ، ولما يجعل الطعام حاصلا ، ويدل عليه أيضا قول رسول اللهّ ﷺ : « إنى تارك فيكم الثقلين . كتاب الله وعترتى » إلى قوله . وإنهما أن يتفرقا حتى يردا

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

على الحوض » . ومن المحال أنه ﷺ قال : « إنى تارك فيكم الثقلين » ثم لم يترك، إن ذلك مما يدخل الشبهة على جميع ما أتى به وعداً ووعيداً . ومن جوز الكذب على رسول الله ﷺ فى شيء مما قال كان شيطانا مريدا ، ويؤكد ما قلناه أيضا قول الله عز وجل . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم [1] » . معلوم أن حكم هذه الفريضة قائم ، وبدوام الدهر دائم ، وأن عمر النبى ﷺ كان عند الله سبحانه محصوراً وقدراً مقدراً .

وقوله سبحانه له . « خذ من أموالهم صدقة » ليس يعدو ثلاثة أوجه : إما أن يكون كلفه أن يأخذ ذلك أبد الدهر ، وقد قضى عليه الموت ، وهو تكليف ما لا يطاق . وإما أن يأخذ ذلك ما عاش ، فلما مات ﷺ وجب أن تبطل الفريضة وتسقط إذ كان وجوب دفع الصدقة بوجود من يأخذها ، فيطهر ويزكى ويصلى ، فإذا جاز عدم من يطهر ويزكى ويصلى ، كان بطلان دفع الصدقة التى هى معقودة بهذه الشرائط أجوز . وإما أن يكون سد مسده بأئمة من ذريته جعل قيامهم بالصلاة ممن يقومون بهم قيامه ، وصيامهم بمن يصومون بهم صيامه فحكم الآية . « خذ من أموالهم صدقة » عض طرى ، (وهو) نص على إمامتهم جلى ، فهم عليه السلام مظنة أمر الله فى الصدقة ، يأخذونها ويطهرون ويزكون بها ، ويصلون على أهلها ، ويقضون دين جدهم محمد ﷺ فيها ، فقد خلصت زبدة قوله تعالى . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

(١) سورة التوبة : ١٠٣ .

فنقول بتوفيق الله تعالى فى معنى قوله . « أو لم ير الذين كفروا أن السموات

والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، أن السموات والأرض كانتا رتقا فى مضمار كلمة الله التى هى ‹‹ كن فيكون ›› ففتقناهما ، معناه (ففتقناهما) بإخراجهما إلى القيام بالليل ، كما قال الله تعالى : ‹‹ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون [1]››، فهذا الوجه بموافقة أهل الظاهر ، وحيث يقرب مأخذه من أفهامهم .

ونقول في وجه آخر : إن السموات والأرض كانتا رتقا فى العقل الكلى والنفس الكلية ففتقناهما بإخراجهما إلى القيام بالفعل ، وهذا الوجه بموافقه من يرى حدوث العالم من أهل الفلسفة .

ونقول فى وجه آخر : إن المعنى بالسموات والأرض غير هذه السموات والأرض الطبيعية ، إذ كانت هى لا قدرة لها على غير إنشاء اللحم والدم والعظم فقط ، وإن المعنى فيها سموات النفوس البشرية وأرضها الذين ينشئون الأرواح والنفوس بكلمات الله سبحانه النشأه الباقية للدار الآخرة ، وهم النطقاء والأسس ، وإن الذين كفروا هم قوم بأعيانهم كفروا بفضلهم ، وجحدوا برفيع مكانهم ، ورأوهم رتقا ، يعنى صموتا ، لا ينطقون عن جد الرسالة والتأييد ، وذلك قبل اتحادهم بها ، فلما أيداناهم بالوحى والتأييد ، تفتقوا ، قام من الأنبياء الأوصياء ، ومن الأوصياء الأئمة ، ومن الأئمة الحدود وأصحاب المنازل الأقرب فالأقرب ، فتفتقت سماؤهم بدور الغيب النفسانى وما كانت متفتقة ، وتفتقت أرضهم للنبات الدينى وكانت مرتقة ، فهنا يصح قوله سبحانه : ‹‹ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ››

(١) سورة النحل : ٤٠ .

لأنهم رأوا ذلك عيانا ، وعلموه يقينا ، واستدلوا بالشاهد منهم على الغائب ، حتى كأنهم شهدوا الجميع ، فكفروا ، ونافقوا . فقد ثبتت الرتق والفتق ، ووضح الصبح لذى عينين ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

واحمدوا الله تعالى بواجب حمده أن هداكم بإمامكم ، ورزقكم الأئتمام به في صلاتكم وصيامكم رفعا من قدركم ، وتضعيفا لأجركم ، وهو بقية جده رسول الله ﷺ فيكم جما ونفسا ، وسلالته جوهراً وجنساً ، وذلك أنه لما أقام الله سبحانه نبيه في الوقت الذى أقامه فيه ، وجعله رحمة لأوليائه وتابعيه ، وكان مستحيلا أن يبقى مخلدا ، لينال بركته من يأتى من أهل ملته كمن غبر ، ويلحق في استيفاء أقسامها من غاب كمن حضر ، أوجبت الحكمة الإلهية أن يقيم من ذريته أئمة شق الله سبحانه دينهم من دينه ، وطينة جسمهم من طينه ، ليكونوا بتناسل الخلق يتناسلون ، وبتواصلهم يتواصلون ، وتكون بركة رسول الله ﷺ بهم موجودة ، ومناهلها الموارد موردودة .

وقد كان النعمان بن ثابت المكنى أبا حنيفة رأى ذات يوم الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وهو يتوكأ على عصا ، فقال له النعمان : ما بلغ بك من السن يا ابن رسول الله بعد ما يحوجك إلى هذه العصا ، فقال الصادق ﷺ إنما أردت التبرك بها ، لأنها عصا رسول الله ﷺ ، فقال النعمان : لو علمت أنها عصا رسول الله ﷺ كما قلت لقبلتها فقال الصادق وقد حسر عن ذراعه . هبك تشك في العصا ، أتشك في أن هذا من لحم رسول الله ﷺ وعظمه وبشره ؟ فلم لا تقبله ؟ فتطأطأ النعمان ليقبله ، فجذب الصادق عليه السلام يده من يده ، وأسبل عليها كمه ، ودخل بيته .

والعجب أن المجوس ينشئون إلى اليوم ناراً من ألوف السنين يخدمونها ، ويحومون حولها ، ويرون بذل الأموال والمهج دون إطفائها . وذلك بأن فيها خميرة

من نار أوقدها رؤساء دينهم . واليهود أيضاً يراعون أيام الفطيرة مراعاة الفرائض والسنن اقتداء ببنى إسرائيل كما كانوا فى التيه بزعمهم ، وكانوا فى أكل الفطيرة . والنصارى متمسكون من المسيح عليه السلام بعدة من آثاره حتى إنهم يغالون فى تعظيم سنابك حماره . والمسلمون يتهاونون بأئمة دينهم الذين فيهم خميرة رسولهم ﷺ ، ويفرطون فى معرفة حقهم ، فيقعدون عما قام له المجوس واليهود والنصارى فى مأكول ومشروب لا قدر لهما مما يعزى إلى أنبيائهم عليه السلام . فما أظلمهم لمحمد ﷺ فى آله ، إلا قليلا ممن رحم الله وعصم .

وقد كان قرىء عليكم من قول الله سبحانه : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله (١) » ، ما تشعب القول فى شرح تأويله وتفرع ، وتكاثر فى ذكر تقاسيمه وتنوع ، وأورد عليكم أن إعجاز القرآن في لفظه يخص قوما بأعيانهم ممن نزل بلغتهم ولسانهم ، وأن إعجازه فى المعنى المتعلق بالتأويل المخصوص بمرتبة آل الرسول يعم جميع الخلائق ، بما يضم من برهان التقابل بين الخلق والدين والتوافق . قال الله أصدق القائلين : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (١) » . ونحن نشفع ما قدمناه بزيادة الشرح فى للتبيين والإيضاح ، ونكشف به عن الحق الصراح ، بمشيئة الله وعونه فنقول وبالله التوفيق : إن القرآن من حيث ظاهرة صورة مصورة والمعنى فيها روحها . فإذا كان قصور الاستطاعة واقعا أن يأتوا بمثل ظاهر القرآن بدليل قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

لبعض ظهيراً [1] ، فكيف يأتون بمثل باطنه ، والظاهر صورة وباطنها ومعناها روحها ؟ . وقد قال بعض الأئمة الصادقين عليه السلام : إن ما كان ظاهره معجزا كان باطنه أعجز ، وما أعجز الناس أن يأتوا بمثل ظاهره ، فأنى لهم أن يأتوا بمثل باطنه ؟ .

ومعلوم أن الإنسان يصور من الذهب والفضة والحديد وغيرها تصاوير لا يعدوها شيء من النظافة ، ولا يتجاوزها شرط فى الظرافة ، ولكنه مع حذقه فى التصوير ، وجزالته فى الخلق والتقدير ، يعجز أن ينفخ فى مثل بعوضة روحا ، فقد أبى الله سبحانه أن يكون ذلك لأحد من خلقه ممنوحا . فالقرآن وإن كان معجزا بلفظه فإن يأتى العرب بمثله ، فهو بمعناه معجز للعرب والعجم . والإعجاز من جهه معناه جامع لكافة الأمم .

وقد كان على الصادق عليه السلام من أعلمه انتداب بعض الناس بالمكان الذى رحل عنه الرد على القرآن ، فقال عليه السلام متعجبا من هذا الكلام : إنما يصح الرد على الشيء بعد قتله علما ، واستيفائه فهما ، فقل إذا رجعت لهذا المراد : أصح لك ما ينطوى عليه لفظ القرآن من المغزى فيه والمراد ، فيصح منك الرد ، أم لا ، فلا يصح ؟ فلما رجع ذكر له هذا الكلام بفصه كالمورد له من تلقاء نفسه فملكه التحير ، فطأطأ رأسه مليا وفكر ، ثم قال له : ليس هذا السهم من كنانتك ، فقل من أين لك ؟ فقال : من الصادق جعفر بن محمد عليه السلام . فقال: أصبت عن مثله يصدر مثله . فسخف فى عينه ما كان يفعله ، وعكف عليه بحرقه

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

ويغسله ، فكان كما قال الله تعالى : « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا [1] » .

---

(١) سورة طه : ٩٧ .

وأطيعوا إمام زمانكم . إنه لا يقبل إلا بطاعته عمل عامل ، واعرفوا من حيث مقاديره فى نفسه ، لا بجسمه فلا عذر لهم عنه جاهل ، واعلموا أن ثغر الإيمان به مسدود ، وأزر النبى ﷺ جده بمقامه مشدود . قال الله تعالى فيما أنزله من حكيم الذكر ، تالياً لما أمر به من طاعة رسوله وطاعة أولى الأمر : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول (١) » . ولولا مقامات الأئمة لخلا هذا القول من المحصول ، إذ كان النبى ﷺ مضى ، والمنازعات باقية مكانها ، تذكى تصاريف الأيام نيرانها . وحكم هذه الأية جار مجرى حكم قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم ، (٢) وقد تقدم فى بعض المجالس شرحها ، فقلنا : لم يسقط فرض الزكاة بما قدر الله تعالى على نبيه ﷺ من حضور الوفاة ، كذلك المنازعات غير متناهية بتناهى عمر النبى ﷺ ولا منقضية بانقضاء أيامه ، ولا الرسول ﷺ باق ليحكم فيما بينهم ، ولا دائم بدوامه ، فلو لم يكن القصد به النص على إمام من ذريته ﷺ بعد إمام ، يقومون من بعده بفصل الخطاب خير مقام ، لبطلت فى قوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » الفائدة من الكلام .

وقد فسر بعض المفسرين قوله جل اسمه : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » أن المعنى به الكتاب والشريعة قولا إنه مادام الكتاب والشريعة موجودين فكأن النبى ﷺ حى لم يمت. فإن كان المغزى فيه نفس الكتاب والشريعة

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة التوبة : ١٣ .

فالخلاف كله منهما ، وإن كان االمراد به العارفين – بزعمهم – بالكتاب والشريعة ، المختلفه الآراء المتباينى الأهواء الذين يحرمون برأيهم ويحللون ، فإنهم يشدون عقدة الخلاف أكثر مما يحلون . وإذا بطل الوجهان كان أهل بيت رسول الله ﷺ أحق بهذا المقام ، وأولى من توجه نحوه فحوى الكلام .

ونحن نتبع ما تقدم بمعنى قوله عز وجل : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين [١] ، فنقول إنه خطاب المنكرين للقرآن الصامت وفضله ، والقرآن الناطق وشريف محله ، أن يستظهروا بعلمائهم وفضلائهم ، فيخرجوا كالقرآن الصامت سورة ، أو يقيموا من يقع بممثول سورة من القرآن نفسا بانتقاش كلمة الله سبحانه المعمورة علما ، عالما ينطق بفصل الخطاب فى الدين ، ويستخرج كتابة الله سبحانه فى سمائه وأرضه منه بالبرهان المبين ، فهو يشتمل من المعارف الربانية والعلوم الروحانية ، على مثل ما يشتمل عليه السور المسور على المدينة المعمورة الجامعة للخيرات الكثيرة ، والنعم الموفورة .

وقوله جل جلاله : ، وادعوا شهداءكم مقتض معنى عجيبا وأمراً بديعاً غريباً، وذلك أن الله سبحانه كنى عن نفسه بالشهادة فى غير موضع من كتابه ، يقول وقوله الحق المبين : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم [٢] ، . وقال فى موضع آخر : ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب [٣] وفى

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨ .

(٣) سورة الرعد : ٤٣ .

موضع آخر : لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه [1] ، وكنى عن ملائكته بالشهادة فقال : والملائكة يشهدون [2] وما يجرى مجراها ، وكنى عن نبيه بالشهادة بقوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم [3] ، وكنى عن قوم سماهم الأمة الوسط بالشهادة ، فقال تعالى يخاطبهم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا [4] ، وأدعى القائلون بآرائهم ، النابذون للحق من ورائهم ، أنهم جميع من تلقى كلمة الشهادة ، قطعا عليهم ، ووفقا لديهم . فإذا كان هؤلاء كلهم شهداء على الناس ، فمن الناس المشهود عليهم ؟ قالوا اليهود والنصارى . وهذا خلف من القول ، شهرة فساده تغنى عن استظهار عليه بالإنكار ، وقائله لم يعرف شاهدا ولا مشهودا ، ولم يرد على الباطل فبئس ذلك وردا مورودا .

والمراد بالأمة الوسط الذين هم شهداء على الناس الأئمة من آل رسول الله ﷺ قال الصادق جعفر بن محمد ﷺ :نحن الأمة الوسط التى قال الله تعالى فى كتابه: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، ونحن الشهداء على الناس ورسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلغناه عن الله سبحانه . والعلة فى استحقاقهم الشهادة، أن الشهادة لا تثبت إلا بعلم ، والشهادة بغير علم ليست بشهادة، قال الله تعالى: « إلا من شهد

(١) سورة النساء : ١٦٦ .

(٢) سورة النساء : ١٦٦ .

(٣) سورة الحج : ٧٨ .

(٤) سورة البقرة : ١٤٣ .

بالحق وهم يعلمون ، فأثبت الشهادة بثبوت العلم . فلما كان أولياء الله الأئمة الطاهرون يعلمون من أمر المبدأ والمعاد ما حجبه الله عن كافة العباد ، بموادهم الإلهية ، وقواهم النفسية ، وبكونهم عقول هذا العالم ، لتعلق عقول الناس بهم ، وخروجهم من حد القوة إلى حد الفعل ، بمواردهم وإسنادهم إلى رسول الله ﷺ الحال في عالمه محل العقل الكلي في عالمه ، فلا تكاد تغيب عنهم غائبة ، ما يصلح شأن العياد في دينهم باكتساب صور المعاد ، لاق بهم اسم الشهادة لأنهم شهدوا خلق السموات والأرض ببصائرهم لا بأبصارهم الجسمية الكثيفة ، وكان ذلك منفيا عن أضدادهم الذين انتحلوا الإمامة أسماء ، ولم ينالوا من فوائدها قسما . فشهادتهم كذب ، لأنها بغير علم ، وما تمدحوا به من ميسمها أكبر نقصة وذم ، قال الله سبحانه : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً (١) » فهم الذين عنى الله بقوله : « وادعوا شهداءكم من دون اللهَ إن كنتم صادقين (٢) » .

---

(١) سورة الكهف : ٥١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

ومن جملة ما مر بكم منها مجلس مفرد ، تقدم هذا المجلس ، بذكر الشهداء ، وذكر من انتحل نعتهم زوراً ، والمحق الذى جعله اللّه سبحانه به جديراً ، وأن المحقين هم أولياء اللّه عليه السلام الذين شهدوا خلق السموات والأرض بموادهم الملكوتية ، فلما كملوا بهذه الفضيلة التى توجهم اللّهّ سبحانه بها ، واختصهم بمزيتها، جعلهم اللهّ الشهداء على خلقه ، والأمناء على دينه ، وأقام لكل واحد منهم فى عصره أثنى عشر نقيبا كنقباء بنى إسرائيل فى قومه ، لاثنتى عشرة جزيرة فى الأرض ، يكون كل واحد منهم شاهداً على أهل جزيرته ، ويكون محله محل الشهر من السنة التى هى أثنا عشر شهراً ، وأقام لكل نقيب من هؤلاء النقباء فى جزيرته ثلاثين باب مقسومين على الجزيرة ، لكل صقع منها رجل ، بإزاء ثلاثين يوما ، بها يصير الشهر شهراً ، وأقام لكل باب من هؤلاء الأبواب الثلاثين ، الذين كل واحد منهم بإزاء يوم أثنى عشر حداً ، يدعون فى حدود الدعوة المأذونين ، يقومون مقام أثنتى عشرة ساعة ، بها كمال اليوم ، وكل واحد من هولاء شهيد على من يلى أمره من أهل الاستجابة ، وعين فى موضعه لإمام عصره على ذوى التخلف منهم والنجابة .

ولما كانت الصورة هذه فى تحقيق الشهادة بهم ، وقيام الأشهاد ، ولزوم حجة اللّه سبحانه فيهم كافة العباد ، خاطبهم جل جلاله ، فقال : وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فالعموم من هذا الوجه دون ما تأولته العامة أن المعنى فيه جميع أمة محمد ﷺ ممن تلقن كلمة الشهادة وأكثرهم لا تقبل شهادتهم فى أقل شىء من عرض الدنيا فضلا عما يتعلق بالأخرى ، وبين لكم أن المبطلين هم أضدادهم الذين كنى اللّه سبحانه عنهم بقوله

: « وادعوا شهداءكم من دون الله » .

وذلك أنهم كما قال الله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا [1] » ولم يتصلوا بحبل التأييد وأهله، بل رضوا بأن يكونوا ممن أجلب بهم الشيطان على تابعيه من خيله ورجله ، وكيف يستحقون الشهادة بما لم يعلموا ؟ وأنى لهم أن يحكموا فى دين الله ولم يحكموا .

فنقول بتوفيق الله جل جلاله : إن الآخرة دار الصدق والدنيا دار الكذب . وقولنا الصدق هو ثبوت الشيء على أصل الصحة ، والكذب ضده ، إذا اعتبرنا أحوال الدنيا لم يستقر منها فعل على أصل الصحة ، فإنا نرى زمانها ربيعا تارة فلا يصح ، ويتبدل خريفا ، ونراه خريفا تارة فلا يصح ويتبدل بردا . وعلى هذه القضية تكون الصور الناشئة منها . نرى طفلا رضيعا ، فيستحيا صبيا ونرى صبيا، فيستحيل شابا ، ونرى شابا ، فيستحيل كهلا ، ونرى كهلا ، فيستحيل شيخا . وما يناسب هذا من الغنى والفقر ، والحياة والممات ، والعز والذل ، فأحوالها ماتزايل الاستحالة . وكلما مثل الإنسان فى نفسه منها صورة وجدها قد كذبته ، وصادفها خانته . والآخرة هى دار القرار ، ودار السلام ، سميت دار السلام لكونها سالمة من الكذب والاستحالة من حالة إلى حالة فصحتها بلا سقم ، وعزها بلا ذل . وغناها بلا فقر . فهى دار الصدق . وأنبياء الله سبحانه وأولياؤه باخبارهم عنها الصادقون.وأضدادهم الكاذبون . لأنهم أخلدوا إلى الدنيا التى هى دار الكذب .

(١) سورة الكهف : ٥١ .

وأما قوله سبحانه فى الآية التى أوردناها فى بعض المجالس المتقدمة ، وهى قوله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » فقلنا إن ارتباط دفع الصدقة بالأخذ المطهر المزكى المصلى على دافعيها ، وإنه إن كانت هذه المزية للنبى ﷺ خاصة ، فقد وجب أن يكون انقراض وجوب دفع الصدقة بانقراضه ، فما ههنا من آخذى الصدقات من يقوم بشرط التطهير والتزكة مقامة ، لو لم يكن فى ضمن هذه الآية النص على الأئمة من ذرية محمد ﷺ تناسلون تناسل معطى الصدقات فيأخذونها ، ويطهرون ويزكون بها ، ويسدون ، مسد جدهم محمد ﷺ فيها ، فهم المؤهلون لهذه الرتبة دون غيرهم ، لا يدعى مقامهم إلا آفك ولا ينازعهم فى أمرهم إلا هالك ، ومما يجرى مجرى ذلك مما هو باظهار أعلامهم كفيل ، وعليه نصح واضح ودليل .

قوله سبحانه: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوارة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم[1]، المعلوم من شأن هذه الآية أنها نزلت فى قوم كانوا يبايعون النبى ﷺ فى صدر الأسلام على أن يقوه بأنفسهم وأموالهم من كيد الكفار رغبة منهم فى الجنة ، واعتصاما من النار .

وسبيل هذه الآية سبيل ما تقدم فى كونها حذفاء بتراء زائلة الحكم طامسة الرسم لولا ما فى مطاويها من إيجاب النص على الأئمة من ذريته عليه السلام الذين لاتزال البيعة لهم على أعناق المؤمنين قائمة، والطاعة لهم على مثال طاعة

الله تعالى وطاعة رسوله لازمة، والجنة لطائعيهم مضمونة ، كقيام البيعة للنبى ﷺ لمن كان فى عصره ، لئلا يفقد عصر وزمان رسم النبى ﷺ فى ذلك وسنته ، وحكم هذه الآية جدته وطراوته، وليلحق من غير من المؤمنين بمن عبر، ومن بقى بمن مضى ودثر .

ولما كانت الصورة هذه وجب على المؤمنين أن يؤدوا إلى إمام زمانهم زكاة أموالهم فى أحيانها على الشرائط المبينة فى فقه الأئمة بأصنافها وكيفياتها ، وأن يؤدوا الفطرة التى هى زكاة رءوسهم قبل الفطر من الصوم . والغرض منهما وقوع الاعتراف منهم بحق الولاية ، والوفاء بأحكام البيعة لكون المؤدى لزكاة ماله معبر بالقدر المؤدى عن قدر ماله ، والمؤدى لفطرته معبرا بالقدر المؤدى عن عدد عياله وذلك إخلاص العبد لسيده والمسترشد لمرشده ، ثم لكل منهما تأويل على انفراد .

وانتهى إلى ذكر الصادقين والإبانة عنهم ، والدلالة عليهم ، والقول : إنه لما كانت دار الدنيا دار الاستحالة والكذب ، ولا يكاد شيء من أحوالها يظهر إلا وتكذبه فيه ، تظهر ربيعا فتكذب بأن تجعله حرا ، وحرا فتكذب بأن تجعله خريفا ، وخريفا فتكذب بأن تجعله بردا ، وتهب الصحة فتكذب بأن تجعلها سقما ، والحياة فتكذب بأن تجعلها موتا ، وما يشاكل ذلك مما إذا استقر فى نفس المرء أنه حاصل منها على مثاله صحيحة وجدها معلولة مكسورة فيقع الاستدلال من جميع هذا على كون الدنيا دار الكذب .

وإنه لما كان أنبياء الله وأولياؤه رجال الآخرة التى هى دار الصدق ، والناطقين غنها ، والداعين إليها ، والمفيدين صورة النفوس منها ، استحقوا إسم

الصدق والصادقين ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » والمعنى به الصادقون من هذا الوجه ، كما سئل الصادق عليه السلام جعفر بن محمد عن الآية فقال : « نحن الصادقون » ، وإيانا عنى به ، خلاف ما يتصوره العامة فى تفسيرها أنهم الصادقون فى لفظهم ، كيف قاموا وكيف قعدوا ، وكيف أعطوا ، وكيف أخذوا .

واشترط لكم فى المجلس المتقدم أن يلقى إليكم زيادة في الشرح ، يشرح الله لكم صدورا ، ويزيدكم على نوركم نورا ، فنقول وبالله التوفيق : إن الذى يدل على وجود الكذب والتحريف فى دار الكثافة ، وامتناع وجودهما فى دار البساطة ، أن الإنسان إذا أراد أن يكذب فلا يمكنه ما دام القول فى سر نفسه ، ولم يخرجه إلى الوجود بلفظه ، وإنما يكذب عند خروجه إلى الخارج ، وتجسمه بالألفاظ والحروف ، فقد علمنا امتناع وجود الكذب والاعوجاج حيث تكون اللطافة والبساطة من دار الآخرة التى تعزى إليها النفوس البشرية ، كما لا وجود للكذب فى النفس إلا إذا خرج كلمة ، فتجسمت بالألفاظ ، وقد قال الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين » والصدقون هم المترجمون عن عالم اللطافة ، والمفيدون صور النفوس منها ، على ما قدمنا شرحه ، وهى الصورة الملكوتية ، ولا يكون فيها عوج . والكاذبون هم الذين يأخذون أمثلة دينهم من دار الدنيا التى هى دار الكذب والاستحالة ، فيعتقدون فى معادهم المصير إلى مثل حالهم فى دار الدنيا ، أكلا وشربا ونكاحا ، وهى الخصال البهيمية .

فنقول : إن موضوع القرآن من حيث كونه ظاهرا وباطنا ، كموضوع خلق اللهّ سبحانه بكونه آخره وأولى ، والصورة البشرية بكونها روحا وجسما ، فظاهره مختلف تدل باستحالات كاستحالة أفعال الزمان بمختلفات الأهوية والأوقات ، وكالأجسام فيما تعاقب عليها من إختلاف الحالات ، فمن بنى على مضمون آية متصورا ومتقررا صحته فى سره ، وجد عقدة تصوره محلولة فى مكان غيره ، كالمعتقد أن الله سبحانه يرى ، لقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة(١) » ووقوع الاستحالة بقوله : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار (٢) » وأمثاله . وكالمعتقد فى الأفعال أنها من الناس بمشيئتهم وقصدهم ، بدليل قوله : «وقل الحق من ربك ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر (٣) » وأمثاله ، ووقوع الاستحالات بقوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله (٤) » وقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا (٥) » . وكالمعتقد أن القرآن كلام الله سبحانه بدليل قوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل

---

(١) سورة القيامة : ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

(٤) سورة الأنسان : ٣٠ .

(٥) سورة الأنعام : ١٢٥ .

به الروح الأمين ، على قلبك [1] ، ووقوع الاستحالة بقوله : « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم [2] » . وكالمعتقد أن السماء خلقت قبل الأرض بدليل قوله : « أ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ورعاها [3] ، ووقوع الاستحالة بقوله : « قل أ إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين » ، إلى قوله : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لهاوللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين [4] » . فهده الآية وأمثالها كثيرة من المستحيلات التى ما يخلو الناس فيها من تعاد وتباغض وتخالف وتنازع . كل فرقة من فرق الإختلاف ، لو كانت لها على القرآن يد لمحت منه ما خالف إلى طريقتها [5] ، وقوى عليها شوكة خصمها ، وهى جارية مجرى الاستحالات الزمانية والجسمية فى تبديل الخلقة وتغيير الصورة ، فمن علق بظاهر القرآن اختبط فى استحالة كاستحالة الزمان ، فلم يبرم تصورا فى فحوى آية وعقدا إلا ورأى لها فى آية أخرى نقضا وضدا على مثال الأهوية التى يختلف أمرها ،

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤ .

(٢) سورة التكوير : ١٥ – ١٩ .

(٣) سورة النازعات : ٢٧ – ٣١ .

(٤) سورة فصلت : ٩ – ١١ .

(٥) خالف إلى الشيء = أتاه من خلفه .

ويتعاقب بردها وحرها ، فيضل سبيله ، ويبعد عن الرشد دليله ، ومن علق به فى التصور من جهة معناه نال رشده نحو أخراه ، وأفاد نفسه صورتها من دار الصدق التى لا يشينها كذب ، والراحة التى لا يشوبها تعب ، بإرشاد الصادقين آل الرسول القائمين بتكميل صور النفوس والعقل ، وإخراجها من القوة إلى الفعل ، ليستقر قرارها فى عالم العقل . قال الله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وقد قيل إن النفس كالقرطاس الأبيض المترشح لقبول النقش ، فالسعيد من وقع على نصيح ينقش ذلك القرطاس بنقش صحيح ، وقد قال رسول الله ﷺ «السعيد من سعد فى بطن أمه ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، فذهب فريق من أهل التنجم بكلامه ﷺ إلى أن أصل السعادة والشقاوة من حد مسقط النطفة ، فمن أجل ذلك قال هذا القول . والطبائع الأربع من حيث كون الأشياء إليها منتسبة وعنها متولدة تسمى الأمهات ، فأنتم أيها المؤمنون فى بطنها ، وحاصلون فى كنها وضمنها من حيث الأجسام ، فأما من حيث النفوس فإن حجة صاحب الدور فى وقته ، وصاحب كل عصر من بعده هو الأم النفسانية على ما تقدم الشرح به فى غير هذا المجلس ، وأنتم فى حضنه وتحت ستره وكنه ، فعدلوا صوركم مادمتم فى غشاء المشيمة من بطن الأم ، وتمسكوا مادام الحبل فى أيديكم بوثايق الحزم ، وتغنموا وجود السبيل ، من قبل أن يتجاوز التقدير إلى التعطيل .

ثم إن الله سبحانه قال : « فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا (١) » ، فبدأ بشرط من يجوز أن يفعل ، ويجوز أن لا يفعل ، ثم بالقطع على أنه لا يفعل ، فقد علم جلا جلاله : أين يقع كلام المخلوقين من كلام أحسن الخالقين ، كما علم أين يقع إختيار العباد الناقصين من إختيار رب العالمين .

وأما ما قطعه الله سبحانه « فلن تفعلوا » والذى يدل عليه من حال ظاهر القرآن أنه من عهد النبى ﷺ وإلى اليوم يتلى فى شرق الأرض وغربها ، وهو مناد على نفسه بقوله : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

---

(١) سورة البقرة : ٢٤ .

لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) ، وبالآية التى عليها بناء الكلام من قوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله (٢) ، وهو أقل أقسام ما تقدم وأدنى أجزائه . وقد خرست الألسن أن تفوه بها وتقول وتنبسط فيها فتطول .

والذى يدل عليه فى حال من هو ممثول القرآن ، أن الإنسان بنطقه وعقله مبرز على سائر أنواع الحيوان ، فهو متملك لها ، ومسخرها بجملتها ، ومتصرف فيها تصرف الملاك فى المماليك، فلا يكاد شىء منها يلحق شأوه ، ولا ينال مناله. وعلى هذه النسبة فإن النسبة الشريفة التى قلنا إنها ممثول للقرآن ، وإنها القرآن الناطق الذى يقوم به هذا القرآن الصامت ، وإن أحدهما متعلق بالآخر ، ومهما فرق بينهما بطلت فائدتهما جميعا ، فتلك النسمة الشريفة أيضا تحل بتأييدها من الله سبحانه وحظها من رسول الله ﷺ عند النسبة الشريفة أيضا تحل إلى الصور الإنسانية ، محل الصور الإنسانية عند نسبتها إلى الصور الحيوانية ، فنفسها قبلة نفوس العالمين ، والكافية إلى الاستضاءة بأنوارها فى صلاح أحوال معادها عين المفتقرين . ويدل على ذلك قوله ﷺ فى أمر الدنيا : « سلونى قبل أن تفقدونى ، سلونى عما كان ، وعما يكون إلى يوم القيامة . وقوله عليه السلام فى أمر الآخرة : والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، عنى به عليه السلام أنه يعرف قبل كشف غطاء الآخرة ما يعرفه عند كشفه ، فلا يكاد يزداد هنالك خبره به ويقينا ، فأية يد تنال من هذه سبيله أو تتناوله ؟ أم أية يد تنال من هو فى مقام سورة منه إذا بأن

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

تحقيق قوله جل إسمه : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » على التأبيد ، فهذا وجه .

وفى وجه آخر أن النبى ﷺ مستوف كمال الأنبياء عليه السلام وقواهم الإلهية ، التى بها شرعوا الشرائع ، ونصبوا منها المراقى إلى ذورة النجاة والمطالع ، فلا ينبغى له وصى إلا من يكون مستوفيا كمال الأوصياء بموادهم النفسانية التى بها فتحوا مغاليق الأمثال ، وحلوا عقد الأشكال ، فهو فى العالم فرد ، كما أن النبى ﷺ فى العالم فرد ، فمن أين لهم أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، فقد بان تحقيق قوله تعالى : « لن تفعلوا » على التأبيد .

ومن أين لهم أن ينفخوا فيه نفخة التأييد ويمدوه فى خرق حجب الملكوت بالباع المديد ، كمثل من قال : « والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » ، وذلك بأن اللهّ سبحانه اصطفاه لنبيه ﷺ وصيا ، فجعل له سلطانا مبينا .

وسوى هذا فإن الله تعالى أجرى نظام الحكمة على أن يكون جميع ما خلق من خلقه محسوسا ومعقولا ، ومثلا وممثولا . مقسوما قسمين : فقسم أدوات فاعله مثل الأفلاك والأنجم وما يشاكلها ، وقسم أدوات مفعول فيها ، هى لآثار الصنع قابلة، مثل الأرض وما يقوم منها ، فكل من الآلات الفاعلة والآلات المفعول فيها القابلة ، ملىء بما أريد فيه من المراد فى الإنشاء والإيجاد ، فما عليه من مستزاد ، فلو أن قائلا قال : إنها تحتمل على الصيغة التى هى عليها زيادة كذبته العقول ، وكان له على سفه الرأى المحصول . وعلى هذه المثالة فأن الله سبحانه ناط بأنبيائه المصطفين من العباد من أمور بريته فى مصالح نفوسهم للمعاد ما ناط بالسبع الشداد لأجسامهم والأرض المهاد وقسمهم كذلك قسمين : مؤثرين وقابلين ، مفعولا فهم وفاعلين ، وجعلهم كذلك بما وكله إليهم أملياء ، وبما ناط بهم أوفياء . فلو أن قائلا قال : إن الحال تحتمل الزيادة كذبته المثالة فى خلق السموات والأرض التى من لم يرض بها رضى الجهل قلادة ، وأعطى للخرق مقاده ، « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [1] » . فقد وضح قوله جل جلاله : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

ونحن نورد عليكم ما يلى ذلك من قوله سبحانه : « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » [١] .

كان قد تقدم القول بذكر النار فى مجلس مفرد ، فذكرنا أنها مثل على سلطان النبوة ، ولموع نور التأييد لمن يصطفيه الله سبحانه من عباده كما قال جل جلاله : « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً [٢] » . وتلك النار سلطان النبوة التى تنقسم إلى سعادة المقتبسين منها ، والمستضيئين بها ، وشقاوة الجاحدين لحقها ، والدافعين لها . وكذلك السلطان فى الدنيا ينقسم إلى سعادة من هو فى حريمه والقرب منه ، وشقاوة من ينافره ويشاقه . وعلى ما يقرب من هذا المثال موضوع النار التى هى من جملة الأجسام المركبة ، فأنها تؤدى من ذاتها معنيين : نورا وحراً ، بمجموعهما تسمى نارا . فالنار التى هى النبوة ، نور لأهل الإيمان ، مؤديهم إلى عالم النور بالفوز الأبدى فى جنة النعيم ، وحر لأهل الكفر والنفاق مؤد بهم إلى العذاب الأبدى فى حر الجحيم . والذات ذات واحدة : للمؤمنين نورها ، وللكافر حرها وثبورها فخاطب الله سبحانه المرتابين منن الجهتين ظاهراً وباطناً والجاحدين من الفريقين ، متوعداً لهم بخالصة الضر ، وذاكرا فوز أهل الطاعة بالصفاء ، وتفردهم [٣] بالكدر ثم قال : وقودها الناس والحجارة » .

---

(١) سورة البقرة : ٢٤ .

(٢) سورة القصص : ٢٩ .

(٣) يقصد : تفرد الجاحدين والمرتابين .

التأليف ههنا بين الناس والحجارة عجب ، وقوله بعد ذلك : « أعدت للكافرين» أعجب . فهل الكافرون غير الناس ؟ ومعلوم أن الناس من الحجارة بالبعد الأبعد ، لكون الحجارة في الجماد غاية ، لا تلين ولا تذوب ، ولا يقع الانتفاع بها ، كوقوع الإنتفاع بالمذابات التي هي من جملة الجماد ، وقد قال الله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة [1] . فمثل القلوب التي هي أخص شيء باللطافة من القوم الذين خاطبهم بالحجارة ، لا متناعها أن تلين لذكر الله ، أو يظهر فيها أثر خشية الله ، فلما جاز أن يكنى عن قلوب قوم هناك بالحجارة وجب أن يكون عنى بالحجارة ههنا أيضا قوما كنى عنهم بهذه الكناية لكونهم بامتناع تأثير خشية الله تعالى ومراقبته فيهم بالغاية [2] . وهم في حد التأويل قوم لم يتصلوا بحدود الدعوة ، ولم تنجح فيهم أثار الحكمة ، فهم من حيث الإنسانية كالجماد ، وإن كانت صورهم ألفية ، وأشكالهم إنسانية كالجماد ، والناس الذين هو قرناؤهم في النار قوم آنسوا رشدهم فباينوه ، وأنسوا به ثم نافروه ، مروقا عن دين الله ، وغلوا في أولياء الله كقول رسول الله ﷺ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » . وهاتان الفرقتان قد كنى النبي ﷺ عنهما ، وأشار إليهما ، فقال : « يا على هلك فيك أثنان : مفرط ومقصر ، وهو يوافق قوله سبحانه : « وقودها الناس والحجارة » .

---

(١) سورة البقرة : ٧٤ .

(٢) يقصد أنهم بلغوا الغاية في عدم التأثر .

والمفرطون وإن باينوا المقصرين بولاية الوصي والأئمة ، والبراءة ممن تعدى عليهم من الأمة ، فقد عادوا لمثل ما عليه رأى الحشوية ، والمعبر عنهم بالحجارة قولا بالهية ذوى الأجسام ، واعتقادا فى الثواب والعقاب ، لأرك معتقدات العوام ، فوافقوهم فى كثير من حشو كلامهم وهجومهم ، وزادوا عليهم بضلالتهم وكفرهم قولا فى الوصى وغيره من الأئمة ، أنهم الغاية والمعنى ، وأن محل الثواب والعقاب دار الدنيا .

ولما كانت الصورة هذه جمعتهم والحشوية المنكرين للحق العاهة ، فقويت بينهم المناسبة ، فقال الله سبحانه : « وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » الساترين للحق ، والناكبين عن منهج الصدق .

وإن كان بعض المفسرين احترز لما رأى فى المناسبة بين الناس والحجارة بعدا بعيدا ، فقال : إنما عنى بها حجارة الكبريت التى تسرع إليها النار بالجنسية ، لا هو مكمن فيها من القوة النارية . وهذا شيء فى نفس المفسر ، لا فى نص القرآن ، ماله من حجة عليه ولا برهان ، فأنى لهم أن يطيروا بغير جناح ، ويفتحوا أغلاق رموز الكتاب بلا مفتاح ، ولو علموا مكان النقيصة التى يدخلونها فى قدرة الله سبحانه بهذا المقام لكفوا عن الهيمان فى وادى المحال . إذ كان أحدنا إذا أراد إنشاء نار ، قعدت به القدرة أن ينشئها إلا محمولة على ذبالة أو ضرام ، لأن النار لا وجود لها فى الدنيا إلا على هذه السبيل .

والحكمة توجب وجود مركز النار فيما دون الفلك من خلقه الله ، تعتزى إليها النيران الموجودة فى العالم ، كما أن الأرض مركز الأجسام الظلمانية الثقيلة وكما أن البحار مركز المياه المنبوعة ، والهواء مركز الرياح المختلفة . ولو لم يكن للنار عنصر موجود فى أصل الخليقة ، لم يصح لها وجود عندنا فى الأرض ، فهى عندنا محمولة على الحطب والذبالة وما يجرى مجراهما ، وفى مركزها غير محمولة ولا محتاجة إلى ما تتعلق به وتتمسك من الحطب أو حجارة الكبريت ، ليكون وقودها . ولم تضق قدرة الله تعالى التامة عن اتخاذ النار بلا وقود ، كما لا يضيق على قدرته تعذيب من يريد تعذيبه بعذاب يقيمه عليه من ذات نفسه ، فلا يدخل عليها شيئا من خارج شبيها بأفعال الناقصين فى القدرة . ونحن نرى المرض الطبعى يذكى فى جسم المريض ناراً تتلظى فى وقت الصر والقر ، وبرداً يكاد يقطع أوصاله فى حين القيظ والحر .

وإذا كانت هذه الحالة مسلمة لفعل الطبيعة ، فكيف لخالق الطبيعة الذى لا تقصر به قدرة ، ولا تقف دونه مشيئة ، وإنما ألفاظ القرآن الواردة فى مثل ذلك مخرجة على صيغة يأخذ منها الجاهل بحسب جهله ، والعاقل على قدر عقله ، ومقيدة بالثقل الآخر الذى هو أهل بيت نبيه ﷺ ، فلا يكاد يصح معلوم من معانيه إلا ما جعلوه للناس معلوما ، وما قرروه فى نفوسهم فيصير مفهوما ، كما قال النبى ﷺ : إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى ، الخبر المشهور ، وأردفه بقوله : وإنهما لن يفترقا و « لن » حرف التأييد ، فلا كتاب إلا مع العترة ، ولا عترة إلا مع الكتاب .

وأما قوله سبحانه : « أعدت للكافرين » فقول مستغنى عن إيراده إن كان الكافرون هم الناس الألى ذكر أنهم وقودها ، وإن كانوا غيرهم ، وجب الإخبار عنهم على إنفراد ، فتقول : « إن الكفر ستر الشيء وتغطيته ، على ما عرف فى موضوع اللغة ، ومنه سمى الزارع كافرا ، لأنه يغطى كل شيء ، والبحر كافراً ، لمثله من العلة ، فسمى الكافر كافراً ، لستره ما علمه من الحق والإيمان .

ثم إن الكافر على قسمين : أحدهما من سحب ذيله على الحق الذى استبانه واستوضحه ، طلبا لرياسة باطل ، وحسداً لصاحب الحق على حقه ، وهو شر القسمين ، كأضداد الأوصياء والأئمة فى كل عصر ، والمتوثبين على مكانتهم فى الوصاية والإمامة . والقسم الآخر من تبعهم على رأيهم ، واقتدى بهم فى باطلهم ، اغتراراً ببدعهم ، وانخداعا بخدعهم ، وليس له ذلك القصد الذى هو لهم فى باطل يحققونه ، وحتى يبطلونه ، بل هو من أجل أنهم استغووه واستهووه فصدوه عن

سبيل الله ، ومنعوه عن السلوك فى شعب أولياء الله .

فالأضداد أصل فى الغواية لحكم هذه الآية . و « الناس والحجارة » كالموضوع على ذلك الأصل ، فمنه قال الله تعالى : « أعدت الكافرين » الأضداد الذين حق عليهم ميسم الكفار ، فصار الناس والحجارة ، وقد تأولنا عيالا عليهم فى النار ، فتمير « الناس » الذين قال : إنه وقودها ، عن « الكافرين » ، والكافرون » عن «الناس» فى ضمن الآية . ولولاها لكانت إحدى الكلمتين عن « الناس » الذين قال إنهم وقودها ، و « الكافرين » الذين أعدت لهم لغوا ، بكون الناس الكافرين بعينهم ، والكافرين الناس ، لا فرق بينهما .

وأورد عليكم القرآن حق وصدق ، ولكن إذا عبر عنه أهله الصادقون ، وتولاه أولياؤه الأئمة من أهل البيت الذين هم الراتقون في استنباط معانيه الفاتقون ، فأما إذا لعبت به أيدى اللعاب ، لم يحصلوا من عذب شرابه إلا على السراب ، فليت شعرى ما محصول المخالفين اللائمة الطاهرين من قول الله عز وجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون [1] ، إلا أحد أمرين : إما أن ينفوا أدوات سمعهم وبصرهم فيبطلوها، أو يقولوا : لا حكم لها ، ولا معول عليها ، فيدفعوا كل عيان وكل سماع ، ويقولوا : ما بذلك للجملة من إنتفاع ، وإما أن يكذبوا ربهم – سبحانه عن الكذب – إذا سمعوه يقول فى كتابه فى قتلى الجهاد ، لا تحسبنهم أمواتاً ، وهم يشاهدونهم ميتين، ويقول : بل أحياء عند ربهم يرزقون وهم يرونهم مجلدين ، وبدمائهم مضرجين ، لا أحياء ولا مرزوقين ، فقد بان بهذا القول أن القرآن بأهل القرآن ، ومهما فرق بينهما أدت الصورة إلى تكذيبه أو دفع العيان .

ونحن نتلو عليكم الآن من قوله سبحانه مخاطبا لرسوله ﷺ : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة، وهم فيها خالدون » [2] ما نجلوه بشرحه الحكمى التأويلى ، ونجليه ببيانه

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥ .

العقلى الجلى ، فنقول بمعونة اللّه سبحانه فى قوله لرسوله : « وبشر الذين » : إن البشير فى موضوع اللغة متقدم القوم لطلب الماء ، فإذا وقع به لوح بسيفه أو بثوبه ، علامة للوجود وبشارة به . فالماء المتعارف ممسك الأرواح وسبب الأقوات ، وبوجوده وجود الحيوانات على إختلاف الصفات .قال اللّه تعالى ذكره : « وجعلنا من الماء كل شيء حى [1] » .

والذى يقع بمقابلة الماء الذى به وبوجوده وجود صور الأجسام الفانية فى دار الفناء ، هو تأييد النبوة الذى منه فيض العلوم التى بها وجود الصور النفسانية الباقية فى دار البقاء .

والذى يقع بمقابلةمتقدم القوم الطالب للماء هو فى هذا الدور المصطفى محمدﷺ خاتم الأنبياء، فهو متقدم أهل هذا العالم بالعلم فى ورود منها النجاة، ومشرب ماء الحياة الذى كلهم له طالبون، وفى نيل ما تتمسك به أرواحهم منه راغبون.

والذى يقع بمقابلة تلويح البشير أو بثوبه يبشر بوجوده إياه ، وحصوله عليه هو إظهار النبى ﷺ أعلام نبوته بما أضاء للعقول شعاعه ، وظهر لنوره التماعه ، فتعين لكل ذى عين أنه الراحلة إليه فيما يحى الحياة فيه « أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً ، وداعيا إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيرا [2] » .

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

ونحن نورد عليكم الآن من معنى قوله عز اسمه . « الذين آمنوا وعملوا الصالحات (١) » ما قدمناه ذكر آمنه فيما مضى ، وإن كان تكرره فى نص التنزيل يوجب تكريره فى شرح التأويل ، فنقول بتوفيق الله عز وجل . إن الإيمان هو التصديق بدليل قوله جل جلاله لإبراهيم عليه السلام ، « أو لم تؤمن (٢) » معناه أو لم تصدق ؟ والتصديق يختص بما يستملى عن الصادقين فى دين الله الذين يصدقهم خلق السموات والأرض من الآفاق والأنفس التى بين اللهّ عز وجل ذكرها فى كتابه ، وهم أهل بيت رسول الله ﷺ الذين يستنطقون ألسن عالم الطبيعة بأسرار الشريعة ، ويخرجون أمثلة هذه من هذا ، وأمثله هذا من هذه ، فيدلون به على كونه صدر الدين من حيث صدر عنه خلق السموات والأرض مثلا بمثل ، كما قال الله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون (٣) » ، وذكرنا حالهم فى مجالس شتى ، والعلة التى اقتضت أن يسموا الصادقين » .

والإيمان فعل متعد ، و معنى قولنا متعد أنه غير مختص بعين واحد، وأنه يوجب اثنين . ثم إذا فسر على معنى التصديق لزم وجود المصدق الذى هو المفعول، وإن فسر على وجه الأمن لزم وجود من يقع الفعل به ، كذلك لفظ الإيمان يحتمل المعنيين جميعاً ، كما قال النبى ﷺ : « المؤمن من آمن جاره بوائقه » .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٠ .

(٣) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

وقد ورد فى إيجاب التى اقتضت أن يتسمى العبد مؤمنا ، والمعبود تعالى كذلك مؤمنا ،أنه يتعين هذا الأم على العبد بكونه مصدقا لله تعالى فى وعده ووعيده الواردين على ألسن رسله ﷺ ويتعين على المعبود سبحانه كذلك ، من أجل أنه إذا عرف ذلك من سر عبده آمنه من عذابه .

وجاء ذكر الإيمان فى نص القرآن على وجوه مختلفة ، فمنها إيمان تام خالص ، ومنها إيمان ناقص ، ومنها إيمان مشوب بالشرك . فأما الأيمان الخالص المحمود الذى يبشر الله أهله ويثنى عليهم ، فأهله هم الجامعون بين الصدق والأمن ، الموجب لهما نفس لفظ الإيمان ، فأما الصدق فمن حيث حلت نفوسهم فى دار الصدق التى هى الآخرة ، وإن كانوا بجسومهم فى دار الكذب التى هى الدنيا . وأما الأمن فمن حيث إنهم لما حلوا بلطائف نفوسهم دار السلام أمنوا عليها من الاستحالات الطارئة على الأجسام ، فصار الموت ريحانتهم ، كى يتخلصوا التخلص الكلى ، فينالوا الفوز الأزلى ، كما قال النبى : الموت ريحانة المؤمن . فهذه الفرقة هم المخلصون فى ولاية على ﷺ والأئمة من ذريته عليه السلام ، والمؤتمرون لهم ائتمار الرعية ، لمن أمرهم الله تعالى عليهم السلام ووكل أمورهم إليهم . قال رسول الله ﷺ : « ما ذكر الله سبحانه فى آية من القرآن : « يأأيها الذين آمنوا » إلا وعلى عليه السلام أمرهم ، فهذه الإمارة ثابتة فى ذرية على عليه السلام بثبوت المخاطبين ب « يأأيها الذين آمنوا » وكما أن الخطاب فى ذلك جامع لمن تقدم من المؤمنين وتأخر ، والنداء قائم بدوام هذه العبارة دائمة ، وهى الإمارة فى الدين التى من زاغ عنها عصى الله تعالى ورسوله ﷺ ، فزاغ عن سنة المهتدين . وكما أن العاصى على أميره فى الدنيا خارجى ، فالعاصى على أميره فى دينه أولى بأن

يكون خارجا ، فإن مات على عصيانه مات جاهليا . والذى يؤكد قول النبى ﷺ فى النص بالإمارة قول الله تعالى فى النص بالطاعة : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم [١]» فقد ثبت أن أولى الأمر أمراء المؤمنين على الوجه الذى ذكرنا ، دون قول العامة ، إنهم أمراء السرايا .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

واعلموا أن المنقول من الدنيا أحد ثلاثة رجال : إما متلاش على رأى أهل الإلحاد ، الذين يسعون فى الأرض بالفساد ، استغواء لمن غلبت عليه شقوته ، واستزلالا ، ونزوعا بهم عن طاعة أنبيائهم عليه السلام ، تبرما بتكاليفهم واستثقالا . أو مثاب لحق بعمله ، فحصل فى دار النعيم . أو معاقب أحاطت به خطيئته فدخل فى قرار الجحيم . ويمتنع أن يكون لأحد من هؤلاء الثلاثة إلى الدينار جوع ، فليس لرجوعهم فى مواقع العقل وقوع .

فأما القائل بالتلاشى فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، وله الويل يوم يقال : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير (١) » إذا كان القول بالتلاشى فرعا على إثبات الصانع العالم القادر أو نفيه . فإن كان صانع لم يلق بقدرته وحكمته أن يأتى صنعا من الخلقة البشرية ، أتقنه وأحكمه ، حتى إذا بلغ أشد كماله ، نقضه وهدمه ، فهذا عبث من الفعل ، ينتفى عن ذوى الحجى العقل الذين هم لله سبحانه عباد ، وله بالعبادة ابتغاء رحمته قصاد . وإما أن يكون لا صانع – والعياذ بالله من هذا القول – غير هذه الأفلاك الدائرة ، والأنجم السائرة التى نقضى بالكون والفساد والإعدام والإيجاد ، ثم لا وراءها وراء والكلام بعدها هذا ، وهذا كلام يبطله العيان ، ويقوم على فساد بنيانه البرهان ، وذلك أنه قد يوجد للصور الإنسانية فضيلة ، تعدمها لذاتها الأفلاك الدائرة ، والأنجم السائرة و التى هى – بزعم الزاعم – صانعها وهى (٢) القوى الناطقة التى بها عن الأفلاك

---

(١) سورة فاطر : ٣٧ .

(٢) أى الفضيلة التى للصور الإنسانية .

تعبر ولها على كبرها فى ذاتها تحصر . وليس فى المعهود فاعل يقصر دون مفعوله، ولا مالك يضعف عن مملوكه ، فقد دل بهذا العيان على كون الأفلاك والأنجم غير الصانع ، بل خلقها الصانع سببا لإنشاء الصور الإنسانية . وآلة لوجودها. على أن الإنسان المخلوق بتوسطها أشرف وأعلى منزلة منها بالقوى الناطقة والعاقلة التى صار بها حاكما ، والأفلاك محكوما عليها .

فإذا استقر وهو مستقر - إلا عند من طبع الله على قلبه - فقد زال حكم التلاشي ، وبطل القول به ، ودحضت حجة أهله .

وبقى الكلام على القسمين الآخرين اللذين هما المثاب والمعاقب ، وأنه يستحيل عودهما إلى الدنيا . أما المثاب فمن أجل أنه يمتنع لمن حصل فوق الغبراء تحت أديم السماء ، وطعم من الدنيا مطعومها ، وشم مشمومها ، وسرح فى فسحة فضائها ، أن يرجع ألى أغطية الأصلاب والأرحام ، وكذلك الفرق بين دار الدنيا ودار السلام ، فممتنع أن يكون منعهما يتقهقر عن النعيم إلى الجحيم ، ويرتد فى الحافرة من العيشة الراضية إلى نكد العيش الذميم .

وأما المعاقب فيمتنع عوده أيضا لكونه محبوساً بما جناه ، مرهونا بما قدمت يداه ، فيمتنع الرجوع إلى دار الدنيا ، التى هى جنة بالنسبة إلى ما يقاسيه من عذاب ربه سبحانه المديد ، وأخذه الأليم الشديد ، وهو يتمنى لورد بدليل قوله عن أسمه : « قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (١) » وما يجرى مجرى

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

هذه الآية . قال الله سبحانه : « كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون [١] » .

فالعمل العمل ، أيها المؤمنون ، ما دمتم لمركب العمر ركابا ، واعمروا صور نفوسكم من قبل أن تصير الأجسام خرابا .

وقد كان قرىء عليكم من قول الله سبحانه : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . الآية [٢] » ما إنتهى به إلى تأويل قوله : « الذين آمنوا » وذكر لكم أن الإيمان على ثلاثة أقسام : إيمان ناقص ، وإيمان مشوب بالشرك . ثم أتى على شرح الإيمان الخالص ، فذكر أن نفس لفظ الإيمان يقتضى معنيين : أحدهما الصدق ، والآخر الأمن ، وأن الصدق مستملى عن الصادقين الذين يقوم البرهان على صدقهم ، وأنه لما كان الوصى والأئمة من ذريته يستنطقون تركيب السموات والأرض والصور البشرية ، الذين يقوم البرهان بكونهم القوم المأمور باتباعهم ، إذ قال سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين [٣] » كان الصدق منسوبا إليهم ، والإيمان الذى هو مأخوذ منه معذوقا بهم ، ولا يستحق اسم الإيمان إلا من كان بحبلهم متصلا ، وعلى ولائهم مشتملا . فاجتمع له الصدق بإشرافه بنفسه اللطيفة على معالم دار الصدق والأمن ،

---

(١) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥ .

(٣) سورة التوبة : ١١٩ .

والأمن بطمأنينته إلى دار السلام ودار الأمن .

ثم إن رسول الله ﷺ فصل مجمل القول في ذلك بقوله ﷺ « ما نزل في موضع من القرآن (ياأيها الذين آمنوا) إلا وعلى أميرهم ، فثبت أن المؤمنين بأميرهم : كما أن الرعية بأميرها ، وثبت أيضا دوام إمارة الأئمة من ذرية على عليه السلام على المؤمنين بدوامهم، كما ثبت أن خطاب الله سبحانه للمؤمنين بقول : « ياأيها الذين آمنوا » (دائم) بدوام المؤمنين، وأكده قول الله تعالى: « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم [1] » . وهم أمراء المؤمنين .

ونحن نورد عليكم الآن من شرح الإيمان الناقص والإيمان المشوب بالشرك ما يجلو صدأ القلوب ، ويحظى النفوس الصادية للمعارف الربانية بحظ الخير المطلوب ، بمشيئة الله وعونه ، فنقول وبالله التوفيق وعليه التوكل :

إن الإيمان الناقص هو أول الأستجابة والاتصال بحدود الدعوة ، ومثل صاحبه مثل المولود الآدمي الذي إذا ولد وقع عليه اسم الإنسان ، لكنه قاصر القدرة، ضعيف الأدلة ، غير متمكن من السعي والبطش والتصرف ، فهو على ما هو بصدده إنسان ، لكنه يراعى منه كماله وتمامه ، واستقلاله ونظامه . يدل على ذلك قول الله جل جلاله : « ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله [2] » . ولولا المعنى الذى أشرنا إليه لكان قوله : « آمنوا » بعد شهادته سبحانه بأنهم آمنوا عبثا ، فدل

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة النساء : ١٣٦ .

بذلك على كون المخاطبين بافتتاح إيمانهم كالمواليد فى افتتاح أيام ولادتهم ، فندبوا للتكميل ، وحضوا فى استتمام ما بدأوا فيه على اغتنام الحظ الجزيل ، استنشاء لصورهم بالصدق والأمن من جهة أهلها أولياء اللّه الصادقين الذين هم آباؤهم أبوة الدين ، وجريا على منهاجهم ، ليكونوا بهم من اللاحقين لحاق الأبناء بالآباء ، قال اللّه سبحانه وهو أصدق القائلين : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم [1] » .

(١) سورة الطور : ٢١ .

ونحن نورد عليكم الآن من شرح الإيمان المشوب بالشرك ما يكون برهانه معضودا ، ومشهدا أعلام الحق فيه مشهودا بمشيئة الله وعونه ، فنقول وبالله التوفيق بوجيز من القول : إن الإيمان هو نفس الشيء المأخوذ عن رسول الله ﷺ مما نزل إليه وحيا من الله سبحانه ، ففيه طهرة النفوس ، ونجاة الأرواح ، مادام باقيا على هيئة ما أنزل ، ولم تخالطه البدع والإختلافات التى تصدر من المخلوقين ، وكأنهم يشاركون الله سبحانه بها فى دينه وأمره ، وحلاله وحرامه ، فمهما خالطه ما هذه سبيله ، صار إيمانا مشوبا بالشرك ، لا ينفع الله به ولا يزكى عمل أهله ، ومثال ذلك الماء النازل من السماء ، فيه منافع الأجسام ولذتها ، وطهرة جميع الأشياء ونظافتها ، ما لم تغلب عليه النجاسة ، فإذا غلبت عليه النجاسة بطل ، وذهبت منافعه ، وإن كان جوهر الماء باقيا فيه لم يحل ولم يزل ، كذلك الإيمان الذى هو النازل من السماء ، إذا خالطته البدع صار شركا ، وبطل الانتفاع به وإن كان جوهر الإيمان باقيا فيه حيث كونه منزلا من الله سبحانه فى أصله .

فنقول بتوفيق الله جل جلاله : إن الإنسان من حيث الجسيمة معجون من الطينة البهيمية ، لا فرق بينه وبين البهيمة إلا بالشكل المنتصب ، فأنما الإنسانية اكتساب فيه من حيث أن له قوة قابلة لما يلقى إليه ، لا وجود لها فى البهيمة ، والدليل على ذلك أن أول سبب الفرقان بينه وبين البهيمة هو النطق ، ولو لم يجد معلما يعلمه النطق ما نطق أبدا ، وإذا كان النطق الذى هو مهيأ له ، ومخلوق من جهه ، يتعذر عليه إلا بمعلم ، كان تعذر معرفة الله سبحانه عليه والأمور المغيبة عن الحس فيما يتعلق بالدار الآخرة إلا بمعلم أولى .ولما كانت الصورة هذه وجب أن يصطفى الله سبحانه من بريته قوما ، يجعل فيهم من التهيؤ لقبول آثار كلمته دون الناس كلهم ، ما جعل فى الياقوت الأحمر ، وما يجرى مجراه من التهيؤ لقبول أثار الشمس إلى الحد الذى يشف به ويشرف دون الأحجار كلها وذلك المعنى هو النبوة التى بها تصح المعارف الإلهية ، وأهلها القوامون على أنفس البشر بما يكسبها الإنسانية ، ويصبغها الصبغة الدينية ، فوجب بعث الأنبياء ، لإظهار معالم الحق ، ونجاة أرواح الخلق ، وكان ما أتوا به رموزا وأمثالا وقولا مجملا ، غير مفصل ، حل ذلك محل النطفة من الذكر أن التى تحتاج إلى إناث قابلات بالغات فى حد القبول ، مثل المؤدين البالغين فى حد الأداء ، وبهن تصير النطفة الغير المفصلة صورة مفصلة بسمعها وبصرها وأدواتها ، وكان هؤلاء الإناث الأوصياء ، يدل على ذلك قول النبى ﷺ لعلى عليه السلام : « أنا وأنت ياعلى أبو المؤمنين » وإذا اعتبر ذلك فى متعارف العامة ، لم يكن النبى ﷺ أبا ولا على أما ، وإنما كنى النبى عن نفسه بكونه أبا لاحتوائه على النطفة الإلهية بالوحى الموحى إليه ، وكنى عن على بكونه أما ، لإتخاذه إياه مستودع علمه ، على أن يكون ما ألقاه إليه مجملا ، يخرجه إلى مستحقيه مفصلا ، على ما تكون عليه الأنثى ، أن تقبل النطفة مجملا ، وتؤدى

الصورة مفصلا .

ولما كانت الصورة هذه كان الذى أتى به الرسول ﷺ من القول بالتوحيد الذى عليه تدور دائرة العبادة ويصح إخلاص الشهادة على ماقدمنا ذكره غير مفصل ، يقضى الرجوع به إلى وصيه عليه السلام الذى يقوم فيه بفضل الخطاب ، كما قال اللّه تعالى فى شأن داود عليه السلام : « وآتينا الحكمة وفصل الخطاب و ليصح قانونه ، ويتضح طريقه ، وتنتفى عنه الصفات اللاحقة بمبدعاته ومصنوعاته ، فلما عدل أكثر الناس عنه إلى الأضداد الذين توثبوا على مكانة من خلافة رسول اللّه ﷺ سقطوا عمن تكفل لإقامة معالم توحيده بفضل الخطاب ، وخبطوا فى أبواب الشبهة والارتياب ، ففريق وصفوا ربهم سحانه بصفة الأجسام ، وفريق وصفوه بصفة النفوس ، وهم المدققون بزعمهم – فى الكلام ، تائهين فى وادى الشك ، لابسين إيمانهم بالشرك بوصى برسول اللّه ﷺ الشرك باللّه عز وجل فهم به مهلكون ، ووضح تحقيق ما قال اللّه سبحانه : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١) .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٦ .

ونحن نورد عليكم الآن فى معنى قوله سبحانه : « وعملوا الصالحات ما نرجو به صلاح أعمالكم المؤدى إلى حسن مآبكم ومآلكم ، فنقول وبالله التوفيق : إن المتعارف من معنى الصالحات أنها فعل الخير وهو إيتاء الإحسان والبر والعمل بالطاعات ، التى تقرب إلى رب العالمين ، وتوجب الأجر على من لا يضيع أجر المحسنين . وهذا علم يشترك فيه كا من يفتق لسانه بالكلام ، وتتساوى فى معرفته أقدام الخاص والعام . ولما كانت هذه سبيله فى الاشتهار ، ووضوح الآيات والآثار ، فلا حاجة بالناس إلى استملائه وحياً عن الله سبحانه وتعالى ذكره ، وأخذا عن رسوله العظيم قدره ، إلا أن يكون فى هذا الإظهار المعلوم إضمار ليس بالمدرك بفطنتهم ، ولا المفهوم دون الرجعى به ، إلى الرسالة إلى معلم الدين ، وهاد يهدى الله بإرشاده المهتدين ، فحينئذ يلزم أخذه عن الله سبحانه ورسوله ﷺ ليترقى به من ظاهر حكم جل إلى باطن علم خفى .

ولما كانت الصورة هذه كانت الصالحات هى الاقتداء بصالح المؤمنين، فى كل وقت وزمان، وهو إمام عصرهم، القيم بأحكام القرآن قال الله سبحانه: « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين(١) » ورد فى بعض تفسير الشيعة أن صالح المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وهو فى قضايا الدعوة الإمام الذى هو سابق الأئمة عليه السلام والإمامة فى الرتبة دون الوصاية، فمهما ثبت الإمام والإمامة ثبتت الصالحات كلها، التى تنقسم إلى العدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وما يجرى معها، وثبتت حقيقة المعرفة والطاعة، وحصل ما تعرفه الأمم من خصال الخير كلها وزيادة، وكانت حركات التابعين للإمام وسكناتهم كلها صالحات. ومهما نفى الإمام.

---

(١) سورة التحريم : ٤ .

مصادر ومراجع التحقيق

١ – أسد الغابة : لابن الأثير ، دار الشعب – القاهرة ١٩٧٠م–١٩٧٤م.

٢– الإصابة فى أسماء الصحابة : لابن حجر العسقلانى، تحقيق على محمد البجاوى، نهضة مصر – القاهرة ١٩٧٨م .

٣– الأعلام : للزركلى ، القاهرة ١٩٥٤م – ١٩٥٩م .

٤– الأنساب : للسمعانى ، نشره مصوراً مرجليوت – ليدن/ لندن ١٩١٢م.

٥– تاريخ الإسلام : للذهبى ، بيروت ١٩٨٤م .

٦– تاريخ بغداد: لابن للخطيب البغدادى ، طبع الخانجى – القاهرة ١٣٤٩هـ .

٧– تاريخ الدولة الفاطمية : الدكتور حسن إبراهيم حسن ، النهضة المصرية– القاهرة ١٩٤٧م .

٨– تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر : الدكتور محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٧٥م .

٩– تبيين كذب المفترى : لابن عساكر – نشره القدسى – دمشق ١٩٢٧م.

١٠– تذكرة الحفاظ : للذهبى ، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمى ، حيدر آباد الهند ١٣٧٤هـ .

١١- حسن المحاضرة : للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٨م .

١٢- خطط المقريزى : بولاق ١٢٧٠هـ .

١٣- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، لمحسن الطهرانى ، النجف - العراق ١٣٥٥هـ.

١٤- سير أعلاء النبلاء : للذهبى ، بيروت ١٩٨٥م - ١٩٨٧م .

١٥- ضحى الإسلام : أحمد أمين ، القاهرة ١٩٦٤م.

١٦- ظهر الإسلام : أحمد أمين ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٧- طبقات الشيرازى : تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٨م .

١٨- طبقات العبادى : تحقيق غوستا فيتسنام - ليدن ١٩٦٤م .

١٩- الفاطميون فى مصر : الدكتور حسن إبراهيم حسن ، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٤م.

٢٠- الفاطميون (وسقوط دولتهم فى مصر) : الدكتور عبد المنعم ماجد ، دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٨م.

٢١- الفهرست : لابن النديم ، بيروت ١٩٧٥م .

٢٢- فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥١ م.

٢٣- الكامل : لابن الأثير : دار صادر - بيروت ١٩٦٥م.

٢٤- اللباب فى تهذيب الأنساب : لابن الأثير ، نشره القدسى - القاهرة ١٣٥٧هـ.

٢٥- لسان الميزان : لابن حجر العسقلانى، حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٣١هـ.

٢٦- المختصر فى أخبار البشر : لأبى الفدا ، الحسينية - القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢٧- مروج الذهب : للمسعودى - القاهرة ١٩٦٤م .

٢٨- معجم الأدباء : لياقوت الحموى - القاهرة ١٩٢٣م .

٢٩- معجم البلدان : لياقوت الحموى ، باعتناء وستنفلد - طهران ١٩٦٥م .

٣٠- الملل والنحل : للشهرستانى ، تحقيق محمد فتح الله بدران - الأزهر - القاهرة ١٣٦٦ هـ .

٣١- المنتظم : لابن الجوزى ، حيدر آباد الهند ١٣٥٧ هـ .

٣٢- النجوم الزاهرة : لابن تغرى بردى ، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٢ م .

٣٣- نكت الهميان : للصفدى : تحقيق أحمد زكى - الجمالية - القاهرة ١٩١١ م.

٣٤- الوافى بالوفيات : للصفدى - استانبول ١٩٣١ م .

٣٥- وفيات الأعيان : لابن خلكان : تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار صادر - بيروت ١٩٧٣ م .